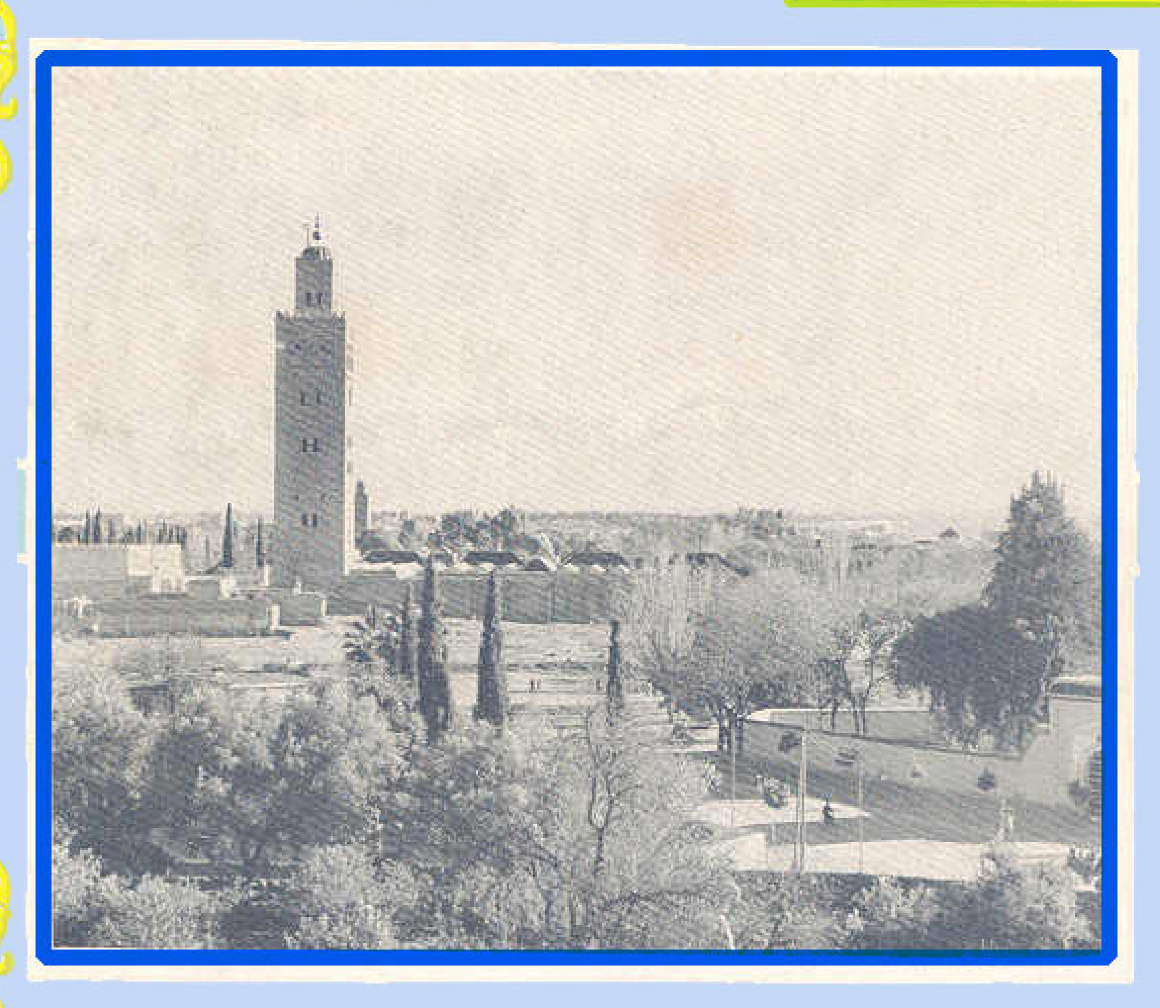
دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد السابع السنة الخامسة
ذو القعدة 1381 ابريل 1962
ثمن العدد 1,50 درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد السابع السنة الخامسة
ذو القعدة 1381
ابريل 1962
ثمن العدد
1,50 درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف. الرباط - المغرب

صورة الغلاف



مدينة مراكش وصومعتها الشهيرة الكتبية كما تبدو في فصل الشتاء

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» - قسم التحرير - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغرب .

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ؛ والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لايقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
« دعوة الحق » الحوالة البريدية رقم 55 - 485 - الرباط -
DAOUAT AL HAK compte chèque postal 485-55 à RABAT
او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة «دعوة الحق» - قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط - المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل مايتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » قسم التوزيع - وزارة عموم الاوقاف - الرباط
تليفون 308.10 - الرباط

نظرة في الإعجاز

للأستاذ : مالك بن نبي

لم يتح لهذا الكتاب ان يرى النور فى صورته الكاملة ، فالواقع اننا قد أعددنا تأليف اصوله التي احرقت فى ظروف خاصة . وهو كما هو الآن ، لا يكفي فى علاج فكرتنا الاولى عن المشكلة القرآنية ، فان الموضوع يستلزم عملا شاقا طويل الانفاس ، ومراجع ذات اهمية قصوى ، لم يكن بوسعنا الحصول عليها فى محاولتنا الثانية . غير اننا لا زلنا نشعر بقيمة الفكرة التي ساقتنا الى هذه الدراسة ، حتى لقد آمنا بضرورة بذل ما نستطيع من الجهد فى سبيل تحقيقها ، مهما تكن صعوبات المشروع ، ومهما تكن المعوقات دون تحقيقه .

ولهذا حاولنا ان نجمع العناصر التي بقيت من الاصل مكتوبة فى قصاصات ، او مسجلة فى الذاكرة ، فانقذنا بذلك – على ما نعتقد – جوهر الموضوع ، وهو الاهتمام بتحقيق منهج تحليلي فى دراسة الظاهرة القرآنية ، وهو منهج يحقق من الناحية العملية هدفا مزدوجا هو :

1 – انه يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج فى الدين .

2 – وانه يقترح اصلاحا مناسبا للمنهج القديم فى تفسير القرآن .

وهذه المهمة وتلك ترجعان الى اسباب مختلفة ، يتصل بعضها بالتطور الثقافي الذي حدث فى العالم الاسلامي بصورة عامة ، وبعضها يرجع الى عنصر آخر ، يمكن ان نسميه « تطور نظرتنا فى مشكلة الاعجاز » بصورة خاصة ، ولابد اذن من عرض هذه الاسباب بترتيبها :

اولا : الاسباب التاريخية :

ينبغي أن ندرك ان التطور الثقافي فى العالم الاسلامي يمر بمرحلة خطيرة ، اذ تتلقى النهضة الاسلامية افكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية وبخاصة من طريق مصر . هذه الافكار الفنية لا تقتصر على اشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يتعودها الشباب المسلم شيئا فشيئا ، بل انها تمس ايضا ، وبطريقة غامضة ، ما يتصل بالفكر ، وما يتصل بالنفس، وفى كلمة واحدة : ما يتصل بالحياة الروحية .

وانه لمما يثير العجب ان نرى كثيرا من الشباب المسلم المثقف يتلقون اليوم عناصر ثقافية تتصل بمعتقداتهم الدينية واحيانا بدوافعهم الروحية نفسها، من خلال كتابات المتخصصين الاوربيين .

ان الدراسات الاسلامية التي تظهر فى اوربا باقلام كبار المستشرقين واقع لا جدال فيه ، ولكن هل نتصور المكانة التي يحتلها هذا الواقع فى الحركة الفكرية الحديثة فى البلاد الاسلامية .

ان الاعمال الادبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت فى الواقع درجة خطيرة من الاشعاع لا نكاد نتصورها ، وحسبنا دليلا على ذلك ان يضم مجمع اللغة العربية فى مصر بين اعضائه عالما فرنسيا . وربما امكننا ان ندرك ذلك اذا لاحظنا عدد رسالات الدكتوراه ، وطبيعة هذه الرسالات التي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كل عام الى جامعة باريس وحدها ، وفى هذه الرسالات كلها يصرون – وهم اساتذة الثقافة العربية فى الغد وباعثو نهضة الاسلام – يصرون كما اوجبوا على انفسهم ، على ترديد الافكار التي زكاها اساتذتهم الغربيون .

وعن هذا الطريق اوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الاسلامية ، محددا بذلك اتجاهها التاريخي الى درجة كبيرة .

تلكم هي الازمة الخطيرة التي تمر بها ثقافتنا الآن ، مثيرة هنا وهناك صدى مناظرات مدوية ، كما حدث في مصر بين الدكتور زكي مبارك والدكتور طه حسين ، حيث عبرت مناظرتهما في انشودة ادبية يهزها الحماس عن المأساة الحديثة للفكر الاسلامي .

ولكن لهذه الازمة العامة مظهرا يهم موضوع دراستنا هذه ، واعني به تأثير دراسات المستشرقين على الفكر الديني لدى شبابنا الجامعي ، الشباب الذي يتجه الى المصادر الغربية ، حتى فيما يخص معارفه الاسلامية الشخصية ، سواء اكان هذا الاتجاه ناشئا عن افتقار مكتباتنا ام لمجرد التجانس والقرابة العقلية .

لقد نضبت فعلا المصادر المحلية من كنوزها الثقافية ، مولية وجهها شطر المكتبات الاهلية في اروبا ، والحق ان مصر قد بذلت جهدا عظيما كيما تضع في متناول الفكر الاسلامي ادوات جديدة للعمل وذلك بما اتيح لها من مطابع حديثة ، وعمل جاد اضطلع به شبابها الفتي المتعلم ولكن هذا الجهد نفسه يعيش في كنف الدهاء الاداري الموروث من عهد الاستعمار .

وايا ما كان الامر ، فان الشباب المسلم المثقف في بعض ديار الاسلام يرى نفسه مضطرا الى ان يلجا الى مصادر المؤلفين الاجانب خضوعا لمقتضيات عقلية جديدة ، ولعله بقدر الى حد كبير منهجها الوضعي الديكارتي ، حتى اننا نجد قضاة وشيوخا معممين يتذوقون فيها رشاقتها الهندسية .

وهذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراق بمناهجه على الموضوع العلمي ، ولكن الهوى السياسي الديني قد كشف عن نفسه احيانا وبكل اسف في تآليف هؤلاء المتخصصين الاروبيين في الدراسات الاسلامية ، رغم انها تدعو الى الاعجاب حقا .

فلم يكن الاب لامانس R. P. Lamance المثل الفريد للمستشرق الطاعن على الاسلام ورجاله ، والحالة الوحيدة التي يمكن ان تلحظ فيها العمل الصامت لتقويض دعائم الاسلام ، فقد كان لهذا الرجل (الشاطر) على الاقل — فضل في الكشف عن بغضه الشديد للقرآن ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شك ان العمل في ظل هذا التعصب الصاخب خير من تلك الميكيافيلية الصامتة المستهجنة التي اتبعها مستشرقون آخرون ، متسترين بستار العلم .

ومن العجيب ان نذكر ما تتمتع به هذه الافكار الحمقاء من مجاملة ، ولا سيما في مصر عندما تصدرها جماعات الغرب ، واصدق مثال على ذلك وبلا جدال — الفرض الذي وضعه المستشرق الانجليزي « مارجليوث » عن (الشعر الجاهلي) ، فقد نشر هذا الفرض في يوليو عام 1925 في احدى المجلات الاستشراقية ، وفي خلال عام 1926 نشر « طه حسين » كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي) ، فهذا التسلسل التاريخي معبر تماما عن تبعية بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للاساتذة الغربيين (*)

وربما لم يكن فرض « مرجليوث » ليحتوي على شيء خاص غير عادي لو انه حين نشر لم يصادف ذلك الترحيب الحار من المجلات المستعربة ، ومن بعض الرسالات التي تقدم بها دكاترة عرب محدثون ، حتى لقد كسب هذا الفرض قيمة « المقياس الثابت » في دراسة الدكتور صباغ عن « المجاز في القرآن » ، فقد رفض هذا الدكتور رفضا مقصودا مفرضا الاعتراف بالشعر الجاهلي كحقيقة موضوعية في تاريخ الادب العربي .

فالمشكلة بوضعها الراهن — اذن تتجاوز نطاق الادب والتاريخ ، وتهم مباشرة منهج التفسير القديم كله ، ذلك المنهج القائم على المقارنة الاسلوبية معتمدا على الشعر الجاهلي كحقيقة لا تقبل الجدل .

وعلى اية حال ، فقد كان من الممكن ان تثور هذه المشكلة تبعا للتطور الجديد في الفكر الاسلامي ، وانما بصورة اقل ثورية لان ضرورات التطور تقضي بتعديل

(*) ذكرنا هنا فرض مرجليوث لكي تبرز امام القارىء المسلم ضرورة تطبيق منهج تحليلي جديد في تفسير القرآن ، ويستطيع القارىء ان يدرك قيمة هذا المنهج القائم على دراسة الظواهر (La Phénoménologie) وعلى طرق التحليل النفسي وسيدرك ايضا اننا لا ندرس آراء مرجليوث او من يتلمذ عليه مثل « طه حسين » ، وانما نريد به دراسة « الظاهرة القرآنية » .

منهج التفسير القديم تعديلا يناسب حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث . ولكن يخيل الينا ان مارجليوث اراد بفرضه ان يفرض على المشكلة تطورا ثوريا ، حين ادخل في الوقت المناسب ما يشبه (الديناميت) الذي قد ينسف كل مناهج التفسير القديم .

لقد قام اعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر ، وكان لجوء التفسير الى الدراسة الاسلوبية لكي يضع لاعجاز القرآن اساسا عقليا ضروريا ، فلو اننا طبقنا نتائج فرض مارجليوث كما فعل الدكتور صباغ لانهار ذلك الاساس . ومن هنا توضع مشكلة التفسير في صورة خطيرة بالنسبة لعقيدة المسلم ، اعني بالنسبة الى اعجاز القرآن في نظر هذا المسلم . وربما لم يكن التطور العقلي ليقصر عن دفع شبابنا الجامعي الى ملاحظة تقادم المقياس القديم ان آجلا او عاجلا ، ذلك المقياس الذي كان يقدم حتى ذلك الحين الدليل القاطع على المصدر الغيبي للقرآن . اما بالنسبة للعقل ذي الصبغة « الديكارتية » فاية قيمة تبقى لبرهان يبدو منذئذ وقد فقد موضوعيته ، واصبح ذاتيا محضا . وهذا الموضوع لا يتصل ببيان القرآن الذي بقي على ما هو عليه حين نزوله ، ولكن بوضع المسلم نفسه .

والحق انه لا يوجد مسلم — وبخاصة في البلاد غير العربية — يمكنه ان يقارن موضوعيا بين آية قرآنية وفقرة موزونة او مقفاة من آدب العصر الجاهلي ، فمنذ وقت طويل لم تعد نملك في اذواقنا عبقرية اللغة العربية ، ليمكننا ان نستنبط من مقارنة ادبية نتيجة عادلة حكيمة ، ومنذ وقت طويل ايضا تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية . فمشكلة التفسير توضع اذن في ضوء جديد ، وربما نظر اليها علماء مصر المحدثون في هذا الضوء الجديد .

ولكن يبدو ان جهود هؤلاء العلماء رغم انها لا تغفل الجانب الاجتماعي في علم التفسير لم تحدد منهجها الكامل ، فالتفسير الكبير الذي الفه الشيخ طنطاوي جوهري انتاج علمي أشبه بدائرة معارف ، ولا ينطوي على أقل اهتمام بتحديد منهج ، اما تفسير الشيخ « رشيد رضا » الذي اتبع فيه امامه الشيخ محمد عبده فلم يضع هو الآخر هذا المنهج ، فقد كان همه ان يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد .

ومع انه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلا جوهريا فانه قد خلق في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الادبي اهتماما بالنقاش الديني . ومع ذلك فمشكلة التفسير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذي شكلته مدرسة « ديكارت » من جهة ، وبالنسبة لمجموع الافكار الدارجة التي هي اساس الثقافة الشعبية من جهة اخرى .

ومن المعلوم ان كل مجتمع يحتوي مشكلة افكار دارجة تحرك الجماهير ، كما يحتوي مشكلة افكار علمية تخص المثقفين ، وكما ان هذه تحدد لدى القادة والعلماء حلولا نظرية لبعض المشكلات ، فان تلك تحدد السلوك العملي للجماعات ازاء هذه المشاكل التي تصادفهم في الحياة ، ففي العالم الاسلامي توجد الآن طبقة مثقفة مقتنعة بحركة الارض ، ولكن هناك جمهورا كبيرا من الدراويش ، وشعبا من الجهال من كل نوع يصر على اعتقاده « بأن الارض ساكنة تحملها العناية على قرن ثور » . وهذه الفكرة الدارجة قد تؤثر في توجيه التاريخ اكثر من الفكرة العلمية ، لانها تستند الى خرافة مفسر غير موفق يرى الارض على قرن ثور ، ولناخذ على ذلك مثالا : « البوصلة ومقياس الزاوية » فعلى الرغم من انهما من انتاج افكار المسلمين الفنية ، فان العالم الاسلامي لم يستخدمهما مثلا في اكتشاف امريكا ، لانه كان مشلولا آنذاك عن التقدم العقلي والاجتماعي بافكار شعبية ميتة . اليست هذه هي المأساة التي اراد الغزالي ان يعبر عنها في بيته المشهور :

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجد
لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

ان مشكلة التفسير القرآني على اية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم ، كما انها مشكلة الافكار الدارجة لدى رجل الشارع . ومن هاتين الوجهتين ينبغي ان يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الاسلامي . وبالتالي فاذا كانت هذه الاسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل فهناك اسباب أخرى تدل على محتواه ، اعني على صورة المنهج الذي يجب ان نسلكه في مشكلة الاعجاز .

يتبع

القاهرة : مالك بن نبي

التصوف الاندلسي ، مبادئه واصوله

بقلم
الدكتور محمود علي مكي

لم يختلف الباحثون المحدثون – ولا سيما الغربيون منهم – حول شيء قدر اختلافهم في نشأة التصوف الاسلامي ، وقد عني المستشرقون انفسهم من تلمس مصدر اجنبي للتصوف ، فنسبه بعضهم للرياضات الروحية التي كان يقوم بها الهنود ، ونسبه آخرون الى اصول ايرانية قديمة ، وقال آخرون ان جذور التصوف الاسلامي يهودية او مسيحية ، وكان كل لون من الوان الفكر العربي ينبغي ان يرد الى اصول غريبة عن الاسلام .

والواقع ان التصوف اسلامي محض ، له شخصيته المتميزة القوية ، وقد كان يستمد اولا وقبل كل شيء من حياة الزهد والتقشف التي كان الرسول (ص) وبعض الصحابة رضي الله عنهم يحبونها ، ثم تطور هذا الزهد والتبتل كما تتطور سائر الوان الفكر وتسير من البساطة الى التعقيد ، وهكذا انتهت الى التصوف كما نعرفه على مر العصور ، وهذا لايمنع ان يكون التصوف قد تاثر تاثرا قويا من خلال هذا التطور والنمو الطبيعيين برواسب الثقافات القديمة ولا سيما بالرهبنة المسيحية وبالافلاطونية الحديثة ، على ان التصوف الاسلامي ظل دائما محتفظا بشخصيته المستقلة القوية ، وقد باشر بعد ذلك آثارا عميقة في تفكير مسيحية العصور الوسطى كما هو معروف .

كذلك اختلف في اصل اشتقاق لفظ التصوف ، والارجح انه يرجع الى ان اللباس الذي كانت تتميز به هذه الطائفة من الزهاد كان ثياب الصوف رمزا الى الخشونة والتقشف .

وقد ارتبط التصوف منذ نشاته بالزهد كما ذكرنا ، غير انه بمرور الزمن فرق رجال الصوفية بين طائفتهم وبين الزهاد ، اذ اصبحوا في مرتبة اكثر سموا ، بل كانت نظرتهم الى الزهاد مشوبة بشيء من التعالي كما جاء في هذا الخبر الذي يرويه ابو نعيم الاصبهاني عن الصوفي المصري ذي النون حيث يقول : (العارف متلوث الظاهر صافي الباطن ، والزاهد صافي الظاهر متلوث الباطن) وليس معنى ذلك ان الزهد لم يعد من لوازم المتصوف ، وانما ارادوا به ان الزهد في ظاهره يمكن ان يكون مصطنعا لسبب من اسباب الدنيا وان التصوف الحقيقي لايرتبط بهذا المظهر الخارجي .

وقد ارتبطت البيئة المصرية منذ قديم بالتصوف حتى قبل تحول مصر الى الاسلام ، فالرهبانية في المسيحية مثلا مصرية النشاة منذ ان اسس القديس المصري باخوم في القرن الرابع الميلادي اول مجموعة من الاديرة ، وقد انتشر هذا النظام الرهباني بعد ذلك الى سائر بلاد المسيحية في العالم ، بل كانت مشاركة مصر في التصوف سابقة على ذلك منذ نشوء الافلاطونية الجديدة في رحاب هذه البلاد ، وربما كانت البيئة المصرية بما احتوت عليه من آثار قدماء المصريين الرائعة مما اوحى بالكثير الى اهل التفكير الصوفي منذ زمن عريق القدم ، فان تلك الآثار كان من شانها ان تثير لدى هؤلاء المنقطعين الى عبادة الله رغبة في التامل الباطني العميق ، وسنرى ذلك ظاهرا في التفكير الصوفي عند اول صوفي مصري جدير بهذا الاسم وهو ذو النون الاخميمي .

وهكذا كان لمصر نصيب كبير في نشاة هذا اللون من الحياة الروحية الاسلامية ، وتحدثنا المراجع

التاريخية عن طائفة وجدت في الاسكندرية في سنة 200 كانت تسمى « الصوفية » وكانت تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولسنا نعرف عن تلك الطائفة الا اشتراكها في الاحداث الواقعة في المدينة من حروب وفتن كانوا فيها حلفاء لاولئك الاندلسيين الربضيين الذين احتلوا الاسكندرية في ذلك الوقت ، ولا تعلم ما اذا كانت هذه الطائفة تدين بعقيدة روحية تسمح لنا بان نعتبرهم صوفيين بمعنى الكلمة ، على انه ربما كانت هذه اول جماعة يطلق عليها ذلك الاسم في العالم الاسلامي ، وهو امر لا يخلو من دلالة .

وعلى اية حال فان اول صوفي كبير برز في مصر في هذه الفترة المبكرة ــ اواخر القرن الثاني واوائل الثالث ــ هو ذو النون ثوبان بن ابراهيم المصري الاخميمي ، ولا يتسع المجال للترجمة لذي النون والحديث عنه بالتفصيل ولكنا نكتفي بعرض سريع لحياته وآرائه ، وانما سنقف عنده وقفة خاصة لانه يمثل الاتجاه المصري في التصوف الاسلامي خير تمثيل، ثم للاثر العظيم الذي باشره ذو النون في تصوف المغرب والاندلس بصفة خاصة .

ولد ذو النون في اخميم بصعيد مصر في حدود سنة 180 ، من اصل نوبي على ما يظهر ، وكان اول ما طالعه وتفتحت عليه عيناه تلك الآثار المصرية التي كانت تؤجج في نفسه الرغبة في الاستطلاع والشره الى المعرفة ، ويذكر المترجمون له انه اخذ الفقه عن امام المدينة مالك ابن انس وامام مصر الليث بن سعد ، وهو امر نظنه مستحيلا اذ ان مولده يقارب وقت وفاة هذين الامامين ، ونعتقد ان ذا النون ما كان ليهتم كثيرا بالفقه ونوازله ومسائله ، وان اهتمامه كان موجها منذ البدء الى الرياضات الروحية ، ويذكر آخرون من مشايخه في طريق التصوف فاطمة النيسابورية وسعدون واسرافيل وهما شيخان لانكاد نعرف عنهما الا ما ورد في ترجمة ذي النون نفسه ، وربما كان اهم هؤلاء شيخ قيرواني هو شقران بن علي المعروف بالفرضي ، اذ كان الى جانب حياته المتزهدة الناسكة فقيها عليما بقسمة المواريث ، على انه يبدو ان ذا النون كان استاذ نفسه وانه كان يكل تكوينه الروحي الى تامله وعبادته ، ولعله كان يعمل بما اوصاه به سعدون في مقبرة البصرة :

يا طالب العلم ها هنا وهنا
ومعدن العلم بين جنبيكا

ان كنت تبغي الجنان تسكنها
فلتذرف الدمع فوق خديكا

وقم اذا قام كل مجتهد
تدعوه كيما يقول لبيكا

وكان ذو النون كذلك كثير السياحات فبينما نراه بين الحقول الخضر على الضفاف اذا به بعد ذلك تائها في صحاري الحجاز ، او ضاربا في شعاب سينا او متزويا في بعض كهوف بيت المقدس او مصعدا في جبال لبنان ، بل يحمله الظمأ الى علوم الروح على الرحلة الى المغرب فاذا بنا نراه في القيروان قابعا اربعين يوما على باب شقران ليستفيد منه وصية ، ويوصف له عابد في تاهرت فيمضي ليسأله كيف عرف الله ، ولا شك في ان افريقية والمغرب بوجه عام كانت جديرة بان تستهوي قلب هذا الصوفي بما حفلت به من عباد وزهاد ضربوا مثلا عاليا في الاخلاص له والتعبد اليه .

ولكن كلام ذي النون بدا غريبا لفقهاء مصر ومحدثيها الذين لم يعتادوا هذا الضرب من التعبيرات الصوفية فسعوا به الى الخليفة المتوكل وحمل الى سر من راى الى حضرة الخليفة فسمع كلامه وما عتم ان اطلق سراحه فانحدر الى بغداد فاقام بها مدة مديدة ثم عاد الى مصر .

وقد كان تاثر ذي النون بالبيئة المصرية عظيما ويبدو انه احتك بكثير من رواسب الثقافات والديانات القديمة بهذه البلاد . وفي الاخبار المأثورة عنه كثير مما يشير الى معرفته بقراءة ما على البرابي المصرية من نقوش والمامه باللغة السريانية ، كما نرى في كلامه نقولا عن التوراة والانجيل ، وكلمة « الرهبانية » من اكثر الكلمات دورانا في حديثه ، ومن امثلة ذلك قوله في وصف الصوفية انهم (رهبان من الرهابين ملوك في العباد) ، وقد نسب الى ذي النون الاطلاع على اسرار الكيمياء لا بطريق المعالجة وانما بطريق الالهام والكشف ، ولهذا فقد قرن بكبار الكيميائيين من امثال جابر بن حيان ، وما زالت بعض الكتب المنسوبة اليه من ذلك مخطوطة بعد ، ولو انها كتب لم تصح نسبتها اليه .

واما تصوف ذي النون فانه وجداني بسيط تابع من نفس فياضة المشاعر دقيقة الحس ، وهو فى هذا يختلف عن الوان ذلك التصوف العقلي المعقد الذي نراه في صوفية العراق وايران ، ومن اجل ذلك ذكرنا انه هو الذي يمثل البيئة المصرية في بساطتها البعيدة عن التعمق واستقامتها الراغبة عن التطرف والشطح ، وهو من اجل ذلك تصوف كان من الطبيعي ان يتأثر بالحياة الروحية في غرب العالم الاسلامي ويتأثر بها .

واشهر ما يعرف من آراء ذي النون الصوفية ما قاله حول المقامات والاحوال أي تصنيف الصوفية فى درجات وطبقات لاينبغي ان يتعدوها ، ثم تصنيف احوال النفس الصوفية وانتقالها من درجة الى درجة فوقها حتى تصل الى المعرفة الحقيقية ، ولننظر الى قول ذي النون فى ترتيب تلك الاحوال فهو يبدأ بدرجة الخوف ، ثم الهيبة ، فالطاعة ، فالرجاء ، فالمحبة فالشوق ، فالانس بالله ، فالاطمئنان اليه ، فاذا اطمأن الى الله كان ليله فى نعيم ونهاره فى نعيم وسره فى نعيم وعلانيته فى نعيم ، اما طبقات المريدين فان حرص ذي النون على ان يلتزم كل درجته يظهر لنا من هذا الخبر الذي احتفظ لنا به السراج فى كتاب اللمع : وفيه ان ذا النون لما دخل بغداد اجتمعت اليه جماعة الصوفية ومعهم قوال يقول ، فاستأذنوه بان يقول شيئا فأذن لهم فابتدأ يقول :

صغير هواك عذبني
فكيف به اذا احتنكا

وانت جمعت من قلبي
هوى قد كان مشتركا

اما ترثي لمكتئب
اذا ضحك العذول بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الارض ، قال : ثم قام رجل من القوم يتواجد فقال له ذو النون : الذي يراك حين تقوم ، فقعد ، وشرح ذلك السراج فقال انه اشار الى قيام هذا الرجل ومزاحمته لغيره بالتكلف فعرفه ان الخصم من دعواك بقيامك ليس غير الله ولو كان الرجل صادقا فى قيامه لم يجلس وذلك ان المشايخ منهم – اي من الصوفية – مشرفون على احوال من دونهم بفضل معرفتهم ولا يجوز لهم ان يسامحوهم اذا جاوزوا حدودهم وادعوا حال غيرهم .

وربما كان ذو النون من اول الصوفية الذين تكلموا عن اسم الله الاعظم الذي يتعلق بذات الله لا بصفاته ، وقد اشار الدباغ والمالكي فى حديثهما عن لقاء ذي النون لشقران العابد القيرواني ان هذا هو الذي ادلى اليه بهذا الاسم الاعظم الذي جعل ذا النون محيطا باسرار الكيمياء وقادرا على الكرامات ، وقد الح عليه احد تلاميذه وهو يوسف بن الحسين الرازي لكي يطلعه على هذا الاسم فاجرى عليه ذو النون اختبارا في قصة طويلة يذكرها ابو نعيم الاصبهاني فى حلية الاولياء ويتبين بعد هذه التجربة ان ذلك التلميذ لم يكن خليقا بان يطلع على الاسم الاعظم .

والحب الالهي يدور كثيرا فى كلام ذي النون ، وقد كان هذا الصوفي من اكثر من تحدثوا عن هذا الحب وفصلوا مراتبه ، وحديثه فى ذلك كثير متناقل فى مجموعات الادب الصوفي ، وكثيرا ما كان يخرج الى شاطىء البحر اذا جن الليل فينظر الى السماء والماء ويتغنى بقوله :

اطلبوا لانفسكم
مثلما وجدت انا

قد وجدت لي سكنا
ليس فى هواه عنا

ان بعدت قربني
او قربت منه دنا

او يترنم فى جوف الكعبة :

حبك قد أرقني
وزاد قلبي سقما

كتمته فى القلب والـ
ـأحشاء وحتى انكتما

لا تهتكن ستري الذي
البستني تكرما

ضيعت نفسي سيدي
فردها مسلما

كذلك يعتبر ذو النون من اول الصوفية الذين اهتموا بمسألة السماع أي ادخال الغناء والموسيقى فى التمارين والرياضات الصوفية وعملوا على نشرها بعد ذلك فى التصوف الاسلامي ، وكان رايه فى الصوت

الحسن انه (مخاطبات واشارات الى الحق اودعها الله كل طيب وطيبة) ، وفى السماع انه (وارد حق يزعج القلوب الى الحق فمن اصغى اليه بحق تحقق ومن اصغى اليه بنفس تزندق) وقد قال مرة لبعض تلاميذه ممن لايحسنون الغناء (انت بلا قلب) ونحن نعلم ان مسالة تجويز السماع او تحريمه كانت من المسائل التي انتقل فيها النقاش من الفقهاء الى الصوفية ، وربما كان أهم من دافع عن السماع واباحته ، بل اصبح من الشائع منذ ايام ذي النون ان يكون فى المجتمعات الصوفية (قوال) يغني بصوت عال .

وينسب محيي الدين بن عربي فى الفتوحات المكية الى ذي النون رايا فى العرش يبدو انه كان الاصل الذي استمد منه ابن عربي نظريته فى النفس الرحماني وروحه المدبر له ، وهي نظرية كانت من الاسس التي قامت عليها فلسفة وحدة الوجود .

ونشير اخيرا الى أن ذا النون بعد ان تعرض للاضطهاد والمحاكمة مرتين كان حريصا فى سلوكه حذرا فى ابداء آرائه ، فكان يتبع فى ذلك مبدأ التقية الذي سار عليها الشيعة ، فيبدو للناس مجرد زاهد او ناسك بينما يحتفظ بكثير من آرائه التي قد لا تعجب الفقهاء والعامة لنفسه او لخاصة تلاميذه ، وهكذا كان يلح دائما على التفريق بين سلوكين : سلوك للعامة وآخر للخاصة ، ويدور هذا التفريق فى كلامه كثيرا ، فالتوحيد توحيدان ، والتوبة توبتان الى غير ذلك من التفصيل الذي يتضح لمتتبع آرائه وأقواله ، وناحية اخرى كانت تقرب بينه وبين آراء الشيعة ، تلك هي استخدامه للتاويل الرمزي فهو كثيرا ما يفرق بين الظاهر والباطن وقد احتفظت لنا المجموعات الصوفية بكثير من تاويلات الرمزية ، ومن ذلك تفسيره للحج وغيره من العبادات مما نراه مثلا فى حلية الاولياء لابي نعيم .

وقد اطلنا بعض الشيء فى الحديث عن ذي النون المصري ، غير اننا نرى ان هذا الصوفي المصري لايمكن ان يفصل عن تاريخ الحياة الروحية فى الاندلس ، وسترى فيما يلي كيف كان لآراء ذي النون اثر كبير فى تصوف هذه البلاد .

يتبـــــع

مدريد : محمود علي مكي
وكيل معهد الدراسات الاسلامية بمدريد



دواء الشاكين وقامع المشككين

- 20 -

للدكتور تقي الدين الهلالي

ثم قال المصنف مباشرة ، ولكن التصور على كل حال يصادف دائما عوائق من بيئته المادية ، فهو لذلك لا يبلغ الا درجة قليلة من الحقيقة حتى تحققه الملاحظة او التجارب او الاكتشاف ، وحتى في اذهاننا المادية ، لا يقيم التصور اعتبار الفكرة الزمن او المسافة ، فهو يبلغ فورا هدفه ، سواء اكان ذلك الهدف كوكبا في السماء ام ولدك الذي في حجرك ، ولابد لنا ان نصل الى نتيجة ، هي ان قوة التصور ، متصلة بالقوة الروحانية ، فان كان هناك خلود للروح فهناك ايضا خلود للتصور .

وكلما ادرك الفلاسفة ذلك العنصر الا على من طبيعة الانسان ، وهو نشاط روحه ، واجهتهم صعاب لا تعرض لمن هو اقل منهم تفكيرا .

فهم ان قالوا بخلود الروح ، وجدوا من الصعوبة بمكان ان يحددوا مكان هذه الروح الخالدة ؛ فالشخص العادي يتصور ان الجنة مكان ، ويفكر فيها على انها مادية فيها شوارع مرصوفة بالذهب وابواب مصنوعة من اللؤلؤ ، واذا كانت غاية الروح بعد انطلاقها هي الجنة ، فمن الطبيعي ان يسال المرء (اين الجنة ؟ وكم تبعد عنا) اما الفيلسوف الذي له نفس يقظة فلابد ان يخطر بباله ان الجنة ليست مكانا كما يتصوره البشر ، ولكنها اجل بكثير من ان ندركها بعقولنا القاصرة ، ومثل ذلك يقال في الخلود الذي لا نهاية له . والحقيقة اننا قد نضطر لفقدنا التجارب البشرية التي ترشدنا، ان نحسب ان الجنة يمكن ان تكون الفضاء نفسه .

ومن الطبيعي ان كل انسان يكره ويخاف ان يكون ساكنا في الفضاء وحده ، وقد يخطر ببال العالم حقيقة : هي اذا ارادت روحه ان تصل الى مكان في الفضاء سواء اكان في جزيرة من جزائر المرجان ، ام في سديم بعيد المدى ، فان المسافة التي يجب ان تقطعها ، سواء اكانت قصيرة ام طويلة ، تحتاج الى زمان ، فان امكن ان يكون سفره على شعاع من اشعة الضوء ، فلابد ان يستغرق الف سنة ضوئية ليصل الى شمس قريبة نسبيا من شمسنا ، ومن اجل ذلك نقول : ان الانسان المقيد تقييدا شديدا بصلاته المادية البشرية بالبوصات والاميال وسنوات الضوء والزمان ، يخيل له انه لايعقل ان توجد سعادة في الفضاء الابيض الذي لا حد له ، ولا في الابد الذي لا نهاية له .

وهنا يجيء ايحاء التصور الكامل ، اننا على الارض مرتبطون بكل شيء مادي وموثقون بكل تلك المقاييس التي تقدمت الاشارة اليها ، وكيفما كان الامر يجب ان نذكر ان تصورنا ، كما تقدم ، يتغلب فورا على المسافة وينقلنا الى اي مكان ، ويأتينا بالالهام الذي يدنينا من الحقيقة ، ويفتح اذهاننا لانواع من الجمال تفوق الواقع ، والاراء التي تتولد عن الافكار يمكن ان تصبح حقائق مادية يدركها غيرنا ، كما قد يحلم المهندس المعماري ، ونضرب لذلك مثلا ، الاهرام وتاج محل ، او ناطحة سحاب حديثة ، واذا صح ان الروح التي اصبحت خالدة ، لاترى الا الحقيقة ، فان الروح تبصر الاشياء فورا بواسطة التصور الذي بلغ الكمال ، والافكار هي حقائق روحية خالدة ، سواء تجسمت في شكل تمثال ، ام تحدث بها اصحابها على انها حقائق تحدث ثورة في الفكر البشري .

والعالم باحوال الارض (الجيولوجي) قد يتتبع بتصوره الروحي طبقات الارض حتى يصل الى جوفها الذي بلغ حد الذوبان من الحرارة ، وما يراه هو العلاقة المحققة بين كل طبقة من الارض وبين قشرتها ، وقد

تجلس روح الانسان مطمئنة على شاطىء جزيرة من جزائر المرجان وامواج البحر المتلاطمة تغني لهــــا ، وبتصورها الكامل يمكن ان تلاحظ الغازات المتحدرة من الشمس البعيدة ، وقد يطوي الزمان فيراها من بداياتها السديمية ويتتبع تطورها حتى تبرد وتصير غير مرئية .

ولو ان روحا خالدة تستطيع ان ترى الاشياء كما هي ، فانها تستطيع ان تكتسب جميع الحــواس الدقيقة المختلفة المتفرقة في جميع انواع المخلوقـــات الحية ، وبذلك تستطيع ان تدخل في ميادين جديدة عجيبة من المعرفة والخبرة والشعور ، وحينئذ ترى — ان شاءت — الذرات وهي تكون نفسها جزيئـات ، والجزيئات وهي تبيد الجراثيم المغيرة ، وربما تستمتع بموسيقى جديدة تتولد من اهتزاز الاثير غير المحدود من آلاف نغماتها المتجاوبة ، وهناك الوان هي اجمـل وازهى من ان تقدر على رؤيتها العيون البشرية ، وهي تنتظر تطور مقدرتنا على الادراك الذي يستوعبهـــا ، وهنالك افراح لا نهاية لها تنتظر روح الانسان بعد ان تتحرر من الجســد .

ولا ندري الى اي حد تنتهي قوة التصور الكامل للانسان ان ادرك ذلك في الحياة الاخرى ، ولايمكن ان نبحث هاهنا في القيود التي سوف تحمي حقنا المقدس في العزلة الفردية ، وانما نعطي هنا فكرة مجردة ، كما لا يمكن ان نصف الجنة التي يتمناها كل فرد ، ولكن يمكننا على الاقل ان ندعي ان هناك اجوبة عن مثل هذه المسائل التي يسال عنها الناس .

ان الروح الخالدة التي لا يستطيع الزمـــن ان يمنعها، تستطيع ان ترى احبابها وتضمهم الى صدرها، ولما كان تصورها قد تكامل الان تستطيع النفس ان ترى على الحقيقة الحق الاعظم ، وهو الخالق سبحانه والجنة حيث اراد هو سبحانه ان تكون .

دعنا نعتقد ان تصورنا سوف يتكامل وان نعلم علم اليقين ان الصم سوف يسمعون اصوات الجمال وراء احلام البشر ، وان البكم سوف يتكلمون بكل لغة ، وان العمي سوف يبصرون كل عجيبة من عجائب خلق الله .

وهكذا يستطيع الانسان بمقدرته الروحانية ان يدرك العظمة الربانية ، وبتطوره الروحاني يزداد دنوا من معرفة جلال الله وقدرته ومجده .

تعليقـــات :

1) قوله : لا يقيم التصور اعتبارا لفكرة الزمـن الخ .. جاء في الخبر ان علي بن ابي طالب كان يضـع رجله في الركاب ويقرا القرآن كله قبل ان تستقل الرجل الاخرى في الركاب الاخر ، وقد استشكل هذا بعضهم واراد آخرون ان يجعلوه من باب خوارق العادات فلم يصب احد منهما شاكلة الصواب ، وانما ذلك مــن اسرار التصور ، فكل حافظ للقرآن حفظا جيـــدا يستطيع ان يمر بفكره على القرآن من اوله الى آخره في لحظة بواسطة التصور الذهني ، ولو سالته عن كلمة كزيد مثلا اهي موجودة في القرآن ام لا لاستعـرض القرآن امام تصوره في لمحة واحدة واجابك بنعم ، ان هذا الاسم موجود في القرآن في سورة الاحـزاب ، في قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) اما الذي لا يحفظ القرآن فلا يمكن ان يجيب عن هـــذا السؤال حتى يقرا القرآن من اوله الى آخره ولا يتم له ذلك الا في ايام كثيرة ، وكذلك اذا كان ضعيف الحفظ، ولما كنت في جامعة بون مدرسا وطالبا سنة 1936 اقترح رئيس القسم الشرقي في الجامعة الاستاذ باول كالي ان اترجم معه كتاب البلدان في الجغرافية العالمية لمحمد ابن الفقيه البغدادي المتوفى في اواخر القرن الثالـث الهجري فاخذنا في الترجمة وقال لي اتحفظ القـرآن قلت : نعم ، قال : اذا جاء شيء من القرآن في اثنـاء الكتاب فاخبرني به .

فصرت كلما ذكر المصنف شيئا من آيات القرآن اخبر به فيقول : هل تستطيع ان تجد ذلك في المصحف اذا جئتك به ، فاقول : نعم ، فآخذ المصحف واوقفـه على الآية في الحين فيقهقه ضاحكا اعجابا واستغرابا ، ومن كلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في شيـــخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية قوله : لقد جعل

الله الاحاديث كلها لابن تيمية نصب عينيه يأخذ منها ما يشاء ويدع منها ما يشاء . وقال فيه ايضا : كل حديث لايعرفه ابن تيمية فليس بحديث. فقوة التصور وسعة الخيال من اسرار الروح العجيبة كما قال المؤلف ، وتقدم قوله ، انما يراه النائم فى منامه راجع الى التصور والخيال واستمرار التفكر فى وقت النوم ، الا ان سلطان الروح عند النوم يكون اقوى منه فى اليقظة ، فلذلك تتجسد الخيالات والافكار وترى ببصر البصيرة ، وليس كل ما يراه النائم من بنات فكره ، فهناك امور يلقيها الله تعالى اليه ويريه اياها لا حيلة له فى ادراكها بالفكر ، ومنها الامور المغيبة التي يراها النائم فتقع كما يراها ، وهذا شيء محقق ثابت متواتر عند الناس لا يمتري فيه الا المادي الجاهل الذي انحصر علمه فيما يدرك بالحواس الخمس كالعجموات ، وقد قسم النبي (ص) الرؤيا الى ثلاثة اقسام : تبشير ، وهو من الله سبحانه ، وتحزين، وهو من الشيطان ، والقسم الثالث ، ما يحدث الانسان به نفسه فى اليقظة ، هذا معنى حديث رواه ابو داود فى سننه ، وقوله ، ما يحدث الانسان به نفسه فى اليقظة، هو الذي عبر عنه المؤلف باستمرار الفكر فى حالة النوم، ولكن لا ينحصر ما يراه الانسان فى منامه فى افكاره ، بل هناك امور اخرى يريه الله اياها تبشيرا او انذارا ، وامور يلقيها الشيطان تخويفا وتحزينا ، وفتنة واضلالا ، وقد علمنا النبي (ص) وهو طبيب القلوب والارواح علاجا ناجعا يقينا شر الاحلام ويعرفنا بما ينفعنا من رؤيا المنام ، فمن ذلك الحديث المتقدم الذكر، ومنه انه عليه السلام قال : اذا راى احدكم ما يكره فلينفث عن يساره ثلاثا ثم يقول : اللهم اني اعوذ بك من شر ما رايت ان يضرني فى ديني ودنياي ، ولا يقص ما راى على احد فانه لا يضره ، وامرنا اذا راينا رؤيا صالحة ان لا نقصها على جاهل او مبغض لنا ، والحكمة فى ذلك والله اعلم ، ان الجاهل يفسرها ويخطىء فى تفسيرها فيضر من حيث اراد ان ينفع ، واما المبغض فانه يؤولها تأويلا سيئا على عمد ليسوءنا ويحزننا ، فاذا سمعنا منه ذلك توقعنا شرا وصرنا نرتقبه حتى اذا اصابنا شيء من مصائب الدنيا ، وهي كثيرة ، قلنا هذا هو الذي اخبرنا به فلان ، على ان توقع الشر فى حد ذاته شر كبير ، ومن اجل ذلك نهانا رسول الله (ص) عن اتيان الكهان والعرافين ، ففي الحديث من اتى عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد (ص) ، وفى حديث آخر ، لم تقبل له صلاة اربعين يوما ، وقال النبي (ص) : ليس منا من تطير اوتطير له اوتكهن، اوتكهن له، وقال رسول الله (ص) الطيرة شرك ، والطيرة هي التشاؤم برؤية الاشخاص او بعض انواع الحيوان كالغراب والكلب الاسود او بما يسمعه الانسان من الكلام ، او بالايام والشهور وغير ذلك مما هو كثير ومشهور، يفتك بعقول الشعوب التي فشا فيها الجهل ، ومن ذلك ما سمعته من اهل تطوان ان كثيرا من جهالهم لا يشترون مكنسة فى شهر صفر ويعتقدون ان من ادخلها بيته فى ذلك الشهر تكنس اهله وماله ، واخبرني البشير بن محمد وهو اغنى رجل فى مدينة المشرية بالجزائر ان له عبدا اسود تركه له ابوه وهو مشئوم جدا فى اعتقاده كلما رآه فى الصباح وكان اول من رآه من اهل بيته تصيبه مصيبة فى ذلك اليوم ، قال فانا لذلك اذا قمت من النوم صباحا اخرج مغمض العينين ولا افتحهما الا اذا سمعت صوتا غير صوته ، فان سمعته هو لم افتح عيني حتى القى غيره فافتحهما عليه ، ثم بعد ذلك لا تضرني رؤيته اذا رايته، ولا يتسع المقام لذكر ما يقع للناس من هذا القبيل ، ولا نجاة للناس من شرور الاوهام والخيالات والوساوس الا بمعرفة سنة النبي والتمسك بها ، ثم ذكرت الان حكاية ترجح عندي ذكرها ولو افضت الى التطويل والملل لما فيها من الفائدة لبعض القراء على الاقل ، توجد ناحية فى بغداد اسمها الوزيرية فيها السفارة المغربية وغيرها من السفارات ، ويقال انها ارض مغضوبة ومشؤمة ، بنى فيها احد اخواننا قصرا انفق على بنائه مالا كثيرا ثم انتقل اليه هو ووالداه واخوته واهل بيته فاصيب بالامراض وغيرها من المصائب وتشاءموا بسكناهم فى الوزيرية فجاءني وشكى الي ذلك ، فقلت له : هذا من الوساوس والطيرة وهي شرك وعلمته دعاء علمنا اياه رسول الله (ص) وامرنا ان ندعو به اذا وقع فى انفسنا شيء من التطير وهو: اللهم لا خير الا خيرك، ولا طير الا طيرك ، ولا اله غيرك . فتعلمه وعلمه اهل بيته وصاروا يدعون به ، فبعد شهرين جاءني واخبرني انهم استقروا واطمانوا وشفاهم الله وذهب ما كانوا يجدونه فى انفسهم .

2) قوله في الروح والجنة الخ.. قال الله تعالى: ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا ، وما اضل المفكرين الا انهم يقيسون كل ما لا يعلمونه على ما يعلمونه كأن العلم منحصر في ما وصلوا اليه : ولو وصف شخص الكهرباء واعمالها والاذاعة فضلا عن القنابل الذرية والصواريخ والاقمار الصناعية التي تسبح في الفضاء الخارجي ، بل مركبات الفضاء التي يدور بها الراكب على الكرة الارضية فيرى الشمس في شروقها وغروبها في كل تسعين دقيقة ، لو اخبر بذلك شخص قبل هذا الزمن لرجمه الناس بالحجارةاو ادخلوهالى مستشفىالامراض العقلية، مع ان هذه امور وقعت في عالمنا هذا .

وقل لمن يدعي بالعلم معرفة

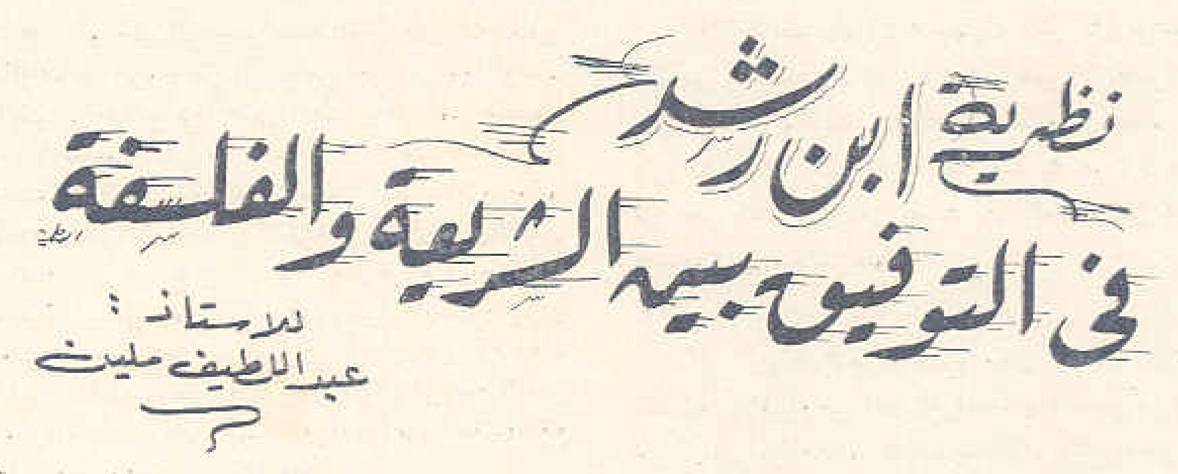
علمت شيئا وغابت عنك اشياء

والتكذيب سهل لانه جهل ، ومن كان مرتبطا بالارض والشمس لا يستطيع ان يفكر الا تفكيرا موثقا مقيدا بالمكان والزمان ، كيف يستطيع ان يحكم بجهله على عالم آخر ليس مقيدا بما يقيد به هو ، لاجرم ان من فعل ذلك سد على نفسه باب العلم والمعرفة وبقي مسجونا في ظلمات جهله .

3) قوله الاهرام وتاج محل وناطحة سحاب حديثة : الاهرام من آثار الفراعنة، وقد عجز من بعدهم من الدول عن هدمها فكيف ببنائها . وتاج محل قصر من آثار ملوك المغول في الهند بلغ الغاية في الجمال الفني والاتقان يزوره الناس من البلدان البعيدة ، وناطحة سحاب القصور العصرية الشامخة في امريكا .

مكناس : تقي الدين الهلالي





عـــرض ابن رشد نظريته فى التوفيق فى كتاب يجمع بين ثلاث مؤلفات هي : (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) وضميمة لمسألة القديم وهي ملحقة بالرسالة السابقة يبحث فيها المؤلف موضوع علم الله بالجزئيات ويحاول ان يحل المشكلة، واخيرا (كتاب الكشف عن مناهج الادلة فى عقائد الملة) هذه الكتب الثلاثة تجمعها دفة مجلد واحد ، يعتبرها غوتيه اعظم عمل قام به الفيلسوف العربي ، ويعتبر غوتييه انه هو نفسه اول من كشف عن حقيقة مقصد الفيلسوف فى مسألة الاتصال بين الدين والفلسفة من خلال هذه الرسائل . وذلك فى كتابه السابق الذكر (نظرية ابن رشد فى علاقة ..) ويمكننا ان نضيف كمكمل لنظرية ابن رشد هذه ، بعض الملاحظات الواردة فى تهافت التهافت ، عن صلة الدين بالفلسفة ، حيث تعرض لبعض النقاط كمسألة بعث النفوس والاجساد من غير الناحية التي تعرض لها فى الكتب الاخرى .

واول من كشف عن كتاب الفصل ولواحقه وطبعه بالعربية هو المستشرق الالماني ج موللر سنة 1859 ، والى هذا التاريخ ، كانت هذه الكتب مخطوطات ، وهي لا تعد فى جملة ما ترجم من كتب ابن رشد الى اللاتينية ولذلك فلا العالم الاسلامي ولا العالم المسيحي كان مطلعا عليها ، لانها فى العالم الاسلامي لم تلاق الاهتمام الذي تستحقه ، وفى العالم المسيحي كانت غير معروفة لانها لم تترجم الى اللاتينية كما هو شأن كتبه الاخرى ، اعني شروحه على ارسطو وكتبه الاخرى .

وقد افلتت نظرية ابن رشد فى هذه الرسائل من الباحثين ، حتى المتاخرين منهم ـ كما يذكر غوتييه※ـ الذين لم يكن ينقصهم الالمام بالعربية ولا كانت تعوزهم المصادر فى اصولها العربية .

كانت نظرية ابن رشد فى التوفيق بين الشريعة والفلسفة ضحية اخطاء سببتها الافكار المسبقة التي كانت شائعة منذ القرون الوسطى عن هذا الفيلسوف ، كزندقته وبعده عن الدين، او «ازدواج الحقيقة» لديه، أي اعتناقه مذهبا ذا اتجاهين : فلسفيا فى ميدان الفلسفة ، وآخر ايمانيا عندما يتعلق الامر بالعامة . وترجع هذه الاخطاء فى الحقيقة الى شهرة ابن رشد فى الغرب المسيحي منذ القرن الثالث عشر على انه صاحب مدرسة مبطلة تنكر مبادىء جميع الديانات ، بدعوتها الى مبادىء كعدم بقاء النفوس الفردية ، وخلود النفس الكلية فحسب ، وان الفلاسفة هم الحكماء الوحيدون ※ . . الخ . . وقد كان لابن رشد المزيف هذا اتباع عرفوا باسم « الرشديين » يحملون هذه المبادىء التي تختلف فى اكثر الامر عن حقيقة رأي ابن رشد . واستهدف اسم « الشارح الاعظم » للوصم بالزندقة واستهدفت مبادئه المزيفة وخصوصا شهرته المزيفة كعدو للدين لغضب الكنيسة الكاثوليكية وتحريمها ، وكذلك اتباع ابن رشد الوهميون تعرضوا لسخط الكنيسة وانتقامها ، وكانوا ضحية الاضطهاد الذي كثيرا ما وصل الى الموت حرقا .

※ انظر فى كل ما يتعلق بهذه النظرية ليون غوتييه فى كتابه الاساسي « نظرية ابن رشد » وكذلك كتابه « ابن رشد » الفصل الثالث »

※ انظر فى هذا الصدد كاردوفو فى المرجع السابق وريتان فى « ابن رشد والرشدية » .

وقد كان لليون غوتييه ، فضل تبيين موقف ابن رشد الحقيقي من الدين تبيينا نهائيا ، والكشف عن الاغلاط التي ارتكبت في حق هذا الفيلسوف نتيجة الافكار المسبقة .

ونظرية ابن رشد اخذت بناءها العام النهائي من الوجهة النظرية وفي ناحية من الوجهة العملية في كتاب الفصل ، اما كتاب الكشف فهو تطبيق لمنهج التوفيق ، باستخراج الدلائل على الحقائق الدينية الاساسية (كوجود الله ، وبعث الرسل ، والايمان باليوم الآخر ...) من ينبوعي الدين الاساسيين في الديانة الاسلامية القرءان والحديث .

ومما يفجأ الخيال ويمتع الحاسة الفنية ، في اسلوب عرض هذه النظرية ، تلك السهولة والبساطة في التعبير ، اللتان اقتبسهما ابن رشد ولا شك من فلاسفة اليونان . فهو يبدأ كتابه (فصل المقال) بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله قائلا : (فان الغرض من هذا القول ان نفحص على جهة النظر الشرعي ، هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع ام مامور على جهة الندب واما على جهة الوجوب فنقول) (*) .

وكذلك مما يبعث على الاعجاب تلك الصبغة العلمية التي تسود بحث ابن رشد ، وقدرته الخارقة على متابعة التفصيلات الدقيقة ، وتفريع المسائل تفريعا واسعا ، واتيانه بالحلول البسيطة المستقاة من اصفى الينابيع الشرعية وابعدها عن الكدر والاختلاط بالآراء المستحدثة ، ثم احلاله ذلك كله في نظرة تجمع في انسجام غريب وكامل ، جميع تلك التفصيلات في وحدة متراصة .

ومن المناسب ، ان ننبه من جديد الى ان هذه النظرية ــ في خطوطها العامة ــ مشتركة بين جميع الفلاسفة العرب الذين تبنوا الفلسفة اليونانية ، اعني من الكندي الى ابن رشد ، وابن رشد كأنه المتحدث عن هؤلاء الفلاسفة ، وبوضعه هذه النظرية في اطار خاص ومعالجته اياها في بحث مستقل وبروح علمية صحيحة حاز الاولوية في هذا المضمار من بين زملائه الآخرين ، فعمله اذن يبرهن على اولويته ، اذ هو يعتبر العمل الوحيد في الفلسفة العربية من هذا النوع والفلاسفة الآخرون كما ذكرنا لم يجشموا انفسهم مشقة تاليف كتاب في موضوع التوفيق بصورة مباشرة .

فلا حاجة اذن لسوق البراهين والحجج على افضلية ابن رشد في هذا الميدان ، فيكفي ان نعرض آراءه ونكون على علم بانه الوحيد الذي عالج هذه المسالة باستقلال تام ، لنعرف مقدار فضله .. على ان نظريته تفرض نفسها علينا ما نطلع عليها ، وهي بعناصرها المتعددة المستقاة من هنا وهناك تكاد تكون ــ أو هي تكون فعلا ــ مذهبا مستقلا بذاته ، بالرغم من تكامله مع باقي فلسفته .

❋ ❋ ❋

يحل ابن رشد المشكلة المدرسية اوعلاقة الدين بالفلسفة من الوجهة النظرية العامة في كتاب الفصل كما ذكرنا ، على الشكل التالي (*) :

يبدأ ببيان غرضه من تاليف الكتاب ، ذاكرا انه الفحص على جهة النظر الشرعي هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح « بالشرع او محظور ام .. »

وابن رشد في الحقيقة لا يعالج فقط ، هل النظر في الفلسفة وعلم المنطق مباح ام لا وما يتفرع عن ذلك ، اي علاقة الدين بالفلسفة فحسب ، بل هو يدرس علاقات الدين والفلسفة وعلم الكلام . اذ كما اشرنا الى ذلك من قبل ، نجد صدى عداوة علم الكلام للفلسفة والصراع الذي كان محتدما بينهما ، قويا واضحا في كتابات ابن رشد هذه التي تمس موضوع التوفيق .

❋ ص 2 من الطبعة العربية ــ القاهرة بدون تاريخ وتحت اسم « فلسفة ابن رشد»

❋ نعتمد في الاكثر في عرض نظرية ابن رشد على تحليل ليون غوتييه الدقيق لهذه النظرية في كتابه السابق « ابن رشد » الفصل الثالث .

وهو يعرف الفلسفة ويعرف الدين . فالفلسفة ليست (شيئاً اكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع لمعرفة صنعها) ص 2 من الطبعة العربية . اما الشرع فان مقصوده (انما هو تعلم العلم الحق والعمل الحق ، والعلم الحق هو معرفة الله وسائر الموجودات على ما هي عليه ، وبخاصة الشريعة منها ومعرفة السعادة الاخروية والشقاء الاخروي . والعمل الحق هو امتثال الافعال التي تفيد السعادة وتجنب الافعال التي تفيد الشقاء) ص 19 . وهناك علم الكلام ، الذي يمكن ان نستخرج تعريفه الضمني من خلال كلام ابن رشد ، فهو النظر العقلي في النصوص الدينية او في الحقائق التي تحويها تلك النصوص . ويلاحظ هنا ليون غوتييه ان كثيرا من الباحثين قد اخطأوا في عدم التمييز بين الدين وعلم الكلام ، وذلك ان اولئك الباحثين حسبوا ان علم الكلام هو الدين نفسه في درجة عليا من الترتيب ، والتنظيم العقلي ، كما هو الشأن في الديانة المسيحية ، وليس الامر كذلك فيما يتعلق بالاسلام ، لانه ليس هناك سلطة في هذا الدين تتولى الاشراف على العقائد وتحديدها كالسلطة البابوية في الكنيسة المسيحية . فعلم الكلام في الاسلام يمكن ان يكون نسخة مشوهة عن الدين بعيدة عن الحقيقة ، كما يعتبره ابن رشد ، وكما سنرى بعد قليل .

وابن رشد يستنتج من تعريف الفلسفة ومعرفة مقصد الشرع ان الموضوع الذي تبحثه الفلسفة والذي يبحثه الدين موضوع واحد هو « الموجودات على ما هي عليه » وسنرى كيف وبماذا تختلف الحقيقة الدينية عن الحقيقة الفلسفية .

ولنستعرض قبل كل شيء الجواب على السؤال الاول الذي القاه ابن رشد واعتبره « الغرض من قوله» هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح ام محظور ام مامور به الخ ..

فالشرع ندب الى اعتبار الموجودات . وهذا نجده في غير ما آية من القرءان : فبين « ان ما يدل عليه هذا الاسم (اي الفلسفة وعلوم المنطق) اما واجب بالشرع او مندوب اليه . فاما ان الشرع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وطلب معرفتها به . فهذا بين في القرءان « فاعتبروا يا اولي الابصار » « او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت » ويسوق ابن رشد آيات كثيرة في هذا المعنى ويعتبر انها غيض من فيض وقليل من كثير لا يحصى .

يستنتج ابن رشد من ذلك وجوب النظر العقلي في الموجودات من الناحية الشرعية ، والاعتبار الذي ورد ذكره في القرءان الكريم هو القياس ، اي القياس العقلي ، لذلك يجب على من يريد معرفة الموجودات (الله ، والملائكة الخ..) ان يتقدم فيعلم انواع البراهين وشروطها اي يعلم الآلة التي تؤدي الى العلم الحقيقي الذي هو الفلسفة . وهذه الآلة هي المنطق .

واستنتاج ان الاعتبار الوارد في القرءان هو القياس العقلي سيكون احد الاسس التي يبني عليها بن رشد كل نظريته في التوفيق .

ولكن قد يقال ان هذا بدعة ، اذ لم يكن معروفا في الصدر الاول من الاسلام ، ولكن ابن رشد يرد على هذا الاهتمام بان الآلة التي تعين على التفقه في الاحكام المأمور بها من جانب الشريعة هي القياس الفقهي ، واذا كان الفقيه يستنتج من الامر بالتفقه في الاحكام وجوب معرفة القياس الفقهي فاحرى ان يستنتج العارف من الامر بالنظر في الموجودات ، وجوب معرفة القياس العقلي اي المنطق ، والقياس الفقهي شيء «مستحدث في الاسلام لم يكن في الصدر الاول(*) ولم يعتبر مع ذلك بدعة . « فكذلك يجب ان نعتقد في النظر في القياس العقلي » .

بهذا يدحض ابن رشد حجة من يزعم ان معرفة القياس العقلي بدعة في الاسلام ، ويبقى عليه بعد ذلك ان يزيل الصعوبات من الطريق ليصل الى النتيجة التي يريدها ، وهي استنتاج وجوب معرفة الفلسفة اليونانية نفسها وليس اي فلسفة ، والاطلاع على المنطق الارسطي او المنطق اليوناني عامة ، وليس كل منطق وقياس عقلي .

(*) استقر نهائيا كاصل من اصول الشريعة في القرن الثاني للهجرة .

والحد الاوسط الذي يوصلنا الى ذلك هو هذه الفكرة « وجوب استعانة المتقدم بالمتاخر » هذه الفكرة هي المفتاح السري في يد ابن رشد . ولنر كيف يتم ذلك .

اذا كنا قد وصلنا الى نتيجة صحيحة وهي وجوب معرفة القياس العقلي شرعا ، فينبغي ان تنظر اذا كان المتقدمون قبلنا قالوا شيئا فى هذا القياس وقرروا احكاما ووصلوا الى نتائج .

فان لم نجد من ذلك شيئا وجب علينا ان نبدا بالفحص عنه بانفسنا . وانظر كيف يمهد ابن رشد الطريق امام الهدف الذي جعله نصب عينيه من هذا البحث كله. يقول ابن رشد متابعا كلامه «وان يستعين فى ذلك المتاخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة به (*) ، فانه عسيرا او غير ممكن ان يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه فى ذلك ، كما انه عسيرا ان يستنبط واحد من الناس جميع ما يحتاج اليه من معرفة انواع القياس الفقهي ، بل معرفة القياس العقلي احرى بذلك » ص 4 .

من هذا يستنتج وجوب الاستعانة بما قاله المتقدمون فى هذا الامر . وهو يقصد بذلك منطق اليونان خاصة ؛ اذ يمكن ان تبدو صعوبة جديدة ، وهي ان اصحاب هذه الالة الذين سناخذ عنهم العلم بها قد يكونون غير مشاركين لنا فى الملة (اي من غير ديننا) . ولكن هذه المشكلة محلولة فى نظر ابن رشد، اذ « الالة التي تصح بها التذكية (كما فى نحر الضحية مثلا ، او الاناء الذي يغتسل به فى الوضوء) ليس يعتبر فى صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة او غير مشارك ، اذ كانت فيها شروط الصحة (ص4) هكذا الامر فى آلة العلوم التي هي المنطق ، وابن رشد يقول انه يقصد بغير المشاركين لنا فى الملة « القدماء قبل ملة الاسلام » ولا شك انه يتجه بنظره الى اليونان خاصة ؛ فيجب ان نستعين اذن فى هذه الالة بما قاله المتقدمون ، فما كان موافقا منها للحق قبلناه وما كان مخالفا نبهنا عليه .

وكذلك نفعل ـ متى فرغنا من النظر فى الالة ـ فى الفحص عن الموجودات ، اي فى صميم الفلسفة ، فقاعدة استعانة المتاخر بالمتقدم تطبق هي نفسها ايضا هنا « اذ صناعة اصول الفقه ، والفقه نفسه لم يكمل النظر فيها الا فى زمان طويل . ولو رام انسان من تلقاء نفسه ان يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من اهل المذاهب فى مسائل الخلاف التي وضعت المناظرة فيما بينهم فى معظم بلاد الاسلام ما عدا المغرب لكان اهلا لان يضحك منه ..ص5 .

فيجب اذن ، اذا وجدنا للمتقدمين نظرا فى الموجودات ، ان ننظر فيه ونستعين به ـ وذلك كما سبق فى المنطق ـ على شرط ان « ما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .. ص 6 » .

وهذا قول يدل على ما كان يتمتع به ابن رشد من مرونة فكرية ـ وهو يدحض القول الذي يدعي ان ابن رشد كان مستعدا دائما لان يتبع معلمه ارسطو فى كل ما يقوله . ومما يؤكد هذا قوله السابق : ان المعرفة تكمل ـ ويجب ان نلح على كلمة تكمل ـ باستعانة المتاخر بالمتقدم . فهذا يتنافى مع اعتبار ان ما جاء به ارسطو هو الكامل النهائي . ومع ذلك لا يمكن انكار اعجاب ابن رشد بارسطو . ولكن المستبعد هو تقليده الاعمى له . وكذلك لا يمكن انكار ان الفلسفة التي يعني ابن رشد بجعلها موافقة للدين هي الفلسفة اليونانية او الفلسفة الارسطية . وذلك بطبيعة الحال لانها مذهبه الفلسفي الشخصي ، الذي كان يؤمن به ، والذي اضاف اليه الكثير من عنده ، وهذه النقطة يتفق فيها جميع الفلاسفة العرب من اصحاب المذهب اليوناني .

ـ يتبع ـ

الرباط : عبد اللطيف ملين

* يذكر غوتييه ان هذا القول يذكر بنظرية باسكال فى اعتباره الانسانية من ناحية المعرفة شخصا واحدا يتكامل ، وهذا القول من ابن رشد يدحض ايضا ادعاء انه كان مقلدا اعمى لارسطو .



يقوم « المسجد » بدور خطير في حياة المجتمع الاسلامي ، فهو « المصنع » الديني الذي يصوغ عقلية السواد الاعظم من المسلمين ، ويصقل ارواحهم ، ويبني نفوسهم ، ويوجههم الوجهة الاسلامية الصحيحة التي لهم فيها اليمن والسعادة والفلاح .

ولقد كان المسجد ـ لعهد الرسول (ص) ومن تبعه باحسان ـ مصلى ومدرسة وناديا في آن واحد ، فيه تؤدى الصلوات الخمس ، وفيه يتلقى جمهور المسلمين دروسا في شتى الوان الثقافة والتوجيه ، وفيه يجتمع الناس للنظر في « شؤونهم العامة » ، يقلبون وجهات النظر في المشاكل التي تعترضهم ، ويشحذون الهمم للوصول فيها الى حلول تتفق والصالح العام ، ويكفي القاء نظرة ، ولو عجلى ، على سير الحياة العامة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين وما تلاه من عصور ، للظفر بعشرات الدلائل على صدق ما نقول .

واذن : فقد وجد المسجد في الاسلام لكي يعيش مع جمهور المسلمين ولفائدتهم ، يحيى حياتهم العقلية والروحية والمادية جميعا ، ويقوم تلك الحياة من جميع نواحيها السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية، والدينية ، والثقافية .

* * *

ونحن في المغرب اليوم احوج ما نكون الى ان يقوم المسجد بدوره الكامل هذا فينا خير قيام ، وعلى اكمل وجه ، فالكل يعلم ان الاغلبية الغالبة والاكثرية الكاثرة من المغاربة اما اميون ، او محدودو الثقافة ، لم يتح لهم منها الا الاقل اليسير ، وهم في ايامهم العادية منصرفون الى اعمالهم التي تستلزمها الحياة المادية التي يحيونها هم وعائلاتهم ، وهم وان اتيحت لبعضهم فرص التردد على المساجد لاداء الصلوات الخمس يوميا ، فالسواد الاعظم منهم لا يتاح له ذلك ، اللهم الا بالنسبة لصلاة اسبوعية واحدة تحرص جمهرة المسلمين على حضورها ، لما تعلمه من كونها فرض عين مستقل ليست بدلا من الظهر ، ثبتت فريضتها بالكتاب والسنة والاجماع ، فبالكتاب لقوله تعالى : « يا ايها الذين ءامنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع .. » وبالسنة لما رواه احمد والحاكم وصححه ، وقوله (ص) (من ترك ثلاث جمع متواليات من غير عذر ، طبع الله على قلبه) ولما رواه مسلم ، وهو قوله : (ص) (لقد هممت ان آمر رجلا يصلي بالناس ، ثم احرق على رجال يتخلفون عن الجمعة في بيوتهم) ، واما بالاجماع فلا تفاق الامة الاسلامية على فريضتها .

نعم : ان هناك اعذارا تبيح التخلف عن حضور الجمعة شرعا ، ولكن هذه الاعذار ان منعت واحدا او اثنين في المائة من حضورها ، والى اجل فقط ، فهي لا تمنع الباقين ، ومن لم تبق النظرية قائمة ، وهي ان صلاة الجمعة يحضرها جمهور المسلمين .

* * *

واشتراط الجماعة بالنسبة لصلاة الجمعة ـ فقد جعل الشافعية اقل ما تنعقد به الجماعة فيها اربعين مصليا ـ ليس له من حكمة فيما يظهر سوى حرص الشارع الحكيم على استفادة جمهور المصلين من

« خطيبي الجمعة » اللتين هما شرط من شروط صحتها ، اي انهما جزء لا يتجزأ من التركيب العام لصلاة الجمعة ...

وهنا تبرز المسؤولية العظمى التي تقع على عاتق « خطيب الجمعة » ، هذه المسؤولية التي تزداد فداحة وخطورة بالنسبة للخطيب في كل بلد اسلامي جمهوره احوج ما يكون الى الارشاد والتوجيه كالجمهور المغربي الذي يعتبر « خطيب الجمعة » استاذه الاكبر ، فهو عقله المفكر ، ووجدانه الشاعر ، ياتمر بما يلقي اليه من احاديث ، ويعتبرها قطعة من التنزيل ، وقبسا من الذكر الحكيم ، وكيف لا ؟ وخطيب الجمعة لا ينطق عن هوى ، وانما يفتح مغاليق القلوب بمفاتيح الشريعة الاسلامية المطهرة ، وينير جنباتها بانوار الحنيفية السمحة .

* * *

واذن فلسنا مبالغين اذا قلنا ان « صلاة الجمعة » بالنسبة للجمهور المغربي هي الفرصة الاسبوعية الذهبية التي يجد فيها نفسه وجها لوجه امام تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ، وتوجيهاته السامية ، التي هي ضمان سعادة المسلم في العاجلة والآجلة .

* * *

ومعلوم ان الاسلام « دين التطور » بمعنى انه يساير قانون الحياة المتغيرة المتطورة المتجددة ، ولهذا كان خاتم الاديان ، وكانت رسالته آخر رسالة سماوية الى جميع بني الانسان ، في كل زمان ومكان .

وهنا نصل الى جوهر المشكل الذي يريد ان يعالجه هذا المقال ، وهذا المشكل يتجلى في « التفاوت المثير ، والهوة السحيقة بين ما هي عليه جل خطب الجمعة في مغربنا العزيز ، وبين ما يجب ان تكون عليه من صدور عن روح الاسلام وجوهره اللذين يسعان كل معقول ومنقول من جهة ، وبين ظروف المجتمع المغربي الذي يجب ان تلعب فيه خطب الجمعة دور الاستاذ الموجه نحو ما فيه عافيته الاجتماعية من كل النواحي الجسمية والعقلية والروحية .

* * *

واعترف ان كلامي هذا سيبقى غامضا ما لم اقدم بين يديه هذه النماذج من اقوال بعض خطباء الجمعة عندنا ..

هذا خطيب مشهور بالتحامل على الفواحش والمناكر ، يفجأ يوما بمحطات الاذاعات العالمية ، ووكالات الانباء الدولية ، بل بجنبات الدنيا الاربع تردد « ان جاجارين » قد استطاع ان يخترق اجواء الفضاء ويدور حول الارض بقمره الصناعي عدة مرات ، ثم يرجع اليها سالما ، فينتهز سيادة الخطيب هذه الفرصة لا لكي يشيد بما قطعته الانسانية من مراحل في ميدان التطور العلمي ، والتقدم الحضاري، وذلك بفضل الاسلام الذي انار امامها الطريق بما دعا اليه في اول آية من القرآن « اقرأ » ، وبالآيات والاحاديث العديدة التي ترفع من شأن العلم وتحض عليه ، في وقت كانت فيه اوربا كلها تعيش في جهالة القرون الوسطى الجهلاء وضلالتها العمياء.. ولا ليحض المغاربة على التنافس في هذا المضمار ، ومحاولة استدراك ما فاتهم بهذا الصدد .. لا ، بل قام سيدنا الخطيب ليصيح في جمهورنا المسكين قائلا : « ان هناك بعض الكفار الذين يدعون انهم قد اخترقوا الفضاء ، وصعدوا الى السماء ، وانهم سيطلعون يوما الى القمر .. ان هذا كفر والحاد ، وخروج عن الدين ، نعوذ بالله من امثال هؤلاء ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وانا لله وانا اليه راجعون » ، ويقع البسطاء من جمهورنا في حيرة وذهول وتشكك ، ولا يدرون ، اي التعاليم يتبعون واي الاخبار يصدقون ؟ وتكون النتيجة في النهاية اضطرابا في عقيدتهم ، وتبلبلا في ايمانهم ، سببه سيدنا الفقيه الخطيب الذي ضاق عقله ومحيط تفكيره عن ان يتصور ان الاسلام ــ عقيدة ومذهبا وسلوكا ــ يسع مثل هذا التطور العلمي ، والتقدم الحضاري .

* * *

وهذا نفس الخطيب يقرر في مناسبة اخرى على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ان « خير الاماكن المساجد ، وشرها الاسواق » دون ان يقيد الشطر الثاني من الحديث بكون الرسول لايقصد به التنفير من التجارة التي هي عصب من اعصاب الحياة ، وعماد من اعمدتها المهمة ، بل يقصد حمل المسلمين على تجنب الحلف بالله ، والغش والتدليس ، والتطفيف في الكيل والميزان ، وذلك عن طريق الايحاء النفسي ، نظرا لكون هذه الاوباء مما يتفشى عادة في الاسواق .

تلكم خواطر طالما كبحت نفسي عن الكتابة فيها ، ملتمسا لامثال هؤلاء الخطباء بعض الاعذار — او على الاصح منتحلا لهم اياها — حتى كنت الاسبوع الماضي مدعوا لوليمة غذاء في احدى ضواحي طنجة زوال يوم الجمعة ، وكان من جملة المدعوين تلميذان احدهما بمدرسة ابتدائية امريكية ، وثانيهما بمدرسة ثانوية مغربية ، وقد اديا صلاة الجمعة في المسجد الجامع بتلك الضاحية صحبة والد الاول وعم الثاني ، وعندما جمعتنا الوليمة المذكورة مع من جمعتنا بهم نطق الثلاثة بلسان واحد متسائلين : هل صحيح ان الرسول (ص) قال ما معناه : ان الفقراء سيدخلون الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام ؟ قلت : من قال لكم ذلك ؟ قالوا : ان السيد خطيب الجمعة قد روى ذلك عنه (ص) مؤيدا هذه الرواية معضدا اياها . قلت : ان الذي اعلمه من دراساتي الاسلامية وفهمي لروح الشريعة المحمدية ان الله فضل — بنص القرآن — بعض الناس على بعض في الرزق ، وان الغنى او الفقر ليسا المقياس الذي به توزن اعمال العبد التي ترشحه اما للجنة واما الى النار ، بل المقياس الصحيح هو التقوى : (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) مضافا اليها العمل الصالح ورضى الله ورحمته ، يقول الرسول عليه السلام : « والله لن يدخل احد الجنة بعمله ، قالوا : ولا انت يا رسول الله ، قال : نعم ، الا ان يتغمدني الله برحمته»

واذن فقد تساوى الغني والفقير في هذا المضمار ، وبقي ان نذكر ان جميع الديانات السماوية — وخصوصا الدين الاسلامي — اعتبرت « المال » من المصالح الضرورية التي بعث الرسول من اجل المحافظة عليها وتحصينها لكون الحياة تتوقف عليها ، ولا تستقيم الا بها ، وهذه المصالح خمس كما نصت عليه كتب اصول التشريع الاسلامي ، وهي المحافظة على كل من : النفس ، والنسل ، والدين ، والعقل ، والمال ، ولاجل المحافظة على المال مثلا شرعت التجارة والصناعة وغيرهما ، ومن اجل الدفاع عنه شرع حد السارق وما اشبهه . ومن جهة اخرى فقد ثبت عن الرسول (ص) قوله : « اليد العليا خير من اليد السفلى الى يوم القيامة » وقد فسرت اليد العليا بانها « المعطية » ، وفسرت اليد السفلى بانها « الاخذة » .

وبناء على كل هذا يكون الغني — اذا كد وتعب حتى اغتنى بالحلال ، وهو مع ذلك لا يترك سانحة لفعل الخير والبر تمر الا واقتنصها ارضاء لله ، واهتداء بهديه — احب الى الله واقرب اليه من كثير غيره .

* * *

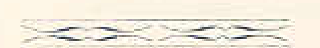
وعلى اية حال فان الذي يجب ان يفهمه السادة خطباء المناسبات الدينية عندنا ان ظروف المغرب التي يجتازها الآن ، وما يعانيه حكومة وشعبا من اجل القضاء على البطالة والتخلف الاقتصادي وما شابههما ، يستلزم من هؤلاء السادة — مربي الجمهور وموجهيه — كثيرا من الذكاء واللباقة في اختيار الموضوعات ومعالجتها ، وان يتجنبوا كل ما من شانه بعث الخور في النفوس او الارواح او العقول ، وان يقدموا الاسلام ومبادئه الى الناس — وما اكثر البسطاء السذج فيهم ، في اطاره النقي « محجة بيضاء ، ليلها كنهارها ، مازاغ عنها احد الا هلك » .

وليس لهؤلاء السادة ان ارادوا تحقيق ذلك الا سبيل واحدة : هي الرجوع اولا وقبل كل شيء الى القرآن المجيد ، ومحاولة فهمه في نصه وروحه ، ثم الى السنة النبوية الطاهرة ، يستأنسون منها بما لا يتعارض مع القرآن شكلا وموضوعا .

واني زعيم لهم انهم اذا فعلوا فسوف يخرجون من عملهم هذا بمفهوم جديد للاسلام ، وسيجدون في هذا المفهوم النير الشعلة الوهاجة التي تنير لهم ولغيرهم الطريق ، وتشحذ منهم الهمم وتدفعهم الى القمم .

وان لم يفعلوا فما احرى « المهتمين بشؤون الاسلام والمسلمين في وطننا العزيز هذا » ان يتدخلوا ، حتى لايبقى الاسلام في ذهن السواد الاعظم من جمهورنا المجنى عليه — كما هو في ذهن البعض من خطبائنا — مادة مخدرة ، يصدق عليها ما ينعت به الماركسيون الاديان عموما — باطلا وزورا — من انها « افيون الشعوب » .

طنجة : محمد عبد الواحد بناني







روي البخاري عن ابي هريرة أن رسول الله « ص » قال :

« اياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا »

— الشـــرح —

قد روي البخاري هذا الحديث عن ابي هريرة من طريقين ، وروي عن انس حديثا بهذا المعنى ولكن بنقص : « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث » وزيادة : « ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاثة أيام » فى آخر الحديث مع اختلاف يسير فيما بقي ، ورواه مسلم كلفظ البخاري عن أبي هريرة ايضا .

الظـــن : يطلق على اليقين احيانا كما جاء فى قوله تعالى : « وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون » وقوله : « اني ظننت اني ملاق حسابية » ويطلق احيانا على ما يقابل اليقين كقوله تعالى : « وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون » وقوله : « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » والظن الذي هو يقين لا يحدث الا عن ادلة وامارات ، اما غير اليقين فانه حديث للنفس ينبعث عن غير دليل ، وهذا النوع الثاني قد يكون ظن خير ، كان تظن بانسان حبا للخير فتقصده ، ليعاون فى المساهمة على انشاء مؤسسة خيرية ، ومن ظن الخير ظنوا ان الحكم الشرعي فى حادثة معينة اذا استندت الى دليل ظني ، وقد يكون ظن سوء كان تظن بفلان سوء السيرة او انه يدبر لك مكيدة ، او انه خائن لبلاده وليس عندك فى كل ذلك دليل او ما لا يصح ان يكون دليلا كشائعات كثيرا ما تكون مختلقة .

ونحن اذا نظرنا الى النهي عن الظن نجد انه لا يمكن أن يتوجه الى الظن بمعنى اليقين ، اذ لا معنى للنهي عن اليقين مع ورود القرآن به فى مثل قوله : « فتبينوا » كما انه لا معنى للنهي عن العمل بما يقضي به اليقين ، وعلى ذلك اذا تيقنت ان فلانا حليف الشر وجب عليك أن تقاطعه وتهجره حتى يرعوى ، وكذلك لا يتوجه الى الظن الذي ليس بيقين اذا كان ظن خير ومنفعة ، فاذا ظننت فى نفسك القدرة على تقديم مصلحة لاخوانك او لأمتك لا تكون مخاطبا فى هذا الحديث عن هذا الظن ولا الكف عن العمل بموجب هذا الظن . اما ظن السوء فانه يكون منهيا عنه الا فيما يتعلق بمصلحة الظان نفسه كان يدعوه هذا الظن الى الاحتراس من خصمه والحذر من مكائده ، ولا يصح ان يتجاوز ذلك كان يعمل على الاضرار بمن ظن فيه السوء ، وهذا هو المنهي عنه فى الحديث ، وليس الفرض النهي عن نفس الظن لان الظن هواجس واحاديث نفسية

تهجم على الانسان ولا قبل له بدفعها بادىء ذي بدء ولا تكليف بما لا يطاق ، ولذا روي ان رسول الله « ص » قال : ـ « تجاوز الله للامة عما حدثت بـه نفسهـا » وروي عنه « ثلاثة لا يسلم منها احد ، الطيرة والظـن والحسد » قيل فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « اذا تطيرت فلا ترجع ، واذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ » بل الفرض النهي عن الاسترسال فى الظنون الشريرة والنهي عن العمـل بموجبهـا ، فان الاسترسال فيها قد يدفع الانسان بمن ظن به السوء مع انه قد يكون بريئا .

ولذا امر الله باجتناب كثير من الظنون فقـال : « يا أيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم » وقال : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » فقد علل الامر باجتناب الظن فى الآية الاولى بان بعض الظن اثم فيخشى بان يقع الانسان ـ اذا لم يتثبت ـ فى هذا الظن الآثم الذي قد ينجم عنه من الاضـرار ما يزرع العداوة ويفرق الوحدة التـي كثيـرا ما حث الاسلام على التمسك بها ، وعلل امره بالتبيين فى الآية الثانية بخشية ان يصيب غير المتثبت قومـا ابريـاء بسبب جهله بالحقائق التي تخالف هذا الظن الكاذب ، نتيجة للسماع من هذا النمام الفاسق ، وحينئذ تبين لنا ان الظن المنهي عنه هو الظن الناشيء عن هـوى وشهوة او عن دسيسة دساس ، وان النهي عنه يقصد به النهي عن الاسترسال فيه استرسالا يدفع بصاحبه الى ايذاء المظنون به فى نفسـه او رزقـه او عرضـه ، وبالتالي يكون نهيا عن الاضرار بهذا الظنين اخذا بهذا الظن الذي لا دليل عليه ، واما العمل بمثل هذا الظـن فى خاصة نفس الظان كالاحتياط من الخصم والحـذر منه فلا يراد النهي عنه ولذا قيل : « احزم الحزم سوء الظن بالناس » وقيل « سوء الظن عصمة » كما انـه لا يتجه النهي عن الظن الذي لا ضرر فيه لأحد كان تظن أن فلانا لم يسافر او انه فعل ما قد كلفته به او انـه ليس يعرف ما تريد سؤاله عنه او نحـو ذلك ، وقـد روي البخاري عن عائشة انها قالت : قال النبي «ص» « ما اظن ان فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا » قال الليث : ـ وهو من رواة الحديث ـ : كانا رجليـن من المنافقين .

وبعد ان حذر من الظن تحذيرا دل على النهـي عنه بقوله « اياكم والظن » قضى على ذلك ببيان العلة التي اقتضت هذا النهي فقال : « فان الظـن اكـذب الحديث » والكذب كما نعرف نقيض الصـدق . فاذا كان الصدق مطابقة الخبر للواقع كان الكذب عـدم مطابقته للواقع ، ومنه قولهم : « كذبتك عينـك » أي ارتك ما لا حقيقة لـه .

والحديث : حديثان : حديث اللسان ، وحديث الجنان ، والكـذب فى الحديث يطلـق فى الاصـل على الكذب فى حديث اللسان ولكن الرسول (ص) اطلقـه على حديث الجنان ايضا على سبيل التجوز ، لان كـلا من الحديثين لا يعتمد على شيء يصح الاعتماد عليـه عند التحدث ، وهو الامر الواقع بالنسبـة لحديـث اللسان ، والدليل او الامارة الصادقة بالنسبة لحديث الجنان . وانما كان حديث الجنان المنهي عنه وهو الظن السيء بالناس أكذب الحديث لان الكذب اللسانـي لا يجزم صاحبه بانه حقيقة ، فيجزم بـه ويبنـي عليـه تدبيراته الضارة بالمظنون به ، فضلا عن ان اثره اشد لخائفه عن الناس ، فلا يمكن الاتقاء منه . اما الكـذب فانه لابد ان يظهر فيتقي ، ولذلك كان أجدر بالـذم والتنفير منه بوصفه بانه اشد الاحاديث كذبا ، وبعـد أن نهي عن الظن السيء والعمل بما يقتضيه من أضرار بالمظنون به وبين علة ذلك ، مع العلم بان الظن من غرائز النفوس البشرية ومشتهياتها فى كثير من الاحيـان ، عطف عليه نظيره ما تصبو اليه بعض النفوس لانه من طبائعها الشريرة ، فنهى عنه كما نهى عن صاحبه فقال: « ولا تحسسوا » وهذه الكلمة ترجع فى مادتهـا الى الحس . يقال : تحسـس من كذا ، أي عالج علمه بحاسة من حواسك وتكلفه باستخدام هذه الحواس كالعيـن والاذن ، ثم توسـع فى هذا التعبير فصـار يطلـق على العناية بالكشف عن الاشياء ، والمراد هنا : ـ انما هو النهي عن تتبع عورات الناس من اي طريق بغيـة ان ينشرها او تكون لهم وسيلة الى التشهير باصحابهـا متى شاءوا ، ومما يؤيد ذم هذا قولـه تعالـى : « ان الذين يحبون ان تشيـع الفاحشة فى الذين ءامنوا الآية» وبعد هذا عطف عليه النهي عن التجسـس فقال : « ولا تجسسـوا » والتجسـس مأخوذ من الجس باليد وهـو اللمس بها لاختبار الشيء ، ثـم استعمـل فى تعـرف الشيء بالنظر الحاد . قالوا : جسه بعينه اذا حـدد النظر اليه ، ثم صار يستعمل فى العناية بتعـرف أي شيء ، والذي يظهر ان المراد من التجسـس هنـا هـو المراد من التحسـس ، وهو تتبع عورات الناس ويكـون التكرار للمبالغة فى الزجر ، وبعضهم جعل التحسـس بالبحث عن هذه العورات لنفسـه ، والتجسس البحث عنها لغيره ، وهو متمش ايضا مع سياق الحديـث ،

فيكون النهي متوجها للبحث عن العورات لنفسه او لغيره ، ولكن هذا لا يكون على اطلاقه ، بل يجوز التجسس والتحسس اذا تعين طريقا لمصلحة ، كاثبات دعوى او تعرف مواطن الضعف من الاعداء في الحروب فقد كان الرسول يستعمل الجواسيس على اعدائه في الحروب .

ثم نهى بعد ذلك عن خلة اخرى تعد من الطبائع البشرية وهي « الحسد » فقال : ــ (ولا تحاسدوا) اي لا يحسد بعضكم بعضا ، فيتمنى زوال النعمة عن غيره ، لانه لم يرزق منها ، سواء كان ذلك مع تمني ان تتحول اليه ام لا ، وهذا داء وبيل يغرس البغضاء ، ويذهب بالوحدة في الجماعات ، وهو من الادواء التي لا يمكن دفعها الا بمجاهدة النفس وعدم الاستمرار في خطورها ، فاذا لم يستطع كان عليه الا يعمل ما يؤدي الى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا اقل ما يلزم فقد قال عليه السلام : « ثلاثة لا يسلم منهن احد . . . » الحديث ، وروي عن البصري انه قال : « ما من عادمي الا وفيه الحسد فمن لم يجاوز ذلك الى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء » ولكن اقول فيه ايلام لنفسه ، وعدم رضاء بالمقدور ودفع لهمته الى تدبير المكروه للمحسود ، فقاوموه ما استطعتم .

ثم بعد ذلك نهى عن التدابر وهو التقاطع فقال : « ولا تدابروا » وهو مأخوذ من الدبر ، ودبر كل شيء مؤخره ، ومنه جئتك دبر الشهر أي آخره ، وتدبرت الامر اذا نظرت عواقبه ، والمراد هنا النهي عن التقاطع ، لان الرجل اذا قاطع صاحبه ولاه دبره وقفاه واعرض عنه ، ثم نهى بعد ذلك عما يزيد الوحدة انفكاكا فقال : « ولا تباغضوا » أي لا يبغض بعضكم بعضا ولما كان البغض من الامور النفسية التي ليس لانسان قدرة على دفعها ابتداء يكون النهي عن الاسباب المؤدية اليه ، فلا يفعل الانسان شيئا يزرع البغض في نفس اخيه ، ولا يظن باخيه ما قد يؤدي الى بغضه هو لاخيه ، ولا يتبع الاهواء والنزوات الشيطانية التي تؤدي الى ضلاله فيزرع بذلك التباغض والعداء ، واصل تباغضوا تتباغضوا كما أن الاصل في الافعال السابقة كلها « تتفاعلوا » ، واصل المادة تدل على التعمل والتكلف والمعالجة اي لا تتكلفوا كل ذلك بعمل ما يكون سببا في وجودها فابتعدوا عنه ، واذا لم تستطيعوا فلا تعملوا ما قد يترتب عليه من اضرار ، وليس كل البغض مذموما ، فان بغضك لصاحبك لحق الله وحق الناس مما يثاب عليه فقد كان الرسول لا يبغض الا لله ولا يحب الا لله ، كما ورد في الآثار . . .

وبعد ذلك قال : « وكونوا عباد الله اخوانا » اي كونوا كالاخوان في النسب من حيث الشفقة والرحمة والمواساة وحسن المعاملة وكف الاذى وحب الخير وعلى الجملة كونوا متصفين بجميع ما يحقق الاخوة ويؤدي الى ان تكونوا كتلة واحدة مرهوبة الجانب ، فان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومما تقدم يتضح لنا ان الكلام جاء على التشبيه، كما قيل : « اخوان الوداد أقرب من اخوان الولادة » كان لنا ان نفهم ان الاسلام ورد مورد الحقيقة ، وعطف هذه الجملة على ما قبلها من عطف العام على الخاص ، فان الاخوة تتضمن الاتصاف بضد ما نهى عنه وبغيره من كل ما يحقق الاخوة ، ورأى ابن حجر : « ان هذه الجملة كالتعليل لما سبقها ، ولكن العطف بالواو ووجود الامر « كونوا » يبعد ذلك ، وقد زاد مسلم في رواية له لهذا الحديث قوله : « كما امركم الله » اي كونوا اخوانا كما امركم الله ، وذلك لان امر الرسول امر من الله لقوله تعالى : «اطيعوا الله واطيعوا الرسول» او للاشارة الى قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » وهذه الجملة وان كانت اخبارا عن الحالة التي شرعت للمؤمنين فهي بمعنى الامر ، اي فهي انشائية .

وبعد ذلك : نذكر لك ان بعض العلماء زعم ان صدر هذا الحديث وهو قوله « واياكم والظن » ينهى عن العمل في الاحكام الشرعية بالاجتهاد والقياس الذي يسمونه بالراي ، ولا ادري كيف يتاتى هذا الفهم من الحديث ؟ !! مع ان الاجتهاد والقياس في الاحكام الشرعية انما يكون عن دليل ونص ورد فيه حكم المقيس عليه ، مع ان الظنون كما تقدم لا تعتمد على أدلة ولا امارات ، بل كيف يتاتى هذا مع قوله بعد : « فان الظن اكذب الحديث » ؟ !!! . فهل الاجتهاد عن دليل يقال فيه اكذب الحديث ؟ وعلى فرض صحة ذلك فكان الرسول يكون قد قال : « واياكم وظن الاحكام الشرعية التي يكون لكم منها النفع في دينكم ودنياكم ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا . . . الحديث » فاي ذوق عربي يجيز هذا القول ؟ بل اي فكر سليم يستبيح ان يجعل الرسول كالقائل لمثل هذا ؟ واي رابطة بين النهي عن الاجتهاد والنهي عن التحسس . . . الخ ؟ اللهم الا الافكار التي اعماها التعصب وحب التغلب الجدلي ، ولا يصح ان يقال : ان مرادهم الظن

الذي لم يعتمد على دليل من كتاب او سنة او اجماع ، لانا نقول : ان الظن المنهي عنه هو الظن السيء او الذي يؤدي الى ضرر بالفرد او المجتمع ، والاجتهاد المظنون حتى وان لم يعتمد على هذه الادلة انما يراد به النفع .

وخلاصة القول : ان الحديث حوى من الاسس الاجتماعية ما يدعم بناء الامة ، ويجعلها مهيبة الجانب بين الامم ويتفق في كل ما جاء به مع روح الاسلام ، فان الاسلام دعا الى كل الاخلاق التي تقوي الامة ، حتى تسير قدما في نشر الدين ، ونهى عن كل خلق يؤدي الى الذلة والخنوع ، وبذا يقول الله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » فانظروا اين نحن من مصداق هذه الآية ؟ وكلما ابتعدنا عن تعاليم الاسلام ابتعدنا عن حقيقة الايمان ، فان الرسول الكريم يقول : « لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ويقول : « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ... الحديث » ويقول : « لاايمان لمن لا امانة له » وعدد شعب الايمان في احاديث متعددة ، ولو نظرنا الى هذه الشعب لوجدنا انفسنا قد خرجنا منها ، فهل يصح لنا ان نقول : كيف لم يتحقق فينا وعد الله « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » ؟ حاشا ان يخلف الله وعده ، ولكننا الذين اخلفنا .

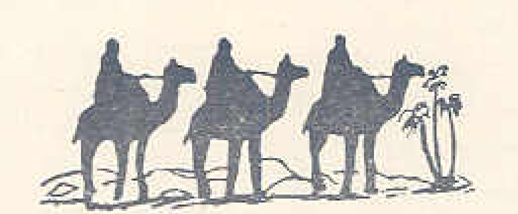
فما احرانا ان نكون على الجادة التي امرنا الصادق المصدوق بها ، حيث يقول : « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقده ، بحسب امرء من الشر ان يحقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، التقوى ههنا ــ واشار الى صدره » وحيث يقول : « لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه » وحيث يقول : «المسلم من سلم المسلمون .. الحديث وحيث يقول : « والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، الا ادلكم على شيء ان فعلتموه تحاببتم ، آفشوا السلام بينكم » وليس المراد هنا ان يقال : السلام عليكم ، بل يراد نشر السلام والامان بين المؤمنين حتى يثمر التحاب ، ولا تقولوا كما يقولوا المتأولون يكفي في الايمان الذي يدخل الجنة مجرد الشهادتين .

اما الاوصاف الذي ذكرت في هذا الحديث وامثالها فانها خاصة بمن كمل ايمانهم ، فان ذلك يكاد لا يتفق مع قوله : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا » ، ثم يبين المراد من الايمان ، ولقد احس ابن سيرين لما قيل له : « اليس لا اله الا الله مفتاح الجنة » ؟ حيث قال : « ارأيت لو جئت بمفتاح ليس له أسنان اكان يفتح لك؟ وما ذا تقولون في رجل آمن بلسانه ثم اتخذ الاعداء لاذلال المسلمين نظير دراهم معدودة او سلطان زائل فاذا امتصوا منه ما يبلغهم ما يريدون لفظوه لفظ القاذورات ، اتقولون : انه ما دام قد قال : لا اله الا الله محمد رسول الله مع انه لم يعمل بموجبها يكون ممن يشمون نسيم الجنة » ؟ اللهم ان هذا طمع قد فاق طمع اشعب ، وباعثه امران : عدم المبالاة بوعيد الله ، وسوء الذوق معه .

اللهم اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم ، بالفقه في الدين والوقوف على حدود اليقين ..

طنجة : محمد كمال شبانة

عضو البعثة الثقافية العربية بطنجة



عوامل الوحدة في المغرب العربي

للاستاذ : محمد زنيبر

من بين الافكار التي سيكون لها شأن هام بالنسبة لمستقبلنا فكرة توحيد المغرب العربي ؛ وهي فكرة قديمة لها جذور عريقة في التاريخ ويشهد عليها كم من اثر خلفه اجدادنا منذ اجيال واجيال ، وانما عاق عن الشروع في تحقيقها بصورة جدية وملموسة الوضع الاستعماري الذي كانت تعيش فيه شمال افريقيا الى عهد قريب ، وبتحرير آخر جزء من الشمال الافريقي الذي هو الجزائر ، سيتسنى لرجال السياسة والاقتصاد ان يدرسوا بكيفية علمية وعملية مسالة توحيد المغرب العربي وان يخرجوا بها من طور الفكرة المجردة الى طور الواقع المجسم .

وفكرة توحيد المغرب العربي ليست من تلك الافكار الساطعة البراقة التي تخلب الانسان لاول وهلة، بل انها على العكس من ذلك ، فكرة عملية ضرورية تفرض نفسها شيئا فشيئا مع تقدم الزمان واتساع مسؤوليات دول المغرب العربي كدول حرة مستقلة لها مركزها في المجتمع الاممي ، فقد كانت هذه الدول في الواقع ، وهي تكافح ضد الاستعمار غير متفرغة للتفكير في بناء مستقبلها وفي تخطيط البرامج الواسعة العملية للنهوض بمستواها المادي والفكري ، اما وقد احرزت استقلالها وتسلمت القيادة بيدها ، فقد اصبحت تسيطر على مصيرها بنفسها ولوحدها ، ومعنى هذا اصبحت تتحمل مسؤوليات جسيمة وتواجه مشاكل عديدة متشعبة ، وهذا كاف وحده لان يدفعها الى التضامن فيما بينها ، والتعاون على تذليل الصعوبات الناجمة وتسوية القضايا المستعصية .

واهم هذه القضايا هي قضية التخلف العام في سائر الميادين ، حقا ان معالجة التخلف لا يقع طفرة ، بل يتطلب زمانا ووسائل قد تتوفر وقد لا تتوفر ، ولكن مهما كان الزمان وكانت الوسائل ، فان العلاج يكون ايسر واقرب ، اذا تضافرت الجهود ، وعبئت الموارد والوسائل ، فان العلاج يكون ايسر واقرب ، اذا تضافرت الجهود ، وعبئت الموارد والوسائل في نطاق مشترك بين دول تجمع بينها روابط وثيقة دائمة، وذلك شأن دول المغرب العربي .

على ان مسالة وحدة المغرب العربي لا تنحصر في نطاق محدود ، بل انها تعرض لنا في كل ميدان من ميادين الحياة العامة وتواجهنا في سائر المستويات الفكرية .

فاذا وضعناها في المستوى العاطفي الذي هو مستوى الجميع بغض النظر عن التكوين الثقافي ، فانها تلاقي ترحيبا شعبيا حارا وتاييدا اجماعيا ، ولربما لا يوجد من يعترض عليها او ينتقدها ، والحقيقة ان وحدة شمال افريقيا تثير في النفوس نشوة حماسية ، لانها تعود بالذاكرة الى عهود تاريخية مجيدة ، ولانها تشعرنا بالقوة والعظمة ، وامة تضم عشرات الملايين من السكان ، وتمتد بقعتها على آلاف الكيلومترات لا شك وانها تبعث في نفوس ابنائها روح الفخار وترفع معنويتهم ، ولا شك ان فكرة العظمة هذه والامجاد التاريخية هي التي اجتذبت اول مرة شباب افريقيا الشمالية الى التغني بالوحدة والهتاف لها .

وقد اخذ هذا المظهر العاطفي في بعض الاحيان شكلا قويا مروعا يذكر بالملاحم التاريخية الكبرى المليئة بمواقف البطولة والاستماتة ، ولنقتصر في هذا الباب على ذكر يومين لهما شان في تاريخ المغرب العربي وهما 20 غشت 1955 بالجزائر و22 اكتوبر 1956

بمكناس ، ففي 20 غشت 1955 قام الجزائريون بمظاهرات عظيمة في القطر الشقيق تضامنا مع المغاربة في يوم ذكرى اختطاف ملكهم ، وقتل ذلك اليوم آلاف من الجزائريين تحت وابل الرصاص الاستعماري ، وفي تاريخ 22 اكتوبر 1956 ، كانت حوادث مكناس المشهورة التي جاءت كرد فعل من المغاربة على اثر اختطاف الزعماء الجزائريين الخمسة وهم ذاهبون الى تونس في طائرة مغربية .

ومثل هذه الاحداث الجسيمة كافية للدلالة على ان ابناء المغرب العربي يشعرون شعورا عميقا بوحدتهم وتضامنهم ، لكن العواطف ان كانت ضرورية لتدعيم كل بناء سياسي ذي شأن ، فانها لا تكفي وحدها لضمان تماسك البناء واستمراره ، ولذلك ، فلابد من اعتبار عوامل اخرى لها ثقلها في الميزان .

❋

وفي قضية كقضية توحيد المغرب العربي ، فالذي يجب اعتباره في الاول هو الوضع الدولي والعالمي ، وفي هذا المستوى نجد ان تحقيق الفكرة لربما كان ضرورة ملحة لا يمكن الاستغناء عنها ، فنحن نرى بالقرب منا دول اوربا الغنية بثرواتها المكدسة ، القوية بصناعاتها ومخترعاتها وانظمتها وثقافتها لا تأمن على نفسها من ان تبقى منعزلة عن بعضها ، مشتتة الشمل وتسعى بكل الوسائل والمحاولات لضم صفوفها وتحقيق وحدتها ، وها هي اليوم تسير بخطوات ايجابية نحو ادراك هذه الاهداف ، ونرى كذلك في القارات الاخرى امما كثيرة تسعى للتكتل فيما بينها لتصبح اقوى على مواجهة المشاكل التي تعترضها ، فعصرنا عصر تكتل بين الدول وخلق مجموعات كبرى من الشعوب التي كانت بالامس منفصلة عن بعضها .

واذا كانت دول قوية ، متقدمة تشعر بضرورة التوحيد فيما بينها ، فكيف بدول ناشئة ، متخلفة مثل اقطار المغرب العربي ؟

ان التوحيد فيما بينها هو الذي سيحفظ كيانها واستقلالها ازاء الخارج ، وهو الذي سيضاعف وسائلها وامكانياتها للدفاع عن نفسها وعن مركزها في عالم اليوم ، سيما وقد اصبحت الدول العظمى اليوم لاتحترم الا الدول التي لها مناعة وقوة والتي لها ثقل في النطاق الدولي ، والمتتبعون للاحداث العالمية يرون امثلة كثيرة عن ذلك ، فالمغرب العربي ككتلة واحدة يستطيع ان يفرض وجوده في العالم بصورة اقوى مما لو بقي كل بلد من بلدانه يعمل لحسابه الخاص ، ويمكننا ان نقول دون ان نخشى أي مغالاة انه لو كان المغرب العربي اليوم موحدا ، لكانت له الزعامة في افريقيا وفي العالم العربي ، دون منازع ، وحصوله على مركز ممتاز في هاتين الناحيتين المهمتين من الدنيا سيجعل له هيبة وحرمة لدى سائر دول العالم وسيمكنه من ان يلعب دورا فعالا في النطاق الاممي .

❋

فاذا نظرنا الآن الى الموضوع في مستوى الوضع الداخلي لدى المغرب العربي ، فاننا لا نلاقي اية صعوبة ولا نصطدم باي عقبة ، بل اننا لا نجد في طريقنا الا المشجعات ، فنحن لسنا بازاء شعوب مختلفة في ارومتها وعقليتها وثقافتها ولغتها ، بل انه في الحقيقة شعب واحد من الغرب الى الشرق يتكلم لغة واحدة ، وله عادات وتقاليد متشابهة ، وهو شعب يتكون من سلالتين اساسيتين عربية وبربرية ، وذلك وضع له اهميته ، فدول اوربا التي تنشد الاتحاد تختلف في كل شيء : فهنالك اللاتيني وهنالك الجرماني ، وهنالك السكندنافي ، وهناك السلافي ، وكل دولة تعتز بقوميتها وحضارتها وثقافتها ، بحيث سيصعب على تلك الدول ، ان لم نقل يستحيل ان تندمج بعضها في بعض .

اما في المغرب العربي ، فمشاكل الاختلاف لاتوجد بحيث ان التونسي ينتقل الى المغرب فلا يشعر بانه غير وطنه ، كما ان المغربي لا يجد نفسه غريبا في تونس ، وتلك وضعية لها فوائد جمة ، انها اولا ستسهل الاتصال بين ابناء المغرب العربي ، وغير خاف ان اختلاف اللغات والعقليات يقف حاجزا دون تفاهم الشعوب وتقاربها ، كما ان تلك الوضعية ، من جهة ثانية ، ستساعد على حل سائر المشاكل الادارية وتكون عامل توحيد للانظمة والقوانين المعمول بها في كل من اقطار المغرب العربي .

❋

لكن بناء عظيما مثل توحيد المغرب العربي لا يمكن ان يثبت ويرسخ الا اذا كانت له اسس اقتصادية .

ونحن اذا نظرنا الى توحيد المغرب العربي في المستوى الاقتصادي ، نجد هنا كمشجعات كثيرة منذ البداية ، فهنالك موارد فلاحية ومعدنية تكون ثروة ضخمة قابلة للاستغلال والتحويل والتنمية ، وهي ،

في الحقيقة راسمال المغرب العربي ، وهنالك شبكة صالحة للطرقات والسكك الحديدية والموانىء تسهل بكثير التبادل بين اقطار المغرب العربي ، كما تسهل عليها التبادل مع الخارج ، وهنالك انواع من الطاقة التي لا يمكن بدونها تاسيس صناعات عصرية كبرى ، ولنذكر منها الكهرباء، والفحم والبترول والغاز، على ان احصاء الموارد لا زال لم يتم في افريقيا الشمالية ولا زالت الابحاث جارية عن الامكانيات الموجودة في كل القطاعات ، بحيث انه لا يمكن الخروج من الآن بقول نهائي في الموضوع .

ومع ذلك ، فان المعلومات المتوفرة من الآن تخول للاقتصاديين ان يقدموا نظريات مبنية على اسس حقيقية ومعقولة ، واول ملاحظة يمكن ان نبديها في هذا الصدد هي ، كما ذكرنا في الاول ، ان دول المغرب العربي متخلفة من الوجهة الاقتصادية ، والدولة المتخلفة يصعب عليها اليوم ان تتمتع باستقلال اقتصادي حقيقي ، ان هي بقيت منعزلة ، فكلما حاولت الخروج من وضعيتها ، تجد نفسها مضطرة للمساعدة الخارجية ولجلب رؤوس الاموال الاجنبية ، وهذه المساعدات يستحيل عليها ان تحرزها بدون مقابل ، بحيث ان تلك الدولة تجد نفسها في النهاية ملزمة برهن جزء من سيادتها ان ارادت المحافظة على شيء من التوازن في اقتصادها .

فاذا امكن لدولة متخلفة كهذه ان تدخل في وحدة اقتصادية مع دول متخلفة مثلها ، فانها ستصبح اقوى بكثير على مواجهة مشاكل التخلف ، وهذه ملاحظة يمكن تطبيقها على المغرب العربي .

فالمغرب العربي اذا تكون كوحدة اقتصادية متماسكة ، سيستفيد من جهتين : من جهة علاقاته مع الدول الراسمالية الكبرى ، ومن جهة انمائه الاقتصادي والزيادة في دخله القومي .

فاذا نظرنا الى علاقاته مع الدول الراسمالية الكبرى ، نجد انه باتحاده ستصبح له مكانة اكبر لدى هذه الدول ، وبالتالي ، سيحصل على مساعدات هامة مع شروط خفيفة ، ذلك ان تلك الدول ستحرص على صداقة المغرب العربي ، نظرا لموقعه الجغرافي ولمركزه في القارة الافريقية وتاثيره عليها .

ثم ان الدول الراسمالية المعروفة بسياستها المتقلبة ستفقد ، امام اتحاد المغرب العربي كل امكانيات المراوغة والتلاعب واستغلال الخلافات الطارئة ، لانها ستجد نفسها امام وحدة متلاحمة قوية ، فلابد لها اذن، من ان تتفاهم معها على اسس جديدة

يضاف الى كل هذا ان المغرب العربي سيكون سوقا تجارية يقطن بها زهاء الثلاثين مليون نسمة ، ولربما تضاعف هذا العدد بعد مرور جيل واحد ، وهو ، بهذه الصورة ، سيغري كثيرا من الدول بالتبادل معه والتعاون على اسس حرة سليمة .

ومن جهة اخرى ، فهنالك حادثة اقتصادية هامة ستضطر دول المغرب العربي لا محالة الى السعي من اجل توحيدها الاقتصادي ، ذلك هو تاسيس السوق الاوروبية المشتركة ، الذي سيخلق تعاونا وتضامنا بين دول اوربا في الميدان الاقتصادي ، وستصبح هذه الدول بالطبع يتمم بعضها البعض ولربما استغنت في كثير من حاجياتها عن الخارج ، وبما ان معظم التجارة الخارجية للمغرب العربي تقع مع اوربا ، فغير خاف ما ينطوي وراء انشاء السوق الاوربية المشتركة من مساس بالمصالح التجارية لدول المغرب العربي ، ولهذا ، فان الاتحاد فيما بينها هو الذي سيجعلها اقدر على مواجهة المشاكل من هذا القبيل التي يمكنها ان تنجم في المستقبل .

واذا نظرنا الآن الى المسالة من جهة الوضع الاقتصادي الداخلي للمغرب العربي الموحد ، نجد ان امكانياته ستتسع من كل الوجوه ، فالتبادل داخل مجموعة المغرب العربي سيتضاعف ، وسينفتح الباب لرواج المنتجات الوطنية ويتسع السوق الوطني الداخلي ، كما انه سيوضع حد للفوضى في التبادل مع الخارج وذلك بتنسيق الانتاج والاصدار وتحديد الاثمان وغير ذلك من التنظيمات التي هي وحدها الكفيلة بصيانة مصالح المجموع .

فهنالك منتجات تتشابه في البلدان الثلاثة مثل الفوسفاط والحلفاء والزيتون والحوامض والعنب وغيرها ، وسيسهل الدفاع عن هذه المنتجات في الاسواق العالمية في دائرة الوحدة اكثر مما لو بقيت كل دولة تعمل لحسابها الخاص ، وهنالك موارد اخرى ينفرد بها كل قطر على حدة ، ولناخذ مثال منجم الغاز بحاسي الرمل في الجزائر ، فالخبراء يقدرون ان هذا المنجم ينطوي على مدخر عظيم من الطاقة يكفي

لحاجيات امم عديدة فى مدة طويلة ، ومعنى هذا ان دول المغرب العربي ستستطيع ان تنشيء صناعاتها الكبرى لانها تتوفرعلىالطاقة الضرورية ، وكل هذا لايتم بالطبع الا في دائرة الوحدة المغربية .

وهكذا ، فان تنظيم الاقتصاد داخل مغرب عربي موحد سيكون هو العامل الاساسي للاسراع بالنماء الاقتصادي والقضاء على التخلف فى تلك الناحية من العالــــم .

وما دمنا فى ميدان الاقتصاد ، فلا ننس ان نقف لحظة امام مسالة تكتسب اهمية خاصة فى الاعوام الاخيرة ، الا وهي الصحراء الكبرى ، ولنترك الآن جانبا مسائل السيادة التي ستحل فى نطاق الوحدة المغربية لنحصر انتباهنا فى الناحية الاقتصادية .

لقد بينت الدراسات والاكتشافات التي وقعت فى الصحراء منذ الحرب ان تلك المناطق الشاسعة التي كانت تعتبر فيما قبل قاعا صفصفا لا ينتظر منها اي خير ، هي بالعكس اراض تكتنز فى جوفها ثروات معدنية نفيسة ، فلم تعد سلسلة من الهضاب الصخرية والكثبان الرملية التي يتغنى بها الشعراء ويزورها السواح المغامرون للاطلاع على عجائب المخلوقات ، بل انها اصبحت منطقة تكتنفها البحوث العلمية من كل جانب وتستهوي كذلك اصحاب رؤوس الاموال الطامعين فى انماء ثرواتهم ، ولا غرو ، فهنالك اتفس المعادن المطلوبة فى العالم من بترول وحديد ونحاس وغاز وغيرها ، ولا زال لحد الساعة لم يعرف الا القليل من موارد الصحراء .

وهذه الموارد الصحراوية لا زالت كلها اما فى يد الاجانب يستغلونها واما مواد خام مكتنزة فى مناجمها ، بحيث انها لم تساهم لحد الساعة بشيء فى الدخل القومي لاقطار المغرب العربي ، ومن المحقق ان المغرب العربي اذا بدأ يستثمر ثرواته الصحراوية على الوجه الاكمل فسيحصل على مداخيل تكفيه للخروج من التخلف والدخول فى عهد من الرخاء والازدهار .

الا ان استغلال الصحراء لا يمكن ان يتم بالصورة المنشودة الا فى دائرة المغرب العربي الموحد ، والا فان المجهود عظيم وشاق تعجز عن القيام به كل دولة على حدة .

*

يتبين من هذه النظرة المجلى ان دول المغرب العربي ستستفيد كثيرا وفى سائر الميادين من اقامة نظام للاتحاد فيما بينها ، وفكرة الاتحاد ان لم تتحقق دفعة واحدة فانها ستفرض نفسها رويدا رويدا لانها ، بالنسبة لشعوب المغرب العربي ، هي السبيل الوحيد للخروج من التخلف وللحياة فى عالم شاق لا يؤمن الا بالقوة .

سلا : محمد زنيبر



أزمة الفكرة التوحيدية العربية

للأستاذ
المهدي البرجالي

هل هناك بالفعل ازمة حقيقية تعاني منها حركة التوحيد العربي في اطوارها الراهنة ؟ وما مدى هذه الازمة وامتداد ابعادها الفلسفية والواقعية ! .

ان استعراض الصور التي يتراآى فيها واقع هذه الحركة في الوقت الراهن ، واتجاهاتها العامة المختلفة كل ذلك من شانه ان يوحي للمراقب ـ اجنبيا كان ام قريبا ـ ببعض الانطباعات التي لا تبعد كثيرا عن مفهوم الازمة ، بل تساهم ـ الى حد ما ـ في تكوين هذا المفهوم ، وتعميق دلالته ، وابرازه كحقيقة ماثلة ومؤثرة ، فالواقع ان الاتجاهات التوحيدية في دنيانا العربية لا تزال تتشابك فيما بينها تشابكا معقدا ملتويا لا يعكس في حقيقته مظهر نزوع الى التمازج والالتحام ، بل صورة تصارع وتزاحم قد يكون لهما مبرر احيانا ، وقد تنعدم فيهما كل المبررات احيانا اخرى ، ولا ريب في ان من نتائج هذا التشابك بمعناه المتقدم وجود كل هذا القدر من الغموض السطحي غير الطبيعي الذي يسود القضية التوحيدية العربية كثيرا في الوقت الراهن ، وهذه الملابسات الطارئة غير اللازمة التي تكتنف القضية اكتنافا يحيلها احيانا الى ركام من التناقضات الفكرية والاتجاهية ،الامر الذي يغمض معه سبيل استبانة عدد من المفاهيم والمثل والقيم ، وتتعقد نتيجة لاستمراره حقائق الواقع الملموس ، وليس لنا ان نقتحم سبل التحليل والتقصي للعوامل المباشرة التي توجد كاساس لوقوع سلسلة التطورات الاخيرة في العالم العربي مما له صلة بمستقبل الفكرة التوحيدية العربية ، الا ان ذلك لايجوز ان يصدنا عن مراجعة النظر في مجموع الظواهر البعيدة التي تشكل صورة ومحتوى هذه الفكرة كما هي اليوم ، واستخلاص بعض الاستنتاجات المتاصلة عن طبيعة هذه الظواهر واتجاهاتها . ان الفكرة التوحيدية العربية تجتاز ـ كما اسلفنا ـ ازمة ذات خطورة نسبية ، وهذه الازمة ـ وان لم تكن ـ في الواقع ـ ازمة مصير ومآل لانها لا يمكن ـ كما لا يجوز لغيرها من الازمات العابرة ـ ان يؤثر في توجيه مصير التيار الوحدوي العربي الاسلامي او يحدد له سبيلا آخر غير السبيل التي تتلاءم مع حتميته التاريخية ـ ان الازمة بهذا الاعتبار ليست ازمة مصير ، وانما هي في الواقع ازمة اتجاه وازمة استهداف : ازمة اتجاه الى المقصد والغاية ، وازمة استهداف لنوعية المفاهيم والقيم والمثل التي تتمثل في هذا المقصد والغاية ، ومن الطبيعي ان تقصر الوسائل احيانا عن الوصول الى الاهداف ، ومن الطبيعي ايضا ان يكون هذا القصور احيانا سببا في كثير من التخبطات العشوائية قبل ان يتم الاستقرار في النهاية على اساس صحيح ومتين ، وقد تقود هذه التخبطات الى كثير من العثرات والمزلات ، وذلك قبل ان تستنفذ الحتميات التاريخية كل مضامينها وتاثيراتها ، وتفضي بما لها من قوة التسلسل والتدافع الى المرحلة التي تتخذ فيها الفكرة شكلا نهائيا تصبح معه وهي متكاملة الجوانب ، واضحة الملامح ، ثابتة الوسائل والنتائج .

ان حدوث مثل هذه السقطات والتعثرات يبدو اذن كضرورة محتومة لا مرد لها باعتبار انها ظاهرة طبيعية تلازم كثيرا من مجالات التطور التاريخي ذي الصبغة التحولية الراديكالية الصميمة مثل ما هو عليه الامر بالنسبة لقضية الوحدة او الاتحاد بين البلاد العربية الاسلامية ، والمتشرف لافاق التاريخ الانساني يرى ان النظريات الايديولوجية من هذا النوع

يتحتم ان تلقى فى طريق نزوعها الى التحقق والوقوع الخارجي كثيرا من الارتجاجات المعنوية ، والارتباكات الانجاهية التي قد تخمد فيها جذوة التطور والتقدم احيانا بصورة نهائية ، وقد تكون على العكس من ذلك باعثا على هذا التطور ، ومؤثرا فى الاسراع به ، وتنمية اسبابه ودواعيه — وان كان السبيل الى ذلك يقتضي التعرض لكثير من العثرات والانتكاسات ، وكل هذا متوقف فى الدرجة الاولى على حقيقة الاصول الايديولوجية التي تستند اليها الدعوة ، ومدى استجابتها لمقتضيات الواقع الفكري والاقتصادي والاجتماعي الذي تتغيا تطويره او تعديله ، وطبيعة الظروف التي تحيط بها ، والعوامل التي تؤثر فى سيرها بوجه او بآخر .

وما ذا يعني كل ذلك بالنسبة للحركة التوحيدية العربية ، والارتجاجات التي واجهتها هذه الحركة خلال الفترة الاخيرة والتي اصبحت فعلا من صميم التاريخ ؟ ان الدعوة التوحيدية العربية تقوم — من حيث المبدأ — على اساس ايديولوجية واسعة الجوانب متفتحة العناصر ، واقعية المقاصد والاهداف ، وهذه الايديولوجية تعتمد فى الدرجة الاولى على الجانب الترابطي — الطبيعي والتاريخي — الذي يصل بين الشعوب العربية الاسلامية ، وتستهدف استغلال هذا الجانب وتسخيره لتحقيق هدف اكبر ، وهو ذلك الذي يتمثل فى تاكيد المفهوم التاريخي والحضاري والفكري للامة العربية الاسلامية سواء باعتبار وجودها الذاتي الخاص او بالنظر لوضعها العام فى عالم اليوم . غير ان هذه الايديولوجية — وان كانت تصطبغ فى مظهرها بصبغة سياسية بارزة ، فانها لا تعبر فى الواقع عن مجرد اتجاه سياسي محدود الجوانب ، مثل ماهو عليه الامر بالنسبة لبعض المذاهب والاتجاهات من هذا القبيل ، ولو كانت الحركة التوحيدية العربية بهذه المثابة لكانت اهدافها تنحصر فى اطار من المثالية السياسية المجردة كالدعوة الى نوع من الوحدة فى الحياة السياسية للبلاد العربية ، سواء على الصعيد الداخلي او فى الميدان الخارجي ، وكالعمل على توحيد الاوضاع التمثيلية والتشريعية وغيرها ، وكالسعي ايضا الى تنسيق النظم العسكرية والستراتيجية وربط الاجهزة الديبلوماسية والدولية برباط مشترك يسوده التناسق والانسجام الى مدى بعيد ، ان معطيات من هذا النوع توجد بالفعل فى اساس الفكرة التوحيدية العربية ، كما توجد كقاعدة اساسية لكثير من صور التعاون والاتحاد بين بعض الدول او المجموعات الدولية الاجنبية ، غير ان هذه المعطيات — مع ذلك — لا تساهم فعلا الا فى تشكيل الاطار السياسي للفكرة التوحيدية العربية ، وهذا الاطار ليس من شانه ان يستوعب جميع الحقائق والقضايا التي تشكل المحتوى الكلي الشامل لمبدا الرابطة العربية ، وليس من شانه كذلك ان يمتد على جميع الابعاد التي تحدد المفهوم الجذري العميق لهذه الرابطة ، ومثال الجامعة العربية فى وضعها الحالي من الدلالات التي لها مغزاها البعيد فى هذا المقام .

واذا ما ركزنا النظر على اساس هذه الاعتبارات حول العالم العربي فى الظروف الراهنة ، فاننا نلاحظ بكل جلاء ان من اهم العوامل التي تساهم فى توجيه الاحداث بين ربوعه عامل الصراع الحاد المستمر الذي لم يفتا منذ سنوات يدور حول موضوع الوحدة والاتحاد بين الاقطار العربية ، مع ما يولده هذا الصراع من اختلافات بارزة فى وجهات النظر تباعد بين كثير من المواقف فى هذا المجال ، فهناك بالفعل مجال للملاحظة نوع من الاجتماع المبدئي يسود الكثير من الاوساط العربية حول الوحدة ، الا ان هذا الاجتماع يفقد فى الواقع — كل مميزاته وفعاليته عند ما يصبح الامر منوطا بتحديد مفاهيم هذه الوحدة ، وتعيين مدلولاتها الانسانية والاجتماعية والفلسفية وغيرها ، فمتطرفو اليسار العرب لا يمارون فى امر الوحدة مطلقا ، بل انهم كثيرا ما يتسابقون وراء الدعوة الى هذه الوحدة احيانا لاسباب تكتيكية ، والتحمس لها بشكل او بآخر، الا انهم — فى نهاية ذلك يبدون — كما هو طبيعي — اكثر تحفظا حول التفاصيل ، واشد جمودا امام بعض البوادر الوحدانية التي يمكن ان تتم ضمن اطار معين يستهدف التشديد على الخصائص العربية الاسلامية اكثر من سواها ، ويرمي الى التعاون العربي — الدولي ولكن خارج نطاق التكتلات الدولية المتناحرة ، وبمنأى عن ميادين الصراع الايديولوجي الاجنبي ، والتقليديون من جهتهم لا يبدون اقل حماسا — بشكل من الاشكال — للفكرة التوحيدية العربية وتسليما بضرورتها ومعقوليتها فى بعض الحدود المعينة ، لكن الصورة التي تترآى فيها هذه الفكرة من خلال مفاهيمهم ومعقولاتهم لا تنسجم دائما وبالضرورة مع الروح العامة التي يجب ان تصاغ فيها اية بادرة توحيدية قومية ، والجو الذي ينبغي ان تترعرع فى ظلاله هذه البادرة : جو التحرر والتقدم وعدم الانحياز .

وهناك الرومانسيون المثاليون الذين يتيهون في القالب عن مبدا الوحدة افكارا جميلة متناسقة ، واحيانا رائعة الى حد بعيد ، غير ان هذه الافكار ـ بالرغم عن وجاهتها وقوتها وعمقها احيانا ، فانها قد لا تعدو في المحط الاخير نطاقا نظريا متجردا يصعب تحديد جوانبه ومقتضياته فبالاحرى اعتماده كشيء له قيمته الحقيقية وفاعلياته المؤثرة في مجال التحقيق والتطبيق .

ان الفكرة الوحدوية على هذا الاساس فكرة مشتركة ومشاعة بين مجموع عناصر النخبة العربية مع الاغضاء بالطبع ـ عن المتأثرين بالنظريات الاقليمية والانطوائية الضيقة ـ وهذه الفكرة لها ـ بالفعل جذور عميقة في العقلية العربية الواعية بصورة عامة ، بل انه يوجد لها ـ فوق ذلك ـ قدر كبير من التأثير الجذري على وجدانات الجماهير والكتل الشعبية ، وتغلغل قوي في اعمق مواطن احساسها وتعقلها مع اختلاف درجات هذا التأثير وسطحيته في الاعم الغالب ، واذا كان المبدا التوحيدي على هذه الدرجة من الاهمية في مجال التفكير العربي الاسلامي الحديث ، واذا كان التسليم بهذا المبدا يعتبر ظاهرة فكرية عربية اسلامية ليس لنكرانها من سبيل ، فان الاساليب التي توصل الى تحقيقه ، والروح التي يجب ان تسيطر على اتجاهاته ومراميه ، والنتائج البعيدة التي يتبغى ان يفضي اليها كل ذلك لا يزال ـ على العكس ـ وبصورة مستمرة ـ العامل الاساسي فيما يلاحظ من مصاعب وتعقيدات عديدة تواجه الاتجاه العربي في هذا المضمار.

ومما لاشك فيه ان كثيرا من هذه المصاعب والتعقيدات ، يعود في منشئه واستمراره الى اصول مصطنعة ومتعمدة ، ، بل ويؤول احيانا الى عوامل موجهة لمعاكسة حتمية التاريخ ومنطقية الوقائع والاشياء ، لكن ايمكن ان تصل هذه العوامل المصطنعة الى مستوى التحدي للفكرة الوحدوية سواء من حيث المبدأ او النتيجة ؟ ليس في التجارب والظواهر الملحوظة عبر الاحداث والوقائع ما يبرهن على ذلك او يؤكده بصورة او اخرى ، لكن الذي يبدو ثابتا من جهة ثانية ان مظاهر التناقض احيانا في تصور المفهوم التوحيدي ومناهج تحقيقه وتركيزه وملابسات وجوده وتأكده هو ما يشكل ـ في بعض الحالات ـ وبصورة من الصور ـ مجموع هذه التحديات « الداخلية » التي لها في الواقع ـ كثير من قوة التأثير على اندفاعية التيار التوحيدي العربي ، وتحديد مدى انطلاقه وامتداده .

ان هذه التحديات ليست مناقضة ـ احيانا ـ لمبدا التفكير الوحدوي العربي ، والقيم والمثل الاساسية التي يستند اليها في الاساس ، لكنها ـ مع ذلك ـ تغدو تواجه القضية التوحيدية العربية بكثير من المشاكل والمعضلات التي يتخذ بعضها شكلا كثير الحدة والتعقيد الى مدى بعيد ، ويمكن للمراقب البسيط ان يلاحظ صورة عن هذه المشاكل والمعضلات في واقع الفكر العربي الحالي حيال قضية الوحدة على العموم ، وما يعكسه هذا الواقع من ظواهر خاصة تثير في الذهن عديدا من التساؤلات والاستفهامات المختلفة ، ذلك ان الفكرة الوحدوية وان كانت في اساسها ـ كما قدمنا ـ تشكل صورة مشتركة في افق التصور العربي ، الا ان وجهات النظر ، المنبثقة عنها يمكن ان تتسم ـ نوعا ما ـ ببعض التباين المحدود ـ في بعض الحالات ، وذلك بالنتيجة للاختلاف في درجة الادراك ومقاييس التقييم والاستنتاج ، ومن هنا كان ثمت مجال لتعدد الاراء حول درجات الوحدة ومراحل تطورها وطبيعة اهدافها ، وترابط حلقاتها ترابطا عقلانيا سواء في الحال او في المصير ، وضمن هذا الاعتبار ـ وبغض الطرف عن الاتجاهات ـ المصلحية التافهة ـ فاننا نلاحظ وجود كثير من ظواهر الاهتمام بالجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية لقضية الوحدة ، وتعدد البراهين على اولوية هذا الجانب او ذاك ، واحقية هذا الاسلوب او الآخر في مضمار العمل والتصميم والتطبيق ، ان موضوع الموازنة هذا بين عوامل الوحدة ومظاهرها الاقتصادية والسياسية لا يزال اساسا لكثير من المجاذبات الفكرية التي عرفتها بعض البلاد العربية خلال السنوات الاخيرة مع العلم بان طريقة النظر في هذا الموضوع تختلف شكلا وروحا ونتيجة بالنسبة لهذا البلد او الآخر ، وتكتسي لذلك احيانا طابع الرصانة والموضوعية والجدية ، وتصطبغ طورا آخر بصبغات ديماغوجية تهريجية ليس من الجائز ان تفضي الى نتائج صحيحة ذات محتوى ايجابي هادف ، وعلى كل فقد كان من المعقول عموما ان يكون للتطورات العالمية الحديثة سواء على الصعيد الاقتصادي (السوق المشتركة في الغرب ، ومنظمة التنسيق الاقتصادي لدول الشرق الشيوعي) او في الميدان السياسي (البرلمان الاوربي مثلا) ، كان من المعقول ان يكون لهذه التطورات تأثير هام على واقع التفكير الوحدوي العربي بكل ما يعكس ذلك من ازدياد الحنين الى مبدا الوحدة ، والحرص على البحث فيها وتقليب اوجه الراي في مدلولاتها ونتائجها ، وتعدد الافكار والنظريات حول هذا الموضوع .

واذا كانت الجوانب السياسية والاقتصادية ما تزال تحتل هكذا من ميادين الفكر الوحدوي العربي قسطا هاما وغير يسير ، فان ثمت ايضا جوانب اخرى لها اعتبارها الكبير ، ولها ايضا تأثيرها المهم في هذا المقام ، ومن بين هذه الجوانب ما يتصل بمشاكل التكتل الدولي في عالمنا المعاصر ، وعلاقة ذلك بالعروبة عموما ، وبالفكرة التوحيدية العربية على الاخص ، ان النزوع الى الترابط الدولي والاممي سواء على اساس قومي او مذهبي او مصلحي او غير ذلك ، هذا النزوع هو من ابرز الظواهر وابعدها اثرا في حياتنا العالمية الراهنة ، ويعتقد الكثيرون ان المآل الذي يحتمل جدا ان تنتهي اليه العلاقات الدولية هو الترابط والتلاحم في اي شكل من الاشكال ، وتتوالي الوقائع والتطورات في الفترة التي نعيشها لتؤكد هي الاعتقاد ، وتركز احتمالاته وامكانياته ، الا ان هناك ملاحظة اساسية في هذا المجال ، وهي انه بقدر ما يشتد النزوع الى الترابط والانسجام بين الوحدات الدولية المتمايزة بقدر ما تبدو المشكلات القانونية والنفسية الناشئة عن ذلك كثيرة الحدة والتعقيد ، خاصة وان عوامل الوحدة بالنسبة لبعض التكتلات الدولية القائمة هي عوامل مصطنعة ومبتسرة ، وبالتالي فهي دائما عرضة للتارجح والتعقيد ، وفي العالم العربي يتركز اهتمام البعض حول بعض المشاكل المماثلة التي يمكن ان تعترض موضوع الوحدة المفترضة ، وهم يتحدثون كثيرا في هذا الصدد حول علمانية الوحدة العربية وتجردها مع العلم بان هذا الموضوع لا يشكل في الواقع اية عقبة رئيسية ، وليس لطرحه على محك النظر اي مبرر معقول ، ما دام ان الاسلام لم يعرف في جوهره اي مظهر للتعصب او الاضطهاد العنصري او العقائدي وما دام ان صلة الاسلام بالعرب كصلته بغيرهم من الاجناس الاخرى التي تحتضنه لا يمكن ان تشكل اي عامل تقهقري حقيقي ، بل ان الاسلامية بالعكس هي اساس صحيح لامكانية تحقيق كل تقدم خير وبناء في مختلف المجالات والميادين ، هذا واذا ما ركزنا النظر حول نقط اخرى من مواضيع الحوار العربي الطويل حول الوحدة امكننا ان ندرك قيمة العامل الانساني والاجتماعي في مفهوم هذه الوحدة ، ومدى اهمية الارتباط القائم — في هذا النطاق — بين صيرورة الانسان العربي من جهة ، وبين مضمون المثالية التي ينطوي عليها المبدا من جهة اخرى ، ثم بين واقع النتائج المتوخاة من جهة ثالثة ، لقد كانت الفكرة الوحدوية في بدايتها وتدرجها — غداة قيام الحركة التحررية العربية في العهد العثماني — كانت هذه الفكرة — في خطوطها العامة فكرة قومية من حيث المبدا ، ومن حيث الحوافز النفسانية المحركة ، ومع اعتبار المدلول السياسي الصرف لكلمة « قومية » ، لكن التطورات العالمية من جهة ، وانعكاساتها على واقع الفكر العربي الحديث المطعم بعناصر الثورة الاصلاحية الاسلامية من جانب آخر ، كل ذلك كان من شانه ان يوسع من مفهوم المبدا الوحدوي العربي ويمنح مضمونا اكثر شمولا واستيعابا ، واعظم قدرة على الاستجابة لحقائق الواقع الجديد وحتمية الوجود والتطور ، وبذلك فانه سيكون في امكاننا — على هذا الاساس — ان نلحظ بان محتويات الايديولوجية الوحدوية الحديثة لابد ان يكون لها — الى جانب العنصر القومي — السياسي — عناصر اخرى ذات طابع انساني اجتماعي مثل ما هو عليه الامر بالنسبة لكافة الايديولوجيات الاخرى ذات الاهداف الكلية الشمولية ، فالغاية دائما وفي جميع الحالات هي تطوير الارض العربية والانسان العربي والاستفادة من جميع الامكانيات العربية من اجل الوصول الى هذه المقاصد بالذات ، والوحدة — في جوهرها — يجب ان تقوم كوسيلة واداة لتحقيق فرص النجاح المتوخاة في هذا المضمار ، ولتاكيد المدلول الانساني الخير الذي تعبر عنه هذه الوحدة وتعكسه في جوهرها الاصلي ، وهذه هي بعض العناصر الرئيسية التي تشكل حقيقة المضمون الاجتماعي للفكرة الوحدوية كما تعاش كتجربة فكرية في الوقت الحاضر ، ومن الطبيعي ان تتباين بعض الاتجاهات النظرية حول هذا الموضوع — مع الاغضاء عن الاتجاهات المصلحية الرخيصة — وذلك بالنظر لصبغته الراديكالية الصميمة وامتداده على ابعاد حساسة تلزم المجتمع العربي المعاصر وتحدد له كثيرا من خطوط مستقبله ، ولا مناص لكل ذلك من ان تتعدد النظريات المعقولة في هذا المجال وتتارجح بين هذا الاتجاه او ذاك قبل ان يصبح ممكنا توافر العناصر الضرورية لبناء نوع ما من الوحدة الاصلية الحاسمة .

ان الفترة المرحلية التي تجتازها الفكرة التوحيدية العربية اذن ليست مطلق فترة سلبية تافهة — كما يتراءى لكثير من المراقبين الاجانب الذين يعنون بتتبع الماجريات العربية ، وينطلقون من ذلك الى تكوين استنتاجات منحرفة احيانا وغريبة احيانا اخرى ، فالفكرة التوحيدية العربية — باعتبار الواقع الفعلي الذي تعيشه الآن — هي في دور التطور التجريبي

العملي ، وذلك بعد ان جازت مراحل عدة في مضمار التطور الفكري الممتزج احيانا والمستند الى معطيات العقل الرصين احيانا اخرى ، ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات ان تعتورها عوامل التارجح والتقلب ، ويعترضها من العقبات مثل ما يعترض كل تجربة فكرية او مثالية مبدئية تدخل الى طور الاختبار والامتحان ، ولو أن لها جذور بعيدة في مكامن التاريخ الثابت او استمداد من معطيات الواقع المادي والانساني الماثل .

ان المعاني التي تعكسها الازمة التوحيدية العربية ــ على هذا الاساس ــ لا يجب بالضرورة ان تكون مرادفة لمدلول التدهور والاعتلال ــ كما يتراى ذلك من مفهوم « الازمة » في بعض الحالات ، انها ــ كما اسلفنا ــ ازمة تطور ، والتطور ، وان كان يتخذ في بعض الوقت ــ شكلا متارجحا بين التقدم والتقهقر ، والصعود والانحدار ، فانه ــ مع ذلك ــ يعتبر في كثير من الحالات مظهرا للنزوع الى التغيير الايجابي الخلاق ، وخاصة اذا كانت القاعدة التي يقوم عليها قاعدة ايجابية خلاقة كما هو الشأن بالنسبة لامكانياتنا العربية والاسلامية سواء في الميدان المادي او الروحي ، على انه مهما يكن من امر ، فان هناك اساسا لضرورة التوفيق بين اهدافنا في الوحدة ، وبين وجودنا كمجرد وحدة جغرافية من وحدات هذا العالم الاسلامي الكبير ، الذي تتوافر لسكانه جميعا امكانيات مبدئية للعمل والخلق والنشاط ، فوحدتنا لابد ان تكون وحدة متفتحة متجاوبة ، وتفتحها هذا هو الذي سيتيح لها اكبر الفرص لكي تكون عاملا هاما في تحقيق عناصر التطور الانساني العام ، وذلك هو الجانب الاكثر ايجابية في كل بادرة توحيدية بناءة من هذا القبيل .

سلا : المهدي البرجالي





مـــــن الضروري ان يرتبط كل مسلم فى صلاته وفى حجه بمكة المكرمة ، هذا الارتباط اصبح من مقومات الشخصية الاسلامية وتركز فى قلوب الذين آمنوا حتى اصبحوا ياتون الى الكعبة راكبين ورجالا من كل فج عميق .

ولم تكن المواصلات سهلة ، ومع ذلك كان يطوف بالكعبة فى كل سنة عدد كبير من المسلمين ، ياتون من اطراف الارض ويجتمعون فى ذلك البلد الامين الـذي اشع منه نور الاسلام على الكون، فاصبح مربط قلوبهم، وموئل خائفهم ، وملتجا مذنبهم .

ومن بين هؤلاء جماعة كانت تخلد رحلاتهـــا وتسجلها لمن بعدها فقد رحل من المغرب والاندلس الى مكة عدد من العلماء كان لهم شان كبير كابن جبيـــر الاندلسي ، والعبدري الحاحي (*) ، وابن بطوطة . الا ان هذا الاخير استهواه السفر وحببت اليه المغامرات واراد ان يطلع على العالم من ادناه الى اقصاه ، وان يقارن بين حياة الدول المختلفة ، وان يجمع بين فريضة الحج والاستمتاع بلذة الاستطلاع ، فلم يرجع الى بلده الا بعد سنوات طوال قضاها فى متعة الاكتشاف رغم ما كان يلاقي فيها من عذاب ومحن .

ورغم رجوعه الى المغرب فقد رحل مرة اخرى الى الاندلس ، ثم الى السودان ومجاهل افريقيـــا ، وجمعت هاته الرحلات الثلاث فى كتاب سمي بتحفة النظـار فى غـرائب الامصـار وعجـائب الاسفـار .

واهم رحلات ابن بطوطة واطولها هي الرحلـــة الاولى التي استمرت من يوم الخميس ثاني رجب سنة 725 هـ الى يوم الجمعة من اواخر شعبان سنة 750 هـ .

خمس وعشرون سنة قضاها فى رحلته الاولـى بين ربوع العالم ، فشاهد فيها الجزائر ، وتونـــس ، وطرابلس ، ومصر ، وسوريا ، ولبنان ، والعـراق ، وفلسطين ، والحجاز ، وتركيا وما جاورها من البلدان، والهند ، والصين ، وجزر اندونيسا كجاوة وسومطرة

خرج فريدا ولكنه لم يغادر مسقط راسه طنجة حتى استطاع ان يربط العلاقات بينه وبين الناس نظرا لقوة شخصيته ، وحدة ذكائه ، وسعة ثقافتـــه الاسلامية ، وسماحة اخلاقه ، فاصبح بينهم مرموقـا يقدمونه فى صلواتهم ويحكمونه فى قضاياهم .

لم تكن سنه عند مغادرة طنجة تتجاوز الثانيـة والعشرين فهو فى مقتبل العمر وفى عنفوان الشباب ، ولكنه لم يركن الى اللهو والعبث ، ولم يستاثر الدعة والخمول ، بل هاجه الشوق الى السفر لتحقيق رغبة فى نفسه تدعوه لمشاهدة الاراضي المقدسة ، قــال : (فجزمت امري على هجر الاحباب من الاناث والذكور وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور ، وكان والدي بقيد الحياة ، فتحملت لبعدهما وصبا ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا)

وكانت مغادرته لطنجة فى ايام ابي سعيد عثمان ابـن يعقـوب بن عبد الحق المريني الذي تولى الملـك سنة 710 هـ وتوفى سنة 731 هـ .

* نسبة الى حاحة القبيلة المصمودية الشهيـرة ، اقرا عنه بحث الاستاذ عبد القادر زمامة بالعددين 2ـ4 من مجلة دعوة الحق السنة 5 وهاته النسبة قياسية الا ان الاستاذ عميد الجامعة محمد الفاسي يقول عنه : العبدري الحيحي لانه ذكر ان النسبة الى حاحة حيحي على غير قياس كما يتلفظ بها اهل البلاد انظر بحثه عن الرحالة المغاربة وآثارهم فى مجلة دعوة الحق أيضا العدد 3 من السنة الثانية .

كان هذا الرحالة معجبا ببني مرين نظرا لمواقفهم الحاسمة في تاريخ المغرب ، فهم سعوا في توحيده وازالة الفرقة بين حدوده ، واعانوا سكان الاندلس على مقاومة الاسبانيين ، ولذلك كان لا يفتر عن ذكر محاسنهم ، ولا يغفل عن نشر محامدهم .

ولما رجع الى المغرب وجد على سرير الملك ابا عنان المريني الذي عمل على لم شتات المغرب العربي ونشر الثقافة العربية بين اجزاء البلاد ، وكان من بين وزرائه ابو زيان بن ودرار الذي استأنس بابن بطوطة وولع باخباره ، ودافع عنه في كثير من المجالس حينما شاع الخبر بانه يكذب في روايته ويبالغ في احاديثه ويتقول ما لا وجود له ، فقد ذكر ابن خلدون انه كان يشك في اخبار ابن بطوطة نظرا لتواتر الالسنة بتكذيبه، ولكنه قال ان ابن ودرار حذرني من الانسياق الى اقوال الناس لما في ذلك من التحكم ، ونهاني ان استنكر شيئا من اخبار الامم ما دمت لم ار بعيني ما يخالفه .

ولما اصبح ابن بطوطة يذيع مشاهداته وينشرها بين الخاصة والعامة ، امر ابو عنان كاتبه ابا عبد الله محمدا بن جزي بان يضم اطراف ما يمليه هذا الرحالة في كتاب يكون جامعا لفوائده مكملا لمقاصده مع العمل على تنقيح الكلام وتهذيب معانيه .

قال ابن جزي : (ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله (*) بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها ، وربما اوردت لفظة على وضعه فلم اخل باصله ولا فرعه ، واوردت جميع ما اورده من الحكايات والاخبار ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على انه سلك في اسناد صحاحها اقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك ، وقيدت المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون انفع في التصحيح والضبط ، وشرحت ما امكنني شرحه من الاسماء العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء في فك معماها معهود القياس) .

وكانت هاته المقدمة بمثابة تصميم خاص تقيد ابن جزي به في كتابة الرحلة والتزم بالسير على خطته في حبكها الا انا يحق لنا ان نتساءل عن الاسباب التي دعت ابا عنان المريني ليصدر امره بكتابة الرحلة الى كاتبه . اليس لابن بطوطة القدرة على كتابة رحلته بنفسه ؟

الظاهر ان سبب ذلك يرجع الى امرين : اما اولهما فسياسي ، واما الثاني فادبي، ونحن سنخصص حديثنا في هذا البحث عن الجانب السياسي فقط ؛ واما الجانب الادبي فسنخصص له بحثا آخر .

الجانب السياسي يرتبط بالغاية التي كان يتوخاها ابو عنان من نشر الرحلة ، فانه كان يريد ان يستغلها للدعاية له ولاعماله ، وان يجعلها وسيلة للمس باعدائه والكشف عن مساوئهم ، بحيث لا يقتصر ابن بطوطة عن نشر الاخبار مجردة بل يضيف اليها في كل مناسبة ما يرفع به شان بني مرين على العموم .

واذا كان ابن بطوطة قد يتوقف في هذا العمل بالنسبة الى مرئياته العامة فهو ليس له المام بكثير من الحوادث السياسية التي وقعت بالمغرب ايام غيبته الطويلة ، لذلك كان من الضروري ان يضاف اليه شخص آخر تكون له دراية بالوقائع الحديثة ومعرفة باحوال الدولة القائمة ، وعلم بالسير العام الذي تسير عليه سياسة الدولة في الداخل والخارج ، ولم يجد ابو عنان من كتابه من تجتمع فيه هذه الصفات مثل ابي عبد الله ابن جزي ، لذلك امره يجمع ما يمليه ابن بطوطة في كتاب يكون جامعا لفوائده مكملا لمقاصده .

ولقد عمل هذا الكاتب على تحقيق الغاية من اختياره ، فكان لا يتوانى عن ذكر محاسن ابي عنان وغيره من ملوك بني مرين ، ولا يقصر في الحديث عنهم مهما امكنه ذلك .

لما ذكر ابن بطوطة في رحلته الخصال الكريمة التي يتصف بها ملك العراق ابو سعيد بهادرخان ، قال ابن جزي : (كرم الله هذه الكنية الشريفة فما اعجب امرها في الكرم ، وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع راية الجود الذي هو آية في الندى والفضل امير المسلمين ابي سعيد بن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار امير المسلمين ابي يوسف قدس الله ارواحهم الكريمة، وابقى الملك في عقبهم الطاهر الى يوم الدين (*) .

(*) ابو عبد الله كنية لمحمد بن بطوطة وكان يلقب في الشرق بشمس الدين وفي الهند ببدر الدين .

(*) رحلة ابن بطوطة الطبعة الثانية الجزء الثاني صفحة 107 .

ولما تعرض ابن بطوطة لذكر مآثر ابي الحسن في جبل الفتح ، تعرض ابن جـزي لمواقفه الحربية ولاستيلائه عليه من يد الاسبان فقال : (ثم فتحه مولانا ابو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من ايـدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا ، وبعث الى حصاره ولده الامير الجليل ابا مالك ، وايده بالاموال الطائلة والعساكر الجرارة ، وكان فتحه بعد حصار ستة اشهر وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ولم يكن حينئذ على ما هو الان عليه ، فبنى به مولانا ابو الحسن رحمة الله عليه المآثر العظمى باعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم باحجار المجانيق ، فبناها مكانه ، وبنى به دار الصناعة ولم يكن بـه دار صنعة ، وبنى به السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء (*) .

ولما تحدث ابن بطوطة عن فضل ابي عنان وشيمه الكريمة قال ابن جزي: (لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادي ، ومولانا ايده الله كان قتل الاسد عليه اهون من قتل الشاة على الاسد فانه لما خرج الاسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال ، وفرت امامه الفرسان والرجال ، برز اليه مولانا ايده الله غير محتفل به ولا متهيب منه ، فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعا) (*) .

ثم قال : (.. لو ان عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا لم يصل الى ادنى مراتب مولانا ايده الله في العلوم مع اشتغاله بامور الامة ، وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره احد من الملوك ، ونظره بنفسه في شكاية المظلومين ، ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسالة علم في اي علم كان الا جلا مشكلها ، وباحث في دقائقها واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من معلقاتها) .

وفي هذا التقريظ من المبالغة ما لا يخفى .

وليس اظهار موقف ابن جزي من بني مرين في الرحلة معناه سلبية موقف ابن بطوطة ، فان هذا الاخير ايضا استطاع ان يقوم بواجبه نحوهم وان يصور اعداءهم تصويرا مشوها ، فقد ذكر بعد خروجه
الموحدين وولاتهم) .

من المغرب ومروره بالجزائر ان احد المسافرين قد توفي وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، واوصى بها رجلا ليوصلها الى ورثته بتونس ، ولكن والي بجاية علم بذلك فانتزعها من الوصي واستبد بها دون اربابها ، قال ابن بطوطة (وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم

ان التحدث عن ظلم الموحدين انما هو اشارة الى مشروعية الاعمال التي قام بها بنو مرين ضد الدولة الحفصية بتونس ، فلقد توجه ابو الحسن المريني الى تونس وازال الحفصيين من الحكم واستقر بها ، الا انه وجد معارضة كبيرة من بعض العرب فقاوموه مقاومة شديدة ادت الى حصاره بالقيروان في سنة 749 هـ ، ولقد اتفق هؤلاء العرب على تولية احد الموحدين عليهم، واستطاعوا ان يستميلوا اليهم رجلا كان في جانب ابي الحسن هو ابو عبد الله محمد بن تافرجين ففر معهم واستغل معارضتهم لمصلحته ، ولكنه ما لبث ان فر الى الاسكندرية حينما اضطرب امر اصحابه .

ولما وصل ابن بطوطة الى تونس ذكر انه اتصل بالملك ابي الحسن المريني وكان من الاسئلة التي وجهها اليه الامير سؤاله عن ابن تيفراجين ، قال ابن بطوطة : (فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا ابي الحسن رضي الله عنه ، وامرني بالقعود فقعدت ، وسالني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فاجبته ، وسالني عن ابن تيفراجين فاخبرته بما فعلت المغاربة معه وارادتهم قتله بالاسكندرية ، وما لقي من اذاتهم انتصارا منهم لمولانا ابي الحسن رضي الله عنه) .

ان ابن بطوطة هنا ايضا يظهر تعلق المغاربة بملكهم ابي الحسن رغم وجودهم في خارج المملكة لانهم حاولوا قتل رجل علموا بخيانته للملك .

ولاشك ان تعرض ابن بطوطة لابن تيفراجين وتحدثه عن كراهية المغاربة له يرجع الى الدور الخطير الذي لعبه هذا الرجل في تاريخ بني حفص، والتخوفات العظيمة التي كانت تنتاب ملوك بني مرين منه ، لانهم كانوا يعرفون قوة دهائه وكثرة حيله فهو الذي كان قد اثار حربا داخلية في تونس واستطاع الفرار بعد اذكائها الى المغرب الاقصى ، وهو الذي استطاع في ايام لجوئه بالمغرب ان يزين لابي الحسن غزو تونس والقضاء على بني حفص ، مؤملا من ذلك ان يفوض اليه الملك المريني امر تونس بعد انتصاره ، فلما لم يبلغ هدفه قلب ظهر المجن ، وازور عن ابي الحسن واتصل باعدائه

* نفس الرحلة والجزء صفحة 184 .
* نفس الرحلة والجزء صفحة 180 .

وتزعم الثورة ضده ، حتى اذا خشي القتل فر الى الاسكندرية وطاف بالشرق ينشر الدعاية لنفسه وينتظر الفرصة للانقضاض على ابي الحسن مرة اخرى، ولذلك اهتم هذا الاخير بفراره ، وعمل الوسائل على معرفة اخباره فلم يتصل بابن بطوطة حتى ساله عنه ، ولكنه طمأنه على الاقل بموقف المغاربة منه .

والحقيقة ان تخوفات ابي الحسن كانت صائبة فلم يلبث ابن تيفراجين ان رجع الى تونس في ثامن عشر جمادى الاولى من سنة 751 هـ ، وقام بانقلاب خطير في الدولة الحفصية حيث ولى على الملك ابا اسحق ابراهيم ابن المولى ابي بكر وهو يومئذ قد ناهز الحلم (*) ، وتحقق لابن تيفراجين ما اراد واصبح شأنه في تونس كشأن المنصور بن ابي عامر بالاندلس عند نهاية الامويين بها ، فقام بتدبير امور الدولة وكان له في ذلك شأن عظيم ، ولذلك يقول لسان الدين بن الخطيب عند تحدثه عن ابي الحسن المريني ونهايته بتونس وارجاع الدولة الحفصية بها : (ثم ضم نشرهم بعد نكبته وخروجه عن وطنهم بابراهيم بن ابي بكر عضد امره وجبر دعوتهم به شيخ جماعتهم وفخر اوليائهم المجتمع على اصالة دهائه وصحة تمييزه واعتدال سيرته ابو محمد بن تيفراجين) (*) .

هذا ولم يغفل ابن بطوطة حين توجه الى الاندلس الاسباب التي دعته الى ذلك قال : (فاردت ان يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة في شطي لاهل اصيلا فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى، حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن ، وكان ذلك اثر موت طاغية الروم الفونسو وحصاره الجبل عشرة اشهر وظنه انه يستولي على ما بقي من بلاد الاندلس للمسلمين فاخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذي كان اشد الناس خوفا منه) (*) .

ان تحدثه عن حصار الاسبانيين لجبل الفتح مدة عشرة اشهر دون ان يستطيعوا التغلب عليه ليدل على ما كان لابي عنان من العناية بحماية الدولة من الاعداء ومقاومة كل من يحاول الاستيلاء على بعض مراكزها والاستماتة في ذلك ، ولقد ذكر ابن جزي في هذه المناسبة بان ابا عنان كان يهيىء العدة في ايام السلم حتى لا يخول لمن تسول له نفسه الحرب ان ينتصر قال : (ومما شاع من افعال مولانا ايده الله في الجهاد انشاؤه الاجفان بجميع السواحل ، واستكثاره من عدد البحر وهذا في زمن الصلح والمهادنة ، اعدادا لايام الفراغ ، واخذا بالحزم في قطع اطماع الكفار ، وأكد ذلك بتوجهه ايده الله بنفسه الى جبال جاناتة في العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ، ويظهر قدر ماله في ذلك من الاعتناء ، ويتولى بذاته اعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء) (*) .

ومن اهم ما اهتم به ابن بطوطة في رحلته اظهار عناية بني مرين بالعلم واهتمامهم بشؤون الثقافة والعمران لانه يعلم ان هذا الجانب له اثر عظيم في الرفع من قيمتهم وتخليد مجدهم فلقد تحدث عن ابي عنان فقال : (واما اشتغاله بالعلم فها هو ايده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك اعلام الفقهاء ، ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرا بين يديه تفسير القرآن وحديث المصطفى (ص) وفروع مذهب مالك رضي الله عنه ، وكتب المتصوفة وفي كل علم منها له القدح المعلى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه، ويلقي نكته الرائقة من حفظه، وهذا شأن الائمة المهتدين ، والخلفاء الراشدين ، ولم ار من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية) (*) .

ثم تحدث عن ابي الحسن بتونس فذكر انه كان بمجلسه عدد من العلماء وذكر منهم عالمين مغربيين وهما الامام ابو عبد الله السطي ، والامام ابو عبد الله محمد بن الصباغ ، وعالمين تونسيين وهما قاضيها ابو علي عمر بن عبد الرفيع ، وابو عبد الله بن هرون (*) .

ان وجود العلماء بمجلس الملك دليل على اهتمامه بهم واسترشاده بآرائهم ، ولقد سجل التاريخ بان ابا الحسن كان يشجع العلم حقيقة ، وكان لا يسافر الا والعلماء بجانبه ولقد ذكر الاستاذ عثمان الكعاك عند

---

* الادلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية للشيخ احمد الشماع ، الفه في اواخر 861 هـ وعلق عليه الاستاذ عثمان الكعاك ، طبع بتونس سنة 1936م صفحة 129 .
* اللمحة البدرية في الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب طبعه سنة 1347 هـ صفحة 95 .
* رحلة ابن بطوطة الجزء الثاني صفحة 183 نفس الطبعة .
* نفس المصدر صفحة 183 .
* نفس المصدر صفحة 181 .
* نفس المصدر صفحة 178 .

التحدث عن ابي الحسن فى تونس قوله : (ومن غريب ما اتفق للسلطان ابي الحسن انه اصطحب الى افريقية اكابر العلماء مثل ما فعل نابليون فى زحفه على مصر) .

وعليه فان ملاحظة ابن بطوطة فى وصف مجلس ابي الحسن بانه كان به جماعة من العلماء تصور اهتمام هذا الملك بهم سواء كانوا ممن استصحبهم معه من المغرب او من العلماء التونسيين الاصليين .

ولم يقتصر ابن بطوطة على ذكر الاهتمام العلمي بل تحدث عن العمران العام الذي خلفه المرينيون فوصف آثار ابي الحسن بجبل طارق ، وتحدث عن المدرسة التي بناها ابو عنان بحضرة فاس فقال : (ومدارس خراسان والعراق ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا امير المومنين المتوكل على الله ، المجاهد فى سبيل الله ، عالم الملوك ، واسطة عقد الخلفاء العادلين ابو عنان وصل الله سعده ، ونصر جنده ، وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ، ونقش الجص بها لا قدرة لاهل المشرق عليه) (*) .

وكاني بالقارىء بعد هذا العرض العام قد عرف آثار بني مرين فى الحضارة المغربية واطلع على بعض جوانبها من خلال رحلة ابن بطوطة الا انه يمكن له ان يستفهم عن وجود ملكين فى آن واحد ولدولة واحدة احدهما بتونس ، والآخر بالمغرب ، يمدح كلاهما وتذكر مآثرهما بكل اجلال حتى لا يشعر القارىء باي خلاف كان موجودا بينهما فهذا ابو الحسن بتونس ، وهذا ولده ابو عنان بالمغرب الاقصى وكلاهما اثنى عليه ابن بطوطة وابن جزي معا ، فهل من المعقول ذلك ؟ الواقع التاريخي يثبت الخلاف لان ابا الحسن بعد استقراره بتونس وقعت بينه وبين الحفصيين حروب كاد يغلب فى بعضها ، فقتل من جنوده عدد كبير حتى شاع الخبر بهزيمته ، ونقلت جماعة من بني مرين وبني عبد الواد الى ابي عنان بان اباه كان احد ضحايا الهزيمة فلم يسعه الا ان يضم شان البلاد ، وان يعلن البيعة لنفسه ولكن لم تمر ايام حتى ظهرت له الحقيقة وعلم ان اباه ما زال بقيد الحياة .

هذه مشكلة عظمى حدثت لابي عنان فهل من المصلحة ان يتنازل عن الملك لابيه ؟ ام يجب عليه ان يستمر فى ولايته ويلزم اباه بالتخلي عن العرش ؟ ان الشعب اصبح مرتبطا به ، وانه يخشى على شؤون الدولة اذا ما تنازل عن الحكم ، لان اباه فقد تلك الهيبة التي كان يتمتع بها ، واخيرا راى من المصلحة استبقاء الحكم رغم ما سيحدث عن ذلك من الاحداث ، وارسل الجنود لحماية الحدود وللقضاء على زحف ابيه لكن شاء القدر ان يعبر ابو الحسن البحر وان يصاب بالزوابع ، وان يصل مع فئة قليلة من جنده الى المغرب وان يحارب ابنه ، وشاء القدر ان تكون النتيجة عليه فيقتل باحواز مراكش ، بل يذكر بعض المورخين بانه انتحر حزنا ، وانه قبل الانتحار ارسل رسالة الى ابنه يطلب منه ان ينتقم له من بني عبد الواد بتلمسان، ويذكر السماع كيفية الانتحار فيقول : (فقصد نفسه فى الذراعين ، وترك دمه يسيل حتى مات فى عشر صفر عام اثنين وخمسين وسبعمائة) .

وبعد موته تولى ابنه دفنه واقام له الجنازة ، ولم يترك الالسنة تتحدث عن مقتل ابيه لانه كان لا يطمئن الى ذلك ولم يكن له بد من العمل على نشر بعض الاسباب التي دعته الى مقاومة ابيه وتبيان ذلك ، خصوصا فى اراضي السودان التي كانت مرتبطة بابي الحسن ارتباطا متينا ، فلقد كانت السفارات متبادلة بين مالي والمغرب ، وكان السفير المالي فى المغرب على عهد ابي الحسن هو الحاج موسى الونجراتي، ولما خشي ابو عنان من افساد العلاقة بينه وبين السودان ارسل ابن بطوطة ليقوم بذلك وليظهر فضل ابي عنان والترحم على ابي الحسن رغم ان نهايته كانت على يده ، وحضر ابن بطوطة فى مالي حفلة اقيمت لتابين الملك الراحل حضرها سلطان مالي والامراء والفقهاء والقاضي والخطيب ، ثم ذهب بعد ذلك الى تكدا ليقوم بنفس العمل ولكنه جاءته الاوامر السلطانية بالرجوع الى فاس فلبى الطلب بسرعة قال : (فلما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي **بامر مولانا امير المومنين** وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا لي بالوصول الى حضرته العلية وامتثلته على الفور ... وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر شعبان سنة 754 هـ فى رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء) وان المطلع على هذا النص سيقرر معي ان الرحلة السودانية لم يقم بها ابن بطوطة الا بامر من ابي عنان ، وانها كانت مقصودة للدعاية له لان الامر بالاياب يستلزم الامر بالذهاب .

ولما رجع ابن بطوطة الى فاس ارتبط بالخدمة مع الدولة المرينية واستمر فى ذلك الى ان توفى سنة 779هـ موافق 1377 م .

فاس : محمد عبد العزيز الدباغ

* نفس الرحلة ــ الجزء الاول ــ ص 252

تجديد الشابي بين روافد الشرق والغرب

للاستاذ عباس الجراري

- 2 -

ثـم نصل الى المضمون فنلاحـظ ظهور نزعـة انسـانية تسمو به عن اغراض الحس ونزوات النفس ، وتتجلى فى كثير من موضوعات الشعر المشتركـة بين الشابي واساتذته المهجريين ، لا شك انه تأثرهم فيها ، وان كانت له دوافعه المباشرة الى طرقها ، ويتلخـص هذا التشابـه فى ثلاثة مظاهر :

اولها تقديس المـرأة التي لم تعد جسدا يكشف فيه الشاعر عن مواطن الحس والغريزة ، وانما اصبحت سر الوجود وسحره وباعثـة الحياة فيه ، وفى محراب جمالها يقف المصلون نشوى من عبادتهم ، وقلوبهـم ترتل فى صمت اناشيد التقديس العذاب ، يقول الشابي :

انت ما انت ؟ انت رسم جميـل
عبقري من فـن هـذا الوجـود

فيك ما فيه مـن غموض وعمـق
وجـمـال مـقـدس معبـود

❊ ❊ ❊

انت انت الحياة فى قدسها الـ
ـسامي وفى سحرها الشجي الفريد

❊ ❊ ❊

انت فوق الخيال والشعر والفن
وفـوق النهـى وفـوق الحدود

انت قدسي ومعبدي وصباحي
وربيعي ونشوتي وخلودي (❊)

وفى تقديس المراة تقديس الحب ، واعتباره طاهرا فى غايته ومفهومه ، والترفع عن ادران الجسـد واهواء الحس ، والسمو به الى عوالم روحية رفيعة بعيدة عن دنس الذات وانحرافها ، فالحب هو ذلك النبـراس الوضاء الذي يشع النور على الكون فيمـلأه بشـرا وسعادة وسلاما وجمالا ، وهو مادة الحياة التي لا توجد الا بها ، وعنصر الانسانية التي لا وصول لحقائقهـا بغيره ، بل هو روح الهـي يهبط الى الارض فيبث فى قلب ابنائها المحبة والسكينة والوئـام ، ولنستمع الـى الشابي وهو يتحدث بهذه الصفات وغيرهـا عن الحب فيقـول :

الحب شعلة نـور ساحـر هبطت
من السماء فكانت ساطع الفلـق

❊ ❊ ❊

الحـب روح الـهـي مجنحـــة
ايامـه بضيـاء الفجـر والشفـق

يطوف فى هـذه الدنيـا فيجعلها
نجما جميـلا ضحوكـا جد مؤتلـق

لولاه ما سمعت فى الكـون اغنيـة
ولا تآلـف فى الـدنيـا بنـوافـق

❊ « صلوات فى هيكل الحب » ديوان ص 121 .

الحب جدول خمر من تذوقه
خاض الجحيم ولم يشفق من الحرق

الحب غاية آمال الحياة فما
خوفي اذاضمني قبري وما فرقي؟(*)

ولنستمع الى ايليا ابي ماضي في هذه الابيات التي يبدو فيها التشابه واضحا مع مقطوعة الشابي ، يقول :

احب فيغدو الكوخ كوخا نيرا
وابغض فيمسي الكون سجنا مظلما

ما الكاس لولا الخمر غير زجاجة
والمرء لولا الحب الا اعظما (*)

واغلب ما يدور عليه شعر الحب هو الشوق الى خليلة الطفولة والصبا والحنين الى ايامها الحلوة الجميلة ، وما تحمله من ذكريات عذبة طاهرة ، والشابي في قصيدته (الجنة الضائعة (*)) يبدو قد استبد به الشوق الى عهود قضاها مع رفيقته يوم كانا طفلين يلهوان بحبهما الصغير ، فيقول :

كم من عهود عذبة في عدوة الوادي النضير
فضية الاسحار مذهبة الاصائل والبكور
كانت ارق من الزهور ومن اغاريد الطيور
والذ من سحر الصبا في بسمةالطفل الغرير

* * *

قضيتها ومعي الحبيبة لا رقيب ولا نذير
الا الطفولة حولنا تلهو مع الحب الصغير

ثم يأخذ في سرد ذكرياته متلهفا فيقول :

ايام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النحل الانيق تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء اكواخ الطفولة تحت اعشاش الطيور
مسقوفة بالورد والاعشاب والورق النضير

---

* ديوان ص 45 .
* الخمائل ص 24 .
* الديوان ص 147 .

نبني فتهدمها الرياح فلا نضج ولا نثور
ونعود نضحك للمروج وللزنابق والغدير

وهكذا يستمر في ذكرها واحدة تلو الاخرى ، وقد مسك بعضها برقاب بعض وكأنها اللحن الواحد لا تنفصل نغماته الساذجة الجميلة ، ولو عدنا الى المهجر لالفينا عند شعرائه اصل هذا الوتر الذي عزف الشابي لحنه عليه ، فهذا رشيد ايوب يقول :

لقيتك لما نصبنا الخيام
الا تذكرين زمان اللقاء

فاسكرت قلبي بخمر الغرام
وخلفت نفسي بوادي الشقاء

ثم غبت

الا تذكرين بشط الغدير
على حفرة قد جلسنا هناك

ولما انحنينا لصوت الخرير
لمحتك في الماء مثل الملاك

حين لحت

ولما مشينا لنجني الورود
بظل فراشاتها الحوم

نسيت فودعت هذا الوجود
وقلت لاغصانها خيمي

ثم نمت

والشابي في هذه النظرة للمراة لم يكن مقلدا او لاقطا لصور حياة لم يعرفها ، وانما كان في تأثره بشعراء المهجر يغذي حبا عذريا ربطه منذ طفولته برفيقة لم تلبث ان ماتت بعد فراقه لها مضطرا للالتحاق بالزيتونة ، وليس يهمنا ان كان قد احب المراة بعد حبا ماديا لا يقصد منه غير شعور المتعة واللهو ، وليس يهمنا كذلك ان كانت هذه المراة هي زوجته التي سعد معها فترة من حياته لا شك فلسنا بصدد التاريخ للحب في حياة الشاعر ، وانما الذي يهمنا ان حبه لطفلته كان قد تمكن من قلبه الغض ، فلم يكن

موتها ليصرفه عما كان قد آمن به واعد نفسه للتضحية من اجله ، وهو بعد لا يزال في فورة الشباب الاولى ، فلم يزغ قلبه عن التعلق بروحها ، بل بقي على ذكراها محافظا ولذكرها منشدا، وظل يتخيلها امامه وتصورها له نفسه الوفية الشاعرة فيسرع الى القلم ليرسم منظرها في مذكراته بهذا النثر الشعري الجميل :

« تلك الريحانة التي انبتتها في سبيلي انامل الحياة ها هي تنظر الي بعينيها الجميلتين باحلام الملائكة ثم تشير براحتها الجميلة الساحرة وباناملها الدقيقة الوردية ثم ها هي تطبع على ثغري بشفتيها المعسولتين رحيق الحياة (*) » .

وتاتي مظاهر هذه النزعة الانسانية المشتركة بين الشابي وشعراء المهجر يتجلى في جانب الحزن والالم ، جانب كله شك وحيرة ، وتشاؤم وانين ، ودموع وزفرات ، ولا شك ان شعراء المهجر في هذا المظهر قد تاثروا بمذهب ديكارت في الشك ، وبفلسفة ابي العلاء الناقمة ، وبالمدرسة الرومانتيكية الغربية التي تمجد الالم والبكاء ، وترى ان (ابدع) الاغاني ما تسربل بالاسى (*) والحزن ، وربما كان فوزي المعلوف اصدق ممثل لهذه النظرة الكئيبة اليائسة في الحياة ، فهو يقول :

عشت بين المنى يراود نفسي
خلب من طيوفها وعقام

اقتنيها وفي يدي فؤادي
ثم الوي وفي يدي حطام

اي حلم سكبته ذهبيا
لم تذبه بنارها الايام

ورجاء حبكته من خيوط النـ
ـور لم يتدل عليه ظلام

اي عود حملته للتلهي
لم تقطع اوتاره الايام

ونشيد وقعته للتاسي
لم يعكره بالانين الغرام

اي كاس قربته من شفاهي
لم تحل حنظلا عليه المدام

وفؤاد ذوبت فيه فؤادي
لم يصنع عنده لمهدي زمام

ضاع عمري سعيا وراء رسوم
خططتها في الشاطىء الاقدام

عشت ابني على الرمال وهل يثبـ
ـت ركن له على الرمال دعام ؟

واذا كان الشعور بالغربة والحنين الى الوطن الذي كان يرزح تحت نير الطغيان قد دفع الشعراء المهجريين الى السير في هذا النحو ، فكذلك كان الشابي ــ ككل العباقرة والموهوبين الذين يسبقون جيلهم فلا يعترف بهم لانه لم يالف ما يدعون اليه ــ غريبا في وطنه ووحيدا بين قومه الذين كانوا لا يفهمونه ، فلم يلبث ان رماهم بالغباء وكره النور وعدم تقديرهم لما كان يريق من رحيق نفسه وينضد من ازاهير قلبه ، فلقد مزقوا تلك الباقة التي قدم لهم وداسوها ، كما حطموا الكاس التي عصر لهم فيها خمر نفسه ، فهو يقول في غمرة الثورة :

ايها الشعب ليتني كنت حطا
با فاهوى على الجذوع بفاسي

ولا يرى آخر الامر حلا غير اعتزال شعبه يائسا حزينا :

ها انا ذاهب الى الغاب يا شعـ
ـبي لاقضي الحياة وحدي بياسي(*)

ولا شك ان الشابي اخذ يحس الغربة منذ ايام دراسته فقد كان في طليعة الثائرين على مجتمع الزيتونة المتزمت الذي كان يرى في الادب لغبا ولهوا لا يليق بالطلبة والعلماء ، ولكنه كان شغوفا به يقراه ويدرسه وينشئه في غفلة من شيوخه وعلى مسمع منهم ومراى مما عنف اختلافه معهم .

---

* انظر كتاب « ابو القاسم الشابي » لزين العابدين السنوسي ص 25 .
* من كلام الفريد دي موسى Alfred de Musset نقلا عن « التجديد في شعر المهجر » ص 115 .
* قصيدة « النبي المجهول » ديوان ص 101 .

أما حبه لوطنه ورغبته في تحريـره فكانا يدفعانه للثورة في وجه المستعمر وللثار لكرامة امته في قـوة وتحفز بالغين ، اكثر من الغربة التي عاناها ومن حبه لوطنه ، كان هنـاك عامل آخر لعله اهم ما بعث في الشابي روح الكآبة والحزن فقد كان مصابا بمـرض صاحبه منذ ان فارقته رفيقة صباه وهـو داء القلب الذي كان يمنعه عن كثير من اوجه نشاط الحياة والذي كان سببا في نهايته وهو في ريعان شبابه وربيع حياته ، وكان يغلب عليه الالم فلا يعوديحس غير اليأس وسئامة الحياة التي يفصح عنها بقولـه :

سئمت الحيـاة ومـا في الحيـاة
ومـا ان تجـاوزت فجـر الشباب

سئمـت الليالـي واوجـاعهـا
ومـا شعشعت مـن رحيق بصـاب

فحطمـت كـاسـي والقيتهـا
بـوادي الاسـى وجـراح العذاب

فـانت وقـد غمرتهـا الـدموع
وقرت وقـد فاض منهـا الحبـاب

والقـى عليهـا الاسـى ثوبـه
واقبـرهـا الصمـت والاكتئـاب

فـايـن الامـانـي والحـانـهـا
وايـن الكـؤوس وايـن الشـراب

لـقـد سحقتهـا اكـف الظـلام
وقـد رشفتها شفـاه السراب (*)

وزاد من صراع الشابي مع الالم انه كان يهـوى العيش ويحب الحياة وانه كـان شديد الاحساس لمـا اصابه ، نشعر ونحن نقرا قصائده الشجيـة اللاذعـة مبلغ ما كان يقاسيه من اوجاع ومدى ما كان يتقطـر على اشطارها من دموع ، وكأنها لحـن الحياة المظلمـة الكئيبة تجمعه اغاني الاسى والجراح ، ولنتصت الـى قطعة من « اغنية الاحزان » (*) :

حطمت كف الاسـى قيثارتـي
في يد الاحلام
فقضت صمتـا انـاشيـد الغـرام
بيـن ازهـار الخريـف الذاويـة
وتـلاشت في سكـون الاكتئـاب
كمدى الفريد
كف عـن تلـك الاغاني الباسمـة
ايها العصفور
فحيـاتـي الفـت لحـن الاسـى
مـن زمـان قـد تقضـي وعسـى
ان يثير الشـدو في صمت الفـؤاد
انـة الاوتار
لا تغنينـي اغـاريـد الصبـاح
بليل الافراح
ففـؤادي وهـو مغمـور الجـراح
بتـاريـخ الحيـاة البـاكيـة
ليـس تستهويـه الحـان السرور
واغاني النور
غنني يـا صـاح انـات الجحيم
واسقني الآلام
اتـرع الكـاس باوجـاع الهمـوم
واسقني انـي كـرهت الابتسـام
غنني نـدب الامانـي الخـائبـة
والليالي السود

هكذا تزداد وطاة الالم على قلبه فلا يعود يريد ان يستمع الى تغريد البلابل واغاني الصباح وانما تتوق نفسه لانات الجحيم وكؤوس الاوهام ، علهـا تهدىء من اوجاعه ، فالحياة قد اصبحت امامه ظلاما دامسا عميقا لا يحمل غير اصوات الموت المزعجة ، تـدق اجراسـه منبئة بمغيب شمـس الحياة فيتطلع اليهـا تهوى منحدرة آفلة وقد حملت في طياتها آماله واحلامه، ثم تبدو امامه اشباح الموت مقبلة عليه ، فيزداد نواحه وعويله ، وقد تنتابه حال نفسية تغير من نظرته القاتمة فيبدو صوته متمسكا بالحياة مؤكدا انـه سيقهـر اعداءه وانه سيبدد كل الآلام التي تفتك به وتحيـط بحياتـه فيصيـح :

---

* قصيدة « السـآمـة » ص 44 .
* ديـوان ص 47 .

ساعيش رغم الداء والاعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

ارنو الى الشمس المضيئة هازئا
بالسحب والامطار والانواء

* * *

واقول للقدر الذي لا ينثني
عن حرب آمالي بكل بلاء

« لا يطفيء اللهب المؤجج في دمي
موج الاسى وعواصف الارزاء

فاهدم فؤادي ما استطعت فانه
سيكون مثل الصخرة الصماء

لا يعرف الشكوى الذليلة والبكا
وضراعة الابطال والضعفاء » (*)

ولكنها حال لا تلبث ان تزول فيعود الى بكائه ونواحه كارها الحياة ، زاهدا فيها ، متعلقا بالموت الذي اصبح يرى فيه مخلصه مما يرزح تحته من اوجاع وآلام ، فيغني وعلى شفتيه ابتسامة الرضا بما آل اليه :

الوداع الوداع	يا جبال الهموم
يا ضباب الاسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالوداع الوادع (*)

والحقيقة اننا حين نتحدث عن جانب الالم والحزن عند الشابي لا ينبغي ان نرد كل تاثر فيه الى شعراء المهجر سواء منهم فوزي او جبران ، فالشاعر كما لاحظ دارسوه ، كان شغوفا بقراءة المعري ولزومياته بصفة خاصة ، مما غذى لا شك نفسه الكئيبة ووجدانه المتوجع بل ربما كان تاثره بابي العلاء سابقا لتاثره بالمهجريين لاحتمال تعرفه عليه قبل ان يتعرف عليهم ، كذلك لا نريد ان نغفل تاثر الشابي في هذا اللحن بشعراء طليعة المدرسة الرومانتيكية في مصر امثال عبد الرحمن شكري الذي ملأت شعره نغمات حزينة كانت عصارة عنائه النفسي وشؤمه من الحياة والاحياء ، وخليل مطران الذي لم يكن شعره في حالة مرضه يئن بغير الشكوى من الحياة والحنق عليها . ولعلنا لا نعجب من هذا اذا عرفنا ان فوزي المعلوف ، وهو الذي قاربنا بينه وبين الشابي في الكآبة ، تاثرا بلغ التاثر بشاعر القطرين ، ويكفي للتدليل على هذه الابيات يقول فوزي (*) :

انا الحزن مرسوم انا السقم ظاهر
انا الحب مصدود انا الالم الراسي

انا العابد العافي انا هيكل الهوى
الم تسمع من اضلعي صوت اجراسي

وهذا نفسه ما خبره مطران :

انا الالم الساجي لبعد مزافري
انا الالم الداجي ولم يخب نبراسي

انا الاسد الباكي انا جبل الاسى
انا الرمس يمشي داميافوق ارماسي

واما وجه الشبه الثالث فهو الهرب من واقع الحياة المؤلم الى عالم الغاب حيث لا سيد ولا مسود ، ولا الم ولا حزن ، ولا موت ولا قبور ، وانما هناك الحياة حلوة سعيدة تنطلق فيها النفس على سجيتها حرة مفردة ، فيصغي لها الكون ويتجاوب معها بل هناك جنة الاحلام حيث الهدوء والطمانينة والالفة والسعادة ، يقول الياس فرحات :

احن الى الغاب حيث الشرور
هنالك نيرانها خامدة

---

* « نشيد الجبار » ديوان ص 176 .
* « الصباح الجديد » ديوان ص 159 .
* « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية » لجورج صيدح ص 348 .

ويقول جبران :

ليس في الغاب راع	لا ولا فيها القطيع
ليس في الغاب حزن	لا ولا فيها الهموم
ليس في الغاب موت	لا ولا فيها القبور

❋ ❋ ❋

والشابي ، لمجموع ظروفه التي مرت بنا ، يحاول ان يهرب الى الغاب ، ولنستمع اليه يقول (❋)

في الغاب سحر رائع متجدد
باق على الايام والاعوام

❋ ❋ ❋

في الغاب في تلك المخاوف والربى
وعلى التلاع الخضر والاجام

كم من مشاعر حلوة مجهولة
سكرى ومن فكر ومن اوهام

في الغاب في الغاب الحبيب وانه
حرم الطبيعة والجمال السامي

طهرت في نار الجمال مشاعري
ولقيت في دنيا الخيال سلامي

ونسيت دنيا الناس فهي سخافة
سكرى من الاوهام والاثام

والى الغاب يسوق الشابي شياهه حيث الاعشاب والازهار قد رواها الطل وغذتها الاضواء وحيث تستطيع ان تربض تحت الظلال بعيدة عن الثعالب والذئاب ، وتجتر في صمت وهدوء مصغية لاناشيد النحل العذاب :

واذا جئنا الى الغاب وغطانا الشجر
فاقطفي ما شئت من عشب وزهر وثمر
ارضعته الشمس بالضوء وغذاه القمر
وارتوى من قطرات الطل في وقت السحر

❋ ❋ ❋

ان في الغاب ازاهير واعشابا عذاب
ينشد النحل حواليها اهازيجا طراب
لم تدنس عطرها الطاهر انفاس الذئاب
لا ولا طاف بها الثعلب في بعض الصحاب(❋)

والحقيقة ان الشابي في هربه للغاب ليس متأثرا بالادب المهجري فحسب وانما هو واصف لطبيعة بلاده التي شغف بها واحبها، وغريب ان يزعم بعض الباحثين من مواطنيه انه نقل نفسه (الى الحياة القروية التي لم يعرفها ولم يقع بصره على الوانها فالغاب والضباب والراعي النافخ في نايه والثلج كلها امور لم يعرفها الشابي ولم يعش في دائرتها) (❋) .

فاذا كان الشابي قد ولد في الشابية ونشأ في قفصه ، وهي كلها تقع في جنوب البلاد التونسية الذي لم يكن يعرف من هذه الاشياء، بحكم مناخه الصحراوي غير الراعي الذي يسوق خرافه نحو الواحات ، فانه قد اقام شمالا في العاصمة مدة دراسته وبعدها ، وخرج الى ضواحيها ، وجال في غيرها من المناطق التي لم تكن هذه الاشياء غريبة عنها ، وقد تحدث الشابي في قطعة نثرية جميلة عن ضواحي تونس العاصمة فقال : (اما ذهبتم ايها السادة في يوم من ايام الربيع الحالمة الى بعض ضواحي المدينة حيث البرية المهتزة الناضرة والغاب الموفق الجميل ؟ اما رايتم ذلك البلبل الانيق المتنقل بين الغصون المورقة يترنم باغاريده الرقيقة الشجية ؟ اما ابصرتم تلك القبرة المتخطرة بين مخاوف الاشجار وحول مسارب الحقول تتغنى بتلك الاناشيد العذاب الطاهرة) (❋)

ـ يتبع ـ

باريس : عباس الجراري

❋ قصيدة « الغاب » ص 188 .
❋ قصيدة « من اغاني الرعاة » ص 152 .
❋ من كلام الشيخ محمد الفاضل بن عاشور نقلا عن كتاب « الشابي » للدكتور فروخ ص 125 .
❋ انظر القطعة كاملة في كتاب « كفاح الشابي » لكروص ص 88 .

مستقبل الثقافة في المغرب

للأستاذ جعفر الطيب الكتاني

- 2 -

وتمر فترات تاريخية على مجتمعنا ، يبدأ المثقف بالعربية على اثرها فى تحسس قيمته ، يتلمسها من خوف المستعمر من طبقته ومن مدى تنكيل ذلك المستعمر بمن هم من فئته ، وتذوقت نفسية حامل الثقافة الثقافة الاصلية لاول مرة المدلول الواقعي لكلمة مأثورة تروى على لسان احد مرشالات فرنسا ، تتلخص فى قوله عن القرويين : « انها البيت المظلم » فمن كان يفهم معناها على حقيقته ، من طلبة التعليم الاصلي ، قليلون جدا ، ونادرون ، والذين كانوا منهم ومن تلامذة التعليم الاجنبي ، يفهمونه على ظاهره كانوا كثرة ، وهذه الكثرة هي التي اصيب شطرها العربي ، بمرور الايام بمركب نقص ، وشطرها الآخر بمركب التعالي .

والزمن الذي يمكن ان نحدد به بداية وضوح هذا الصراع النفسي ، انما يبدأ بحركة يناير 1944 عند ما تشجع الشعب على التعبير عن شعوره بضرورة المطالبة بالاستقلال .

وكانت حركة الاستقلال مشبعة من اول يومها بالروح القومية وبالدفاع عن لغة البلاد ، وبالتنديد بالمستعمرين الذين يجعلون هذه اللغة ومعاهدها عن عمد ، دائما فى المؤخرة ، وانتفضت نفسية المثقف بالعربية تحت عامل هذا التشجيع المعنوي ، وشرعت تنتعش لتبدأ فى تغيير تقييمها لنفسها ولثقافتها ، وكان معقل هذه الانتفاضات ، ومنتدى هذه الحركة ، هو بناية جامع القرويين ، حيث كانت تعقد حلقات التعليم الاصلي ، وكان الاستعمار ينكل بهؤلاء ، ويطوق منتدياتهم بالدبابات والجيوش ، ويرميهم من تحت ابواب المسجد الضخمة برصاص الرشاشات والبنادق الثقيلة

وليس معنى هذا ، ان الذين تعلموا بالفرنسية او الاسبانية لم يشاركوا يومئذ ، كلا ! وانما الذين كانوا يظهرون على مسرح الاحداث فى قيادة هذه المعارك ، والذين كانت قرنا ترتعب منهم ، هم بالذات ، المثقفون بالعربية ، وليس معنى ذلك ، ان احد فريقي الصراع لا يشتمل من بين افراده ، على بعض افراد من الفريق الآخر ، فقد تجد بين المثقفين بالفرنسية او الاسبانية ، من غلبت عليه نشأته الاولى ، فانضم الى فريق المتعلمين بالعربية ، وربما وجدت العكس لدى الفريق الآخر ، ويتضح نوع هذا الصراع الثقافي ، فى كل مناحي المجتمع المغربي ، تجد له صورا فى الاسرة الواحدة ، وفى الحزب السياسي الواحد ، ويتخذ له تصرفات فى الافكار السياسية ، والوضعية الاجتماعية ، تشرع فى رسم اتجاه معين ، يختلف عن تصرفات الآخرين فى مجالات الحياة المغربية، ولكن الاحداث لم تكن تسيغ ظهوره يومئذ للعيان ، فالاستعمار ـ مهما يكن من خلاف ـ عدو للجميع ، ونقطة تتحد عندها كل الآراء المتنافرة ، وعلى الاستعمار قبل كل شيء آخر تتجمع القوى المتشتتة ، ويشتد تماسك هذه الوحدة الوطنية ، فى فترة المقاومة المسلحة ، وان كانت هي الاخرى لم تخل من تصرفات

※ تابع لما نشر بالعدد السادس

تتم عن بعض الخلاف في اوجه النظر ، ولكنه خلاف بسيط جدا ، لا يكاد الامل القوي في القضاء على المحتل ، ان يترك لذلك الخلاف متسعا للظهور .

ولا اريد ان اتعرض لمختلف اوجه النظر الى السياسة العامة ، التي كان ينبغي ان تسير عليها البلاد بعدما جاء الاستقلال ، فهذا شيء لا يتضح لي بقدر يسمح لي بان افسره ، او ادخل في تفاصيله ، انما الذي احياه عن كثب هو اختلاف وجهات النظر ، فيما يتصل بالعربية والفرنسية ، باعتبارهما لغتين اثنتين في هذه البلاد .

الفرنسية لغة الادارة ، لان اطر الدولة وضعت اساسا بالفرنسية ، ولان المستخدمين ، منهم كثيرون جدا ممن هم اجانب موظفون ، وظروف اعلاننا للاستقلال لاتساعد على طرد هؤلاء او اقالتهم ، او الاستغناء عنهم لاننا فقيرون فعلا في الكمية الصالحة للادارة من المغاربة ، واذا ، فبقاء المستخدمين الاجانب كمرؤسين في مختلف الوزارات والمصالح ، امر تحتمه طبيعة امكاناتنا ، ولكي تسير الشؤون الادارية في وفاق لم يكن منطقيا ان يوظف في الادارات من لايعرف الفرنسية ، لانه لن يفيد مطلقا في مهمته ، بسبب ان التقارير التي تكتب او التصميمات التي توضع كلها وكل ما يتعلق بمصالح الادارة ، يكتب بالفرنسية ، بناء على ان كثرة عديدة من موظفي الادارات فرنسيون ، ونحن في حاجة اليهم كموظفين ، وهم لا يعرفون شيئا عن العربية ، واذا ، اذا كنا في حاجة اليهم وهم لايعرفون لغة البلاد ، فيتعين في راي المسئولين ان نستعمل نحن لغتهم ليفهمونا وبالتالي لنستفيد من خدماتهم ، وهذا الاجراء الذي كانت تفرضه الظروف ، يعني ان من ليس متعلما بالفرنسية ، ليس له مكان في الادارة ، واذا اتيح له هذا المكان فانما في اطارات دنيا ، او متوسطة تلي الدنيا . واذا فمن طبيعة ظروفنا ان يشغل وظائف الاطار العام المتعلمون بالفرنسية ، حتى ولو لم يكونوا في ثقافتهم يعرفون اكثر من القراءة بالفرنسية ، وهذا يؤدي بالنهاية ، الى عدم الحاجة الى خدمات المتعلمين بالعربية الا فيما سبق ان كانوا يشغلونه ، قبل الاستقلال او ما يشابهه فيما بعد الاستقلال .

وعندما ادرك المتعلم بالفرنسية بانه هو من يتقلد مناصب البلاد في عهد الاستقلال كالشان به في عهد ما قبل الاستقلال ازداد ما يعانيه من مركب التعالي تمكنا من نفسيته ، وكان الفريق الآخر قد شرع يقيم نفسه منذ حركة يناير 1944 ، كما أنه أخذ يضرب امثلة مجسمة لقدرته في اشخاص معروفين من طبقته ، فتكون لديه شعور بالتعالي هو الآخر ، ولا سيما بعد الاستقلال ، وبذلك تتهيأ عوامل الصراع الثقافي لتبرزه على اشده .

ففي فترة ما قبل الاستقلال ، لم يتعد هذا الصراع مرحلة الاحتدام ، ذلك ان المنتديات والمدارس والتجمعات التي تعمل عادة على ابراز مظاهر الصراع الثقافي ، او تحول دون وجوده اساسا ، لم يكن مسموحا بها قبل التحرر من الاستعمار ، فلما انشئت الجامعة المغربية بعد الاستقلال بدا ذلك الاحتدام يتبلور في صراع ثقافي ، طرفا موضوعه الثقافة الحديثة ، واللغة العربية ، وهو صراع ما فتيء حتى اليوم ، ينمو ، ويشتد خطره على حياة الاستقرار ، تعكسه وسائل الاعلام التي في بلادنا ، بجميع حيثياته الاجتماعية والسياسية والثقافية منها ودون معاناة جهد من الذي يرغب الى التعريف بثقافتنا من خلال هذا الصراع ، وفي متناول حواس الفهم لديه ان يقول : اننا اذا لم يلفينا شرقيين في ثقافتنا ، ولا غربيين ، فلكوننا ما برحنا نبحث عما يلائم موقفنا الحضاري ، من ثقافات الغرب والشرق ، ولكن ، اما آن الاوان بعد ، كيما نحدد موقفنا من هذه الثقافات ؟ لقد مضى على تحررنا السياسي ست سنوات استطعنا خلالها ان نحقق منجزات عزيزة علينا ، ولكن ، اين منها محتوانا الثقافي ؟ .

ان فريقا من الزملاء خريجي الجامعات الاوروبية، قد تمذهب بان من ورد من غيرها ، انما هو ترك راس العين ليغترف من جداولها ، وفي اعتقاد هذا الفريق ان اللغة العربية ، بما آلت اليه ، قد تخلفت عن الركب الحضاري ، فاضحت مصطلحاتها الفكرية ثابتة ، بيد ان الحضارة متطورة وتتطلب مصطلحات متحركة .

وان هذه الحقيقة لاتتعارض وما تدين به طائفة المثقفين بالعربية وخريجي جامعات الشرق العربي ، من ان اللغة العربية هي وحدها اللغة القادرة على الحاقنا بالركب الحضاري ، ذلك ان الحضارة في مفهومها الواسع ، انما هي اشعاعات للثقافة ، التي تعود في شكلها الخارجي الى لغة ، والثقافة لابنة حضارة ، انما هي عبارة عن نهل مستمر من شلالين اثنين هما التراث والابتكار .

واذا كانت الغاية في انتهاج اللغة الاجنبية ـ او الثقافة في فحواها ـ هو اللحاق بالركب الحضاري ، فانه لا حضارة لثقافة لا تستمد من شلالي التراث والابتكار ، واللغة الاجنبية لن تؤدي بنا الى تلك الغاية بطبيعة تكويننا الاجتماعي ، وانما اللغة القومية وحدها هي القادرة على الحاقنا بالركب الحضاري ، وحتى لو لم تكن اللغة العربية بالنسبة لنا احد شلالي الثقافة ، لكان يجب ان تصبح لغتنا في المغرب الحديث، باعتبارها القاسم المشترك الاعظم الذي يوحد شمال المغرب بجنوبه ، بعد الاستقلال

ولكن ، ان اللغة العربية توقفت عن التطور ، رغم ارادة شعوبها ، وان القرون التي قضاها رجل اوربا المريض والدول المحتلة الاخرى التي اعقبته في محلتنا، اخرت تقدمنا ، وبثت التواكل في نفوسنا ، وعاقت لغتنا عن الحركة، بيد ان ذلك لن يكون سببا في ان يستمر المتخاذلون فينا والنواحون ، ولقد سبق ان وجد في شعوبنا من دعا فيها الى اللغة العامية فلم يفلح ، ومن دعا فيها الى لغة اجنبية فلم ينتج ، وعلينا اليوم ان نستفيد من التجربة بان نحاول ما لم يحاوله الآخرون ، وان هذه المحاولة المنتظرة ، انما موضوعها شكلا ، التقدم بلغتنا في نطاق الاشتقاق والنحت والتعريب والترجمة ، وموضوعها مضمونا ، العناية بالكتاب المدرسي .

حدثني الاستاذ احمد الاخضر مدير معهد التعريب بانه عقد مقارنة معجمية بين الكتاب المدرسي للابتدائي الاول المتداول في مدارس فرنسا ، واسبانيا ، والمانيا، وانكلترا ، وبين نظيره في العربية عندنا بالمغرب ، فالفى اطفالنا يعلمون مدركات هي نصف ما يتعلمه الطفل الاوروبي ، حيث ان هذا يقدم له في اول سنة دراسية الف وخمسمائة كلمة ، بينما لا تقدم لاطفالنا منها ، سوى سبعمائة كلمة ، ولو شبهنا مراحل التعليم في بنائها بهرم مقلوب الشكل ، لتمكن تصورنا من تقدير ما عساها تكون عليه آفاق تلميذنا ، بعد ان يصبح طالبا في الجامعة المغربية ، وكيفما كانت الاسباب الباعثة على هذا النقص في كتابنا المدرسي فانه لو كان لنا في المغرب هيئة للتاليف المدرسي ، على غرار اللجنة التي اقتصرت عليها هذه المسؤولية الوطنية في فرنسا مثلا سنة 1880 لاستطعنا ان نتغلب على اي اسباب اخرى محتملة .

وان معهد التعريب ، في رايي ، اعظم مشروع تقدمي للغة العربية في تاريخها الحديث ، ولكي يكون جهازا نافعا في خدمة الثقافة العربية الحديثة بالمغرب ، يحسن بنا ان تنيط به كل ما من شأن التربية الوطنية وتعريب الادارة ان يفتقرا اليه ، والا نحاول اشغاله عن المسؤوليات المحلية باشياء قد يوجد في ارض العربية المتسعة ، من يتكفل بالنهوض بها .

اننا نتحدر من ثقافة عربية شئنا ام ابينا ، واننا من احدث الدول العربية استقلالا ، ومن اكثرها امكانيات في الاقتصاد والجغرافية والسكان ، وان الجزائر الحرة المستقلة ، لتتشوق الى منجزاتنا في ميدان التربية الوطنية ، والتعريب الاداري اكثر مما تتشوق الى غيرنا ، بحكم الجوار والتاريخ المشترك في الماضي والحاضر ، ولنسبة امكاناتنا ، واننا اليوم لنشعر بمسؤولية مضاعفة اكثر من اي وقت مضى ، وان العناية بالكتاب المدرسي في مستوى هيئة عليا سوف تؤدي الى الاستفادة الجدية منه ، في منهجية التعليم برمته ، وصوغه في قالب موحد من اول سنة دراسية الى آخر سنة جامعية .

وسوف ييسر يومئذ في حكم العادي وجود جامعة مغربية مثالية ، لا تنعت بالحداثة ولا بالاصالة ، يجوز ان تحمل اسم محمد الخامس او اسم القرويين ، تنشا في الرباط او في فاس او في مراكش او تطوان ، او فيها جميعا استقبالا ، وفي غيرها من مدن المغرب الكبرى ، في متناولها ان تشتمل على كلية للشريعة كما في امكانها ان تشتمل على كلية للطب ، ولن يكون هنالك نشاز على الاطلاق .

ولكن هل ننتظر ان يستقر التعليم ويعم التعريب في بلاد لما تستقر فيها وزارة التربية الوطنية على حال ؟ في وقت كان ينبغي ان تكون اقوى كراسي الحكومة وادقها منهجا ووضوحا ، ولكن ان جيلنا نحن شباب هذه الامة ، ما يزال غير قادر بدوره ، على شكل اجهزتها الثقافية ومحتوياتها ، ومن المسلم به ان الشباب في اي جيل ، هم عماد مستقبل الثقافة فيه ، ولا نزاع في ان ما ظفرنا به من مؤهلات الثقافة حتى اليوم ، لايبعث على الامل في ان مستقبل مجتمعنا الثقافي كفيل بتحقيق الطمانينة للمغرب .

والامر ، في غير مراء ، انما هو متوقف على مدى استخدام الصرامة الجادة ، في اقرار الشكل القومي لمحتويات اجهزتها الثقافية .

اما حكاية راس العين وجداولها تلك التي تدين بها طائفة من زملائنا المثقفين ، فليس يعمل على تأكيد وهميتها سوى الرغبة السليمة فى مباشرة تجربتها ، ولو قدر بيننا للصرامة الجادة فى اقرار الشكل القومي لثقافتنا ، ان تاخذ طريقها صوب مدرستنا وادارتنا ، لقويت فينا ارادة جلب ذوي الخبرة من المثقفين بالعربية للاستفادة منهم فى تعريب الادارة ومناهج المدرسة .

وعندئذ لقدر المتوهمون معاينة بان للعربية كفاءات تضاهي فى كثير من الاحيان كفاءات اللغات الاخرى ، ولكنا بذلك نعمل لماهية الشخصية القومية ، شكلها ومضمونها .

ويومئذ تمسي مركبات التعالي والنقص المتفشية معنا ، فى سجل تاريخ تمكن المغاربة من القضاء عليه فى مظاهرهم ونفسيتهم ، يوم يعرض مستقبل تاريخنا للثقافة المغربية بين اجيال المستقبل .

ان تضحية جيل محمد الخامس كانت فى سبيل ان نرفع رؤوسنا ، ونتحدث بملء ارادتنا عن انفسنا ، بمنحى من ظل الكابوس الاسود الذي كان يخنق انفاسنا ، ويقيد حركاتنا ومن نتائج تلك التضحية مثلا الغاء الظهير البربري الذي فى اثره انبثق تكتلنا الوطني ضد المستعمرين ، وذلك مجهود سياسي ، وتمهيد فى الوقت نفسه لتضحية مرتقبة من جيل الحسن الثاني ـ وفقه الله ـ فى سبيل توطيد ما يهدف اليه الغاء الظهير البربري ، وهو اقرار شكل الثقافة القومية ، وتعميم التعريب داخل الحواضر والبوادي .

الرباط : جعفر الكتاني



البند شعر عربي أصيل

للاستاذ
محمد رضى شرف الدين

مدخل لغوي : البند : بفتح الباء وسكون النون ، كلمة لها عدة معان ، منها البحيرة ، والعلم الكبير ، والفصل من الكتاب او الفقرة ، والقيد ، والحيلة ، فاذا قيل فلان كثير البنود : فيعني انه كثير الحيل ، ومنها القول العراقي في اللهجة الدارجة (ضربت فلانا بندا) يعني اوقعته بحيلة ، والجمع : بنود .

والبند كلمة معربة ، اصلها فارسي نقلت الى العربية مع كل معانيها ـ في اغلب الظن ـ ومن معانيها بالفارسية : الاغلاق ، فاذا قيل بالفارسية (دربند) يعني : الباب المغلق ، او (دربند) يعني : اغلق الباب ، واستعمل بالعربية لكل ما يمت الى الغلق واحكامه بصلة .

والبند : ضرب من ضروب الادب العربي ، سمي (بندا) لانه ينظم فصولا يغلق كل فصل منها بقافية (را) .

تعريف البند : والبند في المعنى الاخير هو موضوع بحثي هذا . وهو نوع من الادب العربي ، لا يعرف عنه وطننا العربي في المغرب قليلا ولا كثيرا ، ولا يعرف عنه وطننا العربي في المشرق شيئا كذلك ، الا العراق مبتكر البند وصاحبه ، اللهم الا نزر قليل من مؤرخي الادب في غير العراق ترامى اليهم خبره .

والبند كلام موزون التزم بحر الهزج غالبا ، وهو متحرر من القافية الا ما جاء منها جاريا من غير عناء ، ويكتب البند كما يكتب النثر : سطرا بعد سطر ، من غير عجز ولا صدر ، والقافية فيه غير مشروطة الا في آخر الفصل ، واكثر ما ورد راء ملحقة بالف على هذه الصورة (را) والفصل قد يطول فيبلغ العشرة اسطر وقد يقصر حتى السطرين ، يتحكم الموضوع بطوله وبقصره .

وقد ينقص البند عن وزن الهزج بسبب واحد او باكثر ، ووتد واحد او باكثر ، وقد يزيد بهما عن الوزن كذلك .

متى ولد البند ؟ في غضون الثلاثمائة سنة الماضية من حسابنا الهجري ولد البند في العراق ، على ضفاف الفرات الاوسط ودجلة في النجف والحلة وبغداد ، وصعد حتى بلغ الموصل ، وسار مع المجرى حتى بلغ البصرة ومثلما وقف على مشارق سوريا غربا ، وقف عند ملتقى النهرين في شط العرب شرقا ، فلم يتجاوز ذلك لا الى جنوب ولا الى الشمال .

كانت ولادته في دور انحطاط وخمول ، يوم كان الوطن العربي في المشرق يتخبط في ظلمات فوقها ظلمات ، ظلمات من الجهل فوقها ظلمات من الحكم العثماني باعث هذا الجهل ، وسبب اسبابه .

وكان في العراق متادبون ، ومن الطبيعي ان يكون لهؤلاء خلجات وكان لابد للخلجات من تعبير ، وللتعبير من اداة ، وكانوا يملكون منها ما يقصر بهم عن بلوغ مثلهم الادبي الاعلى الذي تحتفظ به دواوين اسلافهم ، فان الذي يملكونه متواضع تتقطع به الانفاس لهثا في السفح دون القمة ، على ان اغراضهم الادبية الرئيسية يومذاك ثلاثة مدح وهجاء ورثاء ، فاذا تجاوزتها فالى الاخوانيات .

وكانوا ينظمون هذه المواضيع على جميع البحور العروضية ، فيكون منها شعر ، تتعاصى عليه القوافي ،

وتتنكر لها الاوزان ، وكانوا من الادراك : حيث لا يخفى عليهم ذلك ، فقالوا : لابد لنا من الرضوخ اذا تعاصى علينا الشموخ ، ولابد من التفكير بالتغيير فى طـرق التعبير بما تيسر ، نعوض به عما تعسر ، الواقـع يدفعنا الى الاقرار بالعجز ، والحاجة تدفع بنا الـى الاستمرار بالتجربة حتى النجاح .

وقالوا : اسلوب سهل غني بالجرس والنغم ، يعوض عن عمق التفكير وسمو الاسلوب ، وسنجد (الهزج) اذا اخترناه للاخذ بايدينا ... وكان الهزج من الاوزان هو المختار .

وقالوا : الهزج شعر، ولابد للشعر من قافية ، والقافية تقتضي ثروة من الالفاظ لثروة من معانـي ، يصرفها ترف فى الذوق ، وتمرس بالترف يتخير اللفظ المترف للمعنى المترف .. قالوا : واذن فليكن شعرا بلا قافية ، ولكن الادب يقول : لابد للشعر من قافية، وكلام لا قافية له ليس بشعر وان كان موزونا ...

وانفرجت الازمة عن اتفاق فى مصطلـح جديـد يطلقونه على هذا النوع الجديد من الادب فوضعوا اسم (البند) لكلام موزون متحرر من القافية ، ولاجل ان يؤكدوا كون البند ليس بشعر ، كتبوه كما يكتبـون النثر ، سطرا بعد سطرا ، من غير عجز ولا صدر .

لماذا مات البند : لقد كان ازدهار البند سببا لموته ، فان ازدهاره كان نتيجة لتدرج الادب فى الصعود الى مراتبه ، وحصيلة لسعة الثقافة الادبية وعمـق التفكير ، والادب عند بلوغه الكمال فى نفوس الادباء لابد ان يعود بهم الى عمود نسبه ، فعاد الشعر بشعرائه الى اوزانه وقوافيه الاصيلة ولم يكن امس ـ كما لم يكن الشعر الحر اليوم ـ الا اداة لمتادبين لستر عجزهم ونقصهم .

ازدهر البند خلال القرن الماضـي ، وفى اوائـل القرن الحالي ازداد ازدهارا ، فى حين اخـذ الادب العربي فى كل ضروبه وفى مقدمتها الشعر بالنهوض ، فكان البند كلما تقدم الشعر خطوة تأخر خطوات حتى تخلف ، وحتى احتل من الرفوف ومن الاصفاط مكانا منسيا ... فنسي .

وبعد ان اشبع هجرانا ونسيانا ذكره اديب وفي لادبه ، هو السيد عبد الكريم الدجيلي مفتش اللغـة العربية فى وزارة المعارف العراقية ، فاشتد يبحث عنه فى الموصل والبصرة وبغداد والنجف والحلة حتى جمع شمل ما عثر عليه فى كتاب اسماه (البنـد فى الادب العربي) ، بعث فيه ادبا عربيا عراقيا كاد ان ينسى .

البند شعر حر : من تعريفنا البند المتقدم بانه متحرر من القافية يلتزم وزن الهزج التزاما فيه الشيء الكثير من التساهل بخروجه عنه فى (سبب واكثر ، ووتد واكثر) ، من ذلك نعلم انه اول شعر حر ظهر فى الادب العربي ، وهو فيما وصفنا حر اكثر حرية من الشعر الحر الذي عرفه ادب ناشئتنا العربية فى الآونة الاخيرة . انه اكثر حرية من ناحية مهمة جدا بنظر (الثوريين) من متادبينا ... الذين يودون التحرر من الوزن والقافية معا .

ان الشعر الحر الذي ينظمه الشعراء والشاعرات المتمكنون من اللغة والادب لا يعرف هذه الجـراة فى التحرر التي يعرفها (البند) . فالشعر الحر الاصيل وان لم يلتزم بعدد التفاعيل فى الشطر الواحد ، الا انه التزم بالوزن الواحد فى القصيدة الواحدة ، فلم يجرأ على نقص ولا زيادة فيه ، وكذلك جاءت او كثيرا مـا جاءت شطوره وسطوره ذات قافية واحدة .

فالبند فيه للتطور قابليات اكثر من الشعر الحر اذا ما بعث بعثا جديدا يتلاءم مع واقعنا ويخدم جميع اغراضنا واهدافنا ، وبذلك نكون قد اضفنا ثروة ادبية عربية جديدة غنية بكل عناصر النجاح ، التي تقتضيها الخدمة المخلصة ـ فيما احسب ـ ولنجرب :

وهذه تجربتان فى موضوعين من مواضيعنـا الحاضرة سنرى مدى نجاح هذه التجربة فيهـا ، ولتطوير البند كتبتهما كما يكتب الشعر الحر ، ولـم التزم بقفل الفصل بقافية (را) كما هو المعتاد :

التجربـة الاولـى :

فالـق الـذرة :

(بمناسبة انعقاد مؤتمر الوزراء الكبار فى جنيف لتحريم الـــذرة)

الا يا فالق الذرة من علمك الاعجاز
ومن قد فتق الفكرة عن آيات ايجاز
باطناب من التفجير لم يخطىء بتعبير
له فى العالم الارحب صولات وجولات
تعيد الضب للمجحر
يرى فى عالم الانسـان ، ما مجحره افضل
وما فى ذيله المشهور ، ما تعقيده اشكل
وما كان للمغرور فى عالمه الاجمل
طماحا حط فى التحليق من عال الى اسفل
فجحر الضب للانسان من عالمه آمن
فلا قلق بحبل العمر ــ قضما ــ قطعة قطعة
فينظمها سفودا فوق نار اليأس والامل
ــ وذلك افظع التعذيب ــ
ولا خوف من الغارات فى الاجواء
تنقض بلا انذار
تشيع الرعب فى الافكار
والادواء فى الاعمار
ولا تمييز ...
فكل الناس ، قيد القتل والترويع والتجويع
قيد المرض الاخطر
تجاريب اذا نجحت
لها الشرير قد صفق
فما احمق ، ما اصفق
ويا خــر النجاحات تغلف بالمناحات
تجاريب ... تجاريب ...
تلوث افقنا الاطهر
قذرات تنادي الموت
ان ياتي على مهل ...
الى شيخ
الى طفل
الى امراة
الى رجل
يدب .. فيترك الاجسام
... فى شلل ...
الى الموت على مهل ...
اداء واحدا كانا .
وياليت ...
اذن هانا .

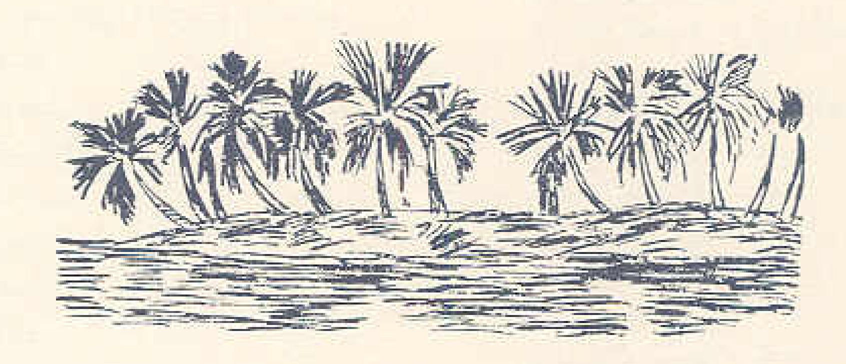
التجربة الثانية :

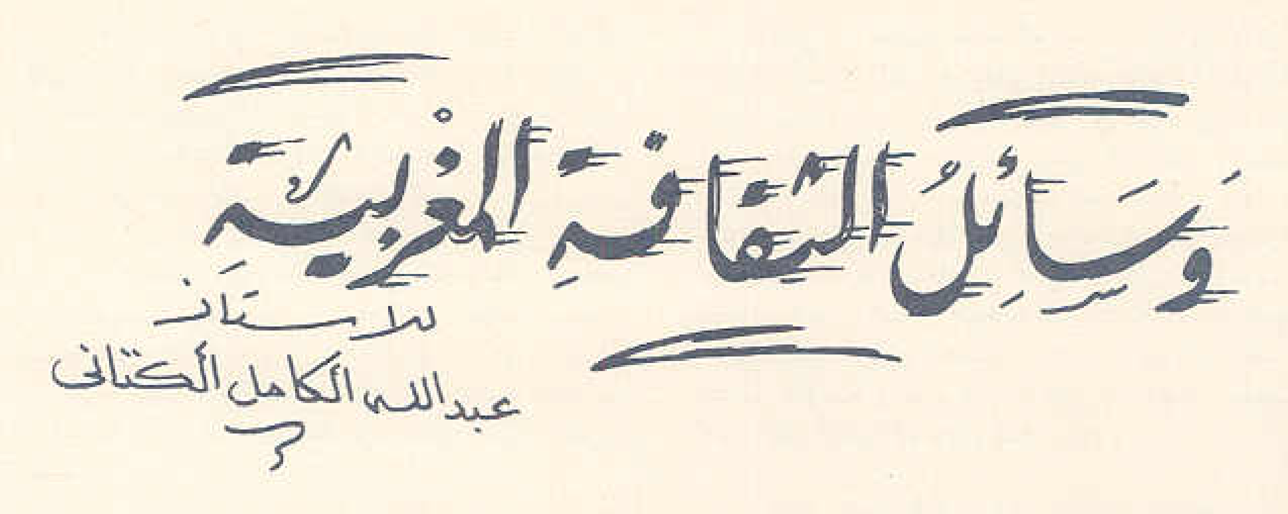
وحش الاحتكارات :

الا يا شعبي الطيب
عمالا وصناعا
وفلاحا وزراعا
سعيت لعيشك الافضل
يا اعزل ...
وحولك غابة تدعى
حضارة عصرنا الذري
لقد ابدعها وحش
وقالوا عنه انســانا ...
اقص عليك قصته ...
اذن فاسمع :
فظيع كل ما فى الغاب
وهو بما اتى افظع
فما فى الغاب من ذئب ولا ضبع ...
ولا من حية تسعى
كانسان الحضارات التي تدعى
حضارات ...
طباع الوحش فى انسانها اطبع
فضبع الغاب قد يشبع
وذئب الغاب قد يشبع
وافعى الغاب قد تلسع .. ولا تلسع ...
وانسان الحضارات
فلا يشبع
ويلسع ثم يلسع ثم يلسع
وشاء صيد ذئب الغاب
اذ يطمع
وبعض الشاء
اذ يشبع يقنع
وانسان الحضارات
فلا يقنع ...
ولن يقنع

فاقطار ، وابحار ، واجواء
بما فيهن من نفس
ومن زرع ومن غرس
وانواع الجمادات لانواع الصناعات
.. ولا يشبع
.. ولا يقنع
ويشرب .. ثم لا يروى
وينضب كل ذي منبع
بما فيه دم الحيوان
من اقوات زراع
ومن اتعاب صناع ..
ولا يروى
وليس يعي لهم شكوى
فهم في غمرة البلوى
لهم من سيد المصنع
لهم من سيد الارض
بما يفرضه مقنع
وما المقنع ..
ومن ايديهمو فاضت
مبرات وخيرات
ومن اتعابهم سالت
على الماخور (ليرات)
ومن اعصابهم ثارت
صناعات صناعات
فللتدمير آلات
وللاحـــــرار ...
اذلال وارهاق واعنات
وثمة سيد المصنع
ولا مقنع ...
يرى الدنيا له .. طويلا بلا عرض
ولا تحوير بالتسليف ..
او تبديل بالقرض ،
.. ووعد برقه خلب
.. وقول كل زور
فوحش الاحتكارات
فظيع الادعاءات
خطير الاتجاهات .

بغداد سنة 1959





لعله من المفيد ــ ونحن نبحث فى جوانب من الثقافة المغربية ــ الا نسلك فى هذه المرة سبيل التحليل السلبي ، تلك التي تقتضينا اذا ما بحثنا عن واقع للثقافة المغربية ان نقرر ان هذا الواقع بئيس جامد غامض ، واذا ما بحثنا عن وجهة لهذه الثقافة الا نرى لها وجها ذا خصائص وميزات ومعالم واضحة، ذلك لان سبيل التحليل الايجابي لموضوع « وسائل الثقافة المغربية » ــ فيما يبدو ــ اكثر غناء واعم فائدة.

وسائل الثقافة فى بلد كبلادنا ينبغي لها ان تكون كثيرة ومتعددة ، بحيث لا تقتصر على الوسائل الثقافية المعروفة عند غيرنا من الامم ، وانما ينبغي لها ان تستقل الى ابعد هذه الوسائل الانسانية المعروفة ، وتضيف اليها وسائل قومية خاصة ، موجهة توجيها سليما نحو الثقافة السليمة .

واذا كانت الغالبية العظمى من الناس فى مختلف الامم اليوم قد ءامنت بفضيلة التوجيه وضرورته فى سائر الميادين الحياتية اليومية من اقتصادية واجتماعية وسياسية وغيرها من الميادين ، فان على المثقف المغربي ــ فيما اعتقد ــ ان يومن كذلك بفضيلة التوجيه وضرورته فى ميدان الثقافة على الخصوص .

ووسائل الثقافة فى الاصل ، ذات منشا قومي ثم لا تلبث ان تتدرج فى النمو والتطور والتقدم لتصبح فى النهاية وسائل انسانية خالصة يستفيد من خيرها الجميع .. ولقد كانت وسائل الثقافة العربية ــ والثقافة المغربية من ضمنها ــ فى يوم من الايام وسائل انسانية ، استفاد منها الناس جميعا فى كل مكان ، وترجموا عنها ، ونقلوا منها ، وافادوا بها ..

فاذا كان الناس من قبل ــ قد نقلوا عنا واستفادوا منا، فليس بضائرنا اليوم فى شيء ان ننقل ونترجم ونقتبس ونفيد منهم كما نقلوا ، وترجموا ، واقتبسوا ، وافادوا ..

فما هي الوسائل الثقافية الانسانية التي يمكن ان تفيدنا وتنفعنا فى ظروفنا الحاضرة ؟

يمكننا ان نذكرها هاهنا على سبيل المثال لا الحصر ، وهي :

- الكتاب اولا
- والمدرسة ثانيا
- والجمعيات الادبية والنوادي الرياضية ثالثا
- وقاعات العرض السينمائي والمسرحي رابعا
- والاذاعة المرئية والمسموعة خامسا .

الكتاب : لا نتناول الكتاب هاهنا من زاوية فائدته ومزيته وصداقته للمثقف ، ففي نثر كاتب العربية ابي عثمان الجاحظ ، وفى شعر شاعر العربية ابي الطيب المتنبي كل الغناء ..

الكتاب وسيلة من وسائل الثقافة الهامة التي تعاني ازمة الاهمال من المثقف المغربي، سواء كان مطالعا (قارئا) ام مؤلفا (كاتبا) ، اذ على الكاتب تقع تبعة التاليف الجيد والانتاج المتعدد الغزير ، الزاخر بالفوائد وباساليب « تجميع » القراء و « جذبهم » نحو الكتاب ، ومن المعلوم ان هنالك تقابلا نسبيا بين الجودة والكثرة : اذ لابد ــ على الغالب ــ من ان نجد فى التاليف الكثير شيئا من الجودة ، ولابد من ان تؤدي الجودة بالتالي الى الكثرة .. والاثنان نادران فى مغربنا الحبيب ، فليسمعها وليرعها كل من يمسك القلم بين يديه .

اما القارىء فانه اذا ما شكا قلة التاليف ورداءته، فان ذلك لا ينجيه من تحمل تبعاته تامة كاملة ثقيلة .. اذ القارىء مرشح لان يكون كاتبا ومؤلفا اذا ما قرأ الكتب و « تعددت » قراءته « للجيد » منها ، فاذا لم يكفه ـ في هذا الوقت ـ الكتاب المغربي ، فان بين يديه ـ من جهة ـ الكتاب العربي (وهو كثير جيد) والكتاب الاجنبي على اختلاف السنته ولغاته ـ من جهة اخرى ـ بهما يغذي ذوقه وينمي ثقافته ليسهم بنصيبه في الثقافة ، وعلى هذا ليس الكتاب رفيقا في الغربة فقط ، وانيسا في الوحدة فقط ، ولكنه مسؤولية وتبعة ، ووسيلة من وسائل الثقافة المغربية المعاصرة .

ذلك المؤلف ، وهذا القارىء ، اما الدولة فان عليها التوجيه ، توجيه المؤلف والقارىء ، ولا يكون التوجيه بحال من الاحوال بفرض موضوع معين على الكاتب او الزامه باتجاه معين ، ولا بفرض مطالعة انواع خاصة من الكتب على القارىء ، وانما يكون التوجيه بتشجيع المؤلفين على الاجادة الكثيرة في التاليف، وبتسهيل وسائل الطباعة والنشر وتحسينهما وجعلها رخيصة في متناول المؤلف والقارىء جميعا .

المدرسة : وللمدرسة علاقة وثيقة بالكتاب ، فيها يتصل المواطن بالثقافة ، وفيها يحبب اليه الكتاب او يكره اليه ، وتستطيع الدولة ـ وهي الساهرة على التربية والثقافة والتعليم ـ ان تقوم فيها بتادية قسط وافر من مسؤوليتها في توجيه الناشئة الى الكتاب وتحبيبه اليهم ، وذلك باعداد الاطارات الصالحة من الاساتذة الاكفاء الذين يؤمنون بالكتاب كوسيلة من وسائل الثقافة ويعتقدون بفضيلة التوجيه .

المدرسة ميدان من ميادين التربية الصالحة للمثقف ، واساس متين من الاسس الثقافية العامة ، ووسيلة نافعة من وسائل التثقيف والتهذيب ، ومن المؤسف ان المدرسة المغربية في وضعها الحاضر لا تؤدي هذه المهمات كلها ، ولا تقوم بهذا الدور الخطير، ولا يمكنها ان تفعل ذلك ما دام التعليم فيها ـ في اساسه ـ بغير لغة اهل البلاد ، ليس معنى هذا ان نتجاهل اللغة الاجنبية ، ولكن معناه فقط وفقط ان نتعلم بلغتنا القومية اولا وقبل كل شيء .. ثم ، لنتعلم بعد ذلك ما نشاء من الاسماء واللغات .

والى ان تصبح لغتنا العربية اساسا في المدارس كما هي اساس اليوم في بعض كليات جامعتنا المغربية ، نحب ان نوضح ان سبيل الافادة من المدارس كوسيلة من وسائل الثقافة ، يتوقف على اخلاص القائمين عليها ، وعلى حسن توجيههم للناشئة ، ويكون التوجيه بتجهيز هذه المدارس بقاعات البحث والمحاضرات وتدريب الطلبة على القيام بالقاء الدروس واعداد المحاضرات ، واصدار مجلات مدرسية دورية تكون خالصة لهم يتولون بانفسهم كتابة مقالاتها والتعليق عليها وتنظيمها وتحريرها ، ويكون لاساتذتهم عليهم فيها حق الاشراف والتوجيه .

اما في الجامعة فيشترك الاساتذة والطلاب جميعا في اعداد ندوات ادبية ، ويتبادلون الملاحظات العلمية، ويتساجلون في ابحاث ومقالات ومناظرات ، تنشر على صفحات الجرائد والمجلات ليعم نفعها الجميع .

الجمعيات الادبية والنوادي الرياضية : اننا نعيش في عصر يبحث عن الثقافة ، ولا يحيى فيه الا المثقفون ، ومن مظاهر ذلك ان الناس بعد فراغهم من العمل في المجتمع العام ، ياوون الى مجتمعات ومنتديات خاصة يرتادون ابوابها لاكتساب الوان جديدة من الثقافة مختلفة الطعم عن الثقافة العامة التي يعرفون ، وقد يسعون في ذلك الى الجد كما يسعون الى الهزل ، وقد يريدون من ذلك الادب والفن كما يريدون السياسة والاجتماع ، وقد يقصدون من ذلك الى الرياضة كما يقصدون الى الراحة ، تلك الوان من الثقافة المترفة يسعى اليها الناس في كل زمان ومكان ، ولعل الانسان المغربي اذا تفقدها او سعى اليها لم يكد يراها .

ان الانسان المغربي اذا حرمته ظروف الحياة من الاستمتاع بصحبة الكتاب ، واذا لم يسمح له الاستعمار يوما ان يتعلم في المدرسة ، فليس بامكاننا اليوم ونحن ـ مواطنيه الاحبة ـ ان نمعن في حرمانه من التمتع بوسائل اخرى من الثقافة يمكن ان يستفيد منها ، ويمكن ان يذوق فيها للثقافة طعما ، كما يمكن ان يجد فيها لذته وراحته وهناءه ، ذلك لان جمعياتنا الادبية ونوادينا الرياضية بما تبذله من نشاط ادبي وفني ورياضي كفيلة بان تقوم بواجبها في هذا الميدان خير قيام ، فعصر النوم قد مضى ، وجاء عصر الصحو والافاقة .

قاعات العرض السينمائي والمسرحي : وهي من القاعات التي يقبل عليها الجمهور المغربي اقبالا منقطع النظير ، ولكنه لا يفيد منها الا النزر اليسير ، فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار قصر فترة ما بعد الاستقلال معتبرين ان قصرها مانع من حدوث نهضة في هذا الميدان ، فانه ليس هنالك من امارات تدل على محاولة تطوير السينما المغربية وتوجيهها .

السينما وسيلة حية من وسائل الثقافة الشعبية وسبيل هام من سبل انقاذ الجماهير وتوجيهها التوجيه الصحيح ، ولكنها مهملة الى حد بعيد .

وما نرى في قاعات عرضنا السينمائية الا الخلاعة والمجون ، في لغة بعيدة عنا او في لغة (عربية) مقطعة خير منها العدم ، لما تدخله في روع جماهيرنا بان تلك « العامية » هي العربية الفصحى .

اما المسرح ، فليس لنا فيه — فيما اعتقد — من ارث اجنبي ثقيل ثقل ارثنا في الميادين الاخرى مما يجعل من السهل انشاء مسرح مغربي قويم ، وهنالك محاولات مسرحية مغربية ناشئة لم تؤت اكلها بعد ، وليس من اهدافها — في الوقت الحاضر على الاقل — ان تكون من بين وسائل الثقافة المغربية الهامة ، ولعلها تسعى الى « الفكاهة » و « النكتة » و « السلوة » و « الترفيه » اكثر مما تسعى الى الفن المسرحي الاصيل ، ان هذه المحاولات على ما يخالطها من نقص في الوسائل والغايات هي محاولات مغربية على كل حال ، لا يسع الانسان الا ان يشجعها ، ويتمنى لها النجاح وحسن التوجيه .

الاذاعة المرئية والاذاعة المسموعة : اما الاذاعة المرئية فلا يزال الحديث عنها سابقا لاوانه لانها لم تولد بعد ، ولكنها — فيما يبدو — ستكون احسن حالا من السينما المغربية على كل حال للظروف السعيدة المحيطة بولادتها ..

واما الاذاعة المسموعة ، فليس من اختصاصنا ان نتولى برامجها بالنقد والتعقيب ، ولكن الحديث عنها كوسيلة من وسائل الثقافة المغربية ، قد يفيد موضوعنا هذا في قليل او كثير .

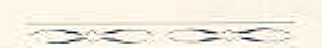
مهمة الاذاعة المغربية في ان تنقذ المثقفين من كل « كل عقلي » قد يصيب احدهم نتيجة التواضع او عدم محبة الظهور ، كما ان من مهمتها ايضا اكتشاف العبقريات المخبوءة التي تضن بثقافتها على الجمهور : على الاذاعة انزال امثال هؤلاء من ابراجهم العاجية الى اسواق الشعب وانديته في احاديثهم واذاعياتهم وسائر ما ينتجون .

والاذاعة «الموجهة» — فوق هذا — خير زاد ثقافي يتلقاه الانسان المغربي عن طريق السماع بالدرجة الاولى ، وعن طريق المشاركة في الاحاديث الثقافية بالدرجة الثانية .

اما في الصعيد الشعبي او « الفني » — ان صح التعبير — فان عليها توجيه المفتنين والمغنين توجيها عربيا فنيا صحيحا ، ذلك لان آذان جماهير الشعب انما تنتظر من الاغنية ان تذاع مرة لتتلقفها منهم ، ناشرة لها في ابعد الآفاق بما فيها من خير او من شر ، ولا شك ان التوجيه الصحيح يفرض على الاذاعة ان تشجع المفتنين ، وتكشف عن المغمورين من ذوي الفن الاصيل .

× ×

تلك جوانب ولمحات خاصة ، عرضت لها من زاوية الثقافة الصرف ، معرضا عن النظر اليها من مختلف نواحيها وزواياها حصرا للموضوع ، ويوم يأخذ الجيل الصاعد على عاتقه النهوض بهذه الوسائل الثقافية المختلفة ، كل في ميدان تفوقه ونبوغه واختصاصه ، نرى ان هذه الوسائل ترتفع بنفسها — كما ارتفعت من قبل في التاريخ — من مرحلة القومية الى مرحلة الانسانية ، ويومها نسمع عن انتشار الكتاب المغربي في الشرق العربي ، وعن ترجمات للكتاب المغربي الى بعض لغات العالم ، كما نسمع يومها عن التعاون الثقافي المتبادل والمتساوي الاطراف بيننا وبين مختلف الامم ، في ميدان الثقافة والتربية والتعليم كما يتحدث الناس ايضا عن الطابع المميز لجمعياتنا الادبية ونوادينا الرياضية كجمعيات عالمية ذات نظام ممتاز ، ويومها تكون لنا مسرحيات عالمية نرفع بها الراس ، وتبادل اذاعي قوي على مختلف المستويات.



الشهيد مولود فرعون وصحبه الخمسة

بقلم عمانويل روبلس

ترجمة الاستاذ : ابراهيم الهواري

فى 15 مارس الماضي استشهد الكاتب الجزائري الكبير مولود فرعون مع صديقه ولد اوديا واربعة فرنسيين من اصدقائهما ، وكانوا جميعا من رجال التعليم .. وقد اصدرت جريدة «الآداب الفرنسية» التي يشرف عليها الشاعر الفرنسي الشهير اراجون عددا خاصا حول الاديب الجزائري الشهيد وصحبه الذين ذهبوا ضحية أيدي الجيش السري الآثمة ، فكتب الاستاذ الروائي عمانويل روبلس مقالا فى الموضوع لانه كان صديقا كبيرا للشهيد .. وبالرغم من ان المقال لم يتناول دراسة مؤلفات مولود فرعون فانه يلقي الكثير من الاضواء على أديبنا الراحل فى حياته الخاصة والعامة عبر علاقته المتينة مع كاتب المقال ...

انني اتساءل كيف يمكننا ان نتحدث عن مولود فرعون فى هذه الساعات التي نشعر فيها وقد تضبت قوانا وجف تفكيرنا ، وهدنا الالم والتمرد الذي لا يحتمل ؟ انني لا املك امام هؤلاء الشهداء الستة الا رغبة واحدة هي الافصاح عن المي ، وسب القتلة الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، والذين مدوهم بالسلاح ...

ليس ثمة اي تبرير لهذا السفك الشنيع ، فمولود فرعون وصحبه كانوا جميعا رجال سلام وانا قد عرفت اغلب هؤلاء الضحايا : عرفت مارشان ، وباسي ، وولد اوديا الذي كان هو الآخر صديقا عزيزا. نعم . كان مولود فرعون انسانا طيبا ، يتوفر على صفاء نفسي خاص . وقد قابلته اول مرة سنة 1932 فى الجزائر وكنت قد وصلت اليها آتيا من وهران ، اما هو فكان قادما من القبائل وسرعان ما تآلفنا ، لان اشياء عديدة موحدة كانت تربط بيننا ، اذ كنا معا ابنين فقيرين يدركان جيدا ان عليهما ان يستعدا ويكافحا ليتغلبا على متاعب الحياة ...

كان مولود ذا تواضع جم ، وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية حتى قابلته فى تلك المنطقة الجبلية الشامخة حيث جئت اليها صحبة فرقة تمثيلية للهواة كانت تعرض مسرحية « لقارسيا لوركا » على انظار البدو الجزائريين ، ولم يذكر لي مولود حينئذ اي شيء يمكن معه ان استشف تعاطيه للكتابة ، ومرت شهور فتلقيت كتابه الاول ، وكان قد طبعه على حسابه الخاص ومهره بالاهداء التالي :

« الى عمانويل روبلس مخافة أن أبدو لديه سخيفا » . وقرات الكتاب ثم أرسلت اليه على الفور قائلا : ان كتابه يشرف اي دار من دور النشر فى باريس وانه اخطأ فى طبعه على حسابه الشخصي ، وعاتبته على عدم اشعاري بمؤلفه عندما كنت بتاوريرت فاجابني برسالة ضاحكة لان مولود لم يفكر يوما ما ان كتابه يمكن ان يكون ذا قيمة ، وقد اندهش بالفعل لما اخرجت دار النشر لوسوي le seuil نسخة جديدة من كتابه ، وترجمته الى الالمانية والبولونية والى غيرهما من اللغات .

ان مسحة اللطف والخجل التي كانت تظهر على مولود فرعون كانت تخفي خلفها اصرارا صادقا ، وانفة القبائليين الشم ، ولقد كنت كثيرا ما اذهب الى الجزائر فأزوره فى القرى التي يعلم بها فالمس عن

كتب كيف كان الناس جميعا يحبونه ويتحدثون عنه بفيض من الصداقة والود ..

وفي شهر مايو سنة 1956 امر بالمشاركة بصفته مديرا لمدرسة في احياء ذكرى احتلال الفرنسيين لمنطقة « فور ناسيونال » Fort National سنة 1870 ؛ لكن مولود اجاب علنا دون ان يتخلى عن بشاشته المعهودة بانه يرفض المشاركة كمدير وكجزائري في احتفال يرمي الى اهانة اخوانه الجزائريين ، فاجيب علنا كذلك بانه ان لم يقبل المشاركة في الاحتفال فسيكون بعد ايام جثة عفنة ملقاة في خندق . وكان الرجل الذي هدده يملك السلطة الكافية لتنفيذ وعيده، لكن مولودا لم يتخل مطلقا عن تصميمه ، وكنت انا الذي دفعته الى ان يطلب الانتقال من مقر عمله الى مقر آخر كي يسلم من الخطر ...

❋ ❋ ❋

وفي الجزائر كان مولود دائم الشكاة من بعده عن قبيلته على الرغم من الصداقة التي كنا نحيطه بها ، وحين غادرت الجزائر اثر الحادثة التي مات فيها ابني، لم يخف عني قلقه ، وكنا نتبادل الرسائل اسبوعيا فكتب الي مرة يقول :

« اقول في نفسي احيانا لقد كان عليك ان تبقى هنا معنا رغم كل شيء ، ان الجزائر تجعلني اشعر وكانها اصبحت مثل دار اخرج اهلوها الذين كانوا يستطيعون ادارتها بنية حسنة ، واحتلها اجانب قاصرون فحولوها الى منفى للتعذيب .

نعم انا احس اننا جميعا هاربون ، سليبون ، سواء منا اولئك الذين هاجروا يائسين ، ام هؤلاء الذين ما زالوا مقيمين عاجزين ، واني لاسائل نفسي احيانا : من الذي يضع القوانين في هذه البلاد يا ترى، اهم الثلاثة المعصوبو العيون الذين عادوا من تونس والمغرب ؟ ام هم هؤلاء الذين انتسبوا الى الوطنية منذ عهد قصير ؟؟ حقا انه لالم مبرح ...

اي صديقي ؟ انا لا اهتم بانفسنا نحن ، لكني اعتقد ان عليك ان تفكر في الرجوع الى هنا والا تفكر مطلقا في مقام مستديم بفرنسا ، ان في الجزائر امورا شتى تتطلب منا ان نعيدها الى نصابها . فمن واجبنا ان نمنع اولئك الذين آذوا طويلا ، من ان يتمادوا في ايذائهم . واني اعتقد اننا لو كنا مجتمعين ومعنا آخرون فاننا سنجد لا محالة عملا نافعا نبرر به حياتنا ...

قد اكون انسانا متفائلا : لكنني ساظل مشدودا الى فكرتي هذه رغم شذاجتها ، لانها اصبحت ملاذي الوحيد بعد اسبوع من القلق » ...

قبل مولود ان يهجر المدرسة التي كان يديرها في « كلوسلامبيير » Clos Salembier وانضم الى المراكز الاجتماعية للتربية كي يبتعد عن الاستفزازات التي كانت تلاحقه ، فكتب الي مرة يقول : « انبئك قبل كل شيء ان مناوشات الرؤساء ووقاحات المديرين الكبار بدات تضايقني ، واني لاصدقك القول بان هذه المناوشات ستقودني في النهاية الى كره مهنتي ، هذا الكره الذي لم يملأ قلبي في اي وقت خلا ، لقد اصبحت لا ابرح منزلي ولا اقابل اي انسان ، ولست ادري الى متى ستمتد هذه الازمة ، لكن على الرغم من معرفتي بانك لن تستطيع عمل اي شيء في هذه الظروف فانني اقول لك : « ليتك كنت هنا »

وفي رسالة بعث بها الي في 20 نوتبر 1960 حدثني فيها عن اتصالاته الاولى بالمراكز الاجتماعية فقال : « لست اعرف بالتحديد ما اقوله لك عن عملي الجديد ، حقا انني من الناحية المعنوية اكثر استقرارا، لكن الامور كلما كانت اقل وضوحا في ذهني ، وكنت غير واع تماما بما اقوم به ، اصبحت غير متمسك بواقعي وعملي ...

لقد كنت في « القبائل » اعرف العمل الذي يناسبني ، لكني منذ ان جئت مدينة الجزائر وانا احس ان حياتي لم يعد لها الا مفهوم واحد هو مفهوم الرجل الذي يدرك انه يوجد ليشيخ ويهرم وينشيء اطفاله الذين سياخذون مكانه رويدا رويدا » ...

وفي 8 مارس 1961 ردا على كلمة ودية كنت قد ارسلتها اليه اجابني قائلا : « ان الاوضاع لم تتغير ، فالاحزان تتخطفنا ، والامراض واللامبالاة والارهاق ، فاذا كنت نسيتك فاعذرني ، انني لاتمنى في بعض الاحيان الموت — وابادر الى الاشارة بانني لا اهتم به — وانما اتمنى ان افقد عقلي ، انني اقول لنفسي بان في دنيا الحمقى انعتاقا لا يعرفه العقلاء ، فتصور يا صديقي انني لا املك حتى القدرة على فقد عقلي ؟

لكن يجب ان نواصل هذه الحياة ونتباهى بهـا ونبتسم فيها للاوغاد ، والمكرة ، لعلهم يخلون سبيلنا ، فان مواصلة الحياة على هذا الشكل امر يسير ...

وبعد اني لا انتظر شيئا هامـا من جهتــك لان المسـافة بيننا شاسعة ، وكل ما اتمناه ان تتاح لنا فرصة للحديث ، وحتى لو اتيح لي ان اطير لمقابلتك فى باريس فانني ساعود اكثر تمزقا اذ سالمس انك هناك محتاج الى قدر احتياجي اليك . لكن ما اغبطك عليه حقا هو ان لك هنــاك اصدقــاء خلصــا يشــدون من ازرك ، ويرفعون من معنويتك » ..

❊ ❊ ❊

وجاء مولود فى النهاية الى باريس مع المتدربين الذين سيعملون فى المراكز الاجتماعية للتربية ، وفى كل مرة كنت اسافر الى الجزائر واقابله كنت اجده اكثر اضطرابا . وفى شهر دجنبر المنصرم عادنـي رفقـة صديقنا الشهيد ولد اوديا فى الليلة التي كانا يعتزمان فيها الرجوع الى الجزائر ، وبعد ان انتهى الاجتمـاع القصير بيننا رافقت مولود الى الفندق الذ ينزل فيه ، واني مازلت اذكر تلك الليلة الممطرة عندما تركته امام باب الفندق فرفع يده الي مودعا وكان وداعا حقيقيا . اني لاجزم ان شعوره الباطني كان يوحي اليه بذلك ...

اخذت الحوادث تتوالى امام عيني مولود فى الايام الاخيرة ، فكان عليه باديء ذي بدء ان يرحل من المنزل الذي كان يسكنه فى حي « البيار » اذ كان الجزائـري الوحيد بين الاوروبيين ، وقد تلقى ذات يوم امرا باخلاء مسكنه فى اربع وعشرين ساعة والا قتل ، فاعطتـــه الادارة التي يعمل بها مسكنا جديدا اشترته حديثـــا لتجعله ملحقا للمدرسة ...

وفى شهر فبراير اخبرته بعزمي على القيام بجولة فى افريقيا السوداء لالقاء محاضرات ادبية فكتب الـى يقـــــول :

« ليس فى هذا الجو الذي نعيش فيه اي جديد، فرغم انني اقيم فى مسكن مترف فان كل ما يحيط بي مسمم ، ان كل شي ءموضوع فوق فوهة بركان ، واني لانتظر مع المنتظرين لقد عدت بالامس من مدينة بوجي « Bougie » حيث كنت اتفقد التعاونيات التابعـــة المراكز الاجتماعية ورغم جمال البلاد فان كابوســـا ثقيلا لم اعرفه من قبل قد جعلني اختصر رحلتي الى يومين اثنين » ...

وفى اواخر شهر فبراير السالف كاد مولــود ان يقتل فى هجوم خاطف لولا انه فر واحتمــى فى محــل تجاري لبيع الاحذية ، لقد اخبرتني بهذه الحادثـــة احدى بناته ، اما هو فكان مريضا مرهق الاعصــاب لا يقوى على الكتابة ، وكان قد اصر على عدم الخروج من منزله لكن الموت ساقه الى اجله المقدر ، ففي 15مارس غادر مولود داره الى حي « البيار » حيث كان الموت على موعد معه ...

❊ ❊ ❊

وفى هذا التاريخ نفسه الذي دارت فيه المجزرة الرهيبة فقدت ــ علاوة على مولود فرعون ــ صديقا عــزيــزا آخر هو ولد اوديا ــ وآخر مرة رايــت فيهـا اوديـا « كانت حينما عاد الى باريس لاجراء تدريب ، وشعرت انه بدوره كان يحس بمصيره المؤلم ، ولشدما نصحته بتأخير رجوعه ولكنه ابى ان يتخلف عن اصدقائه ...

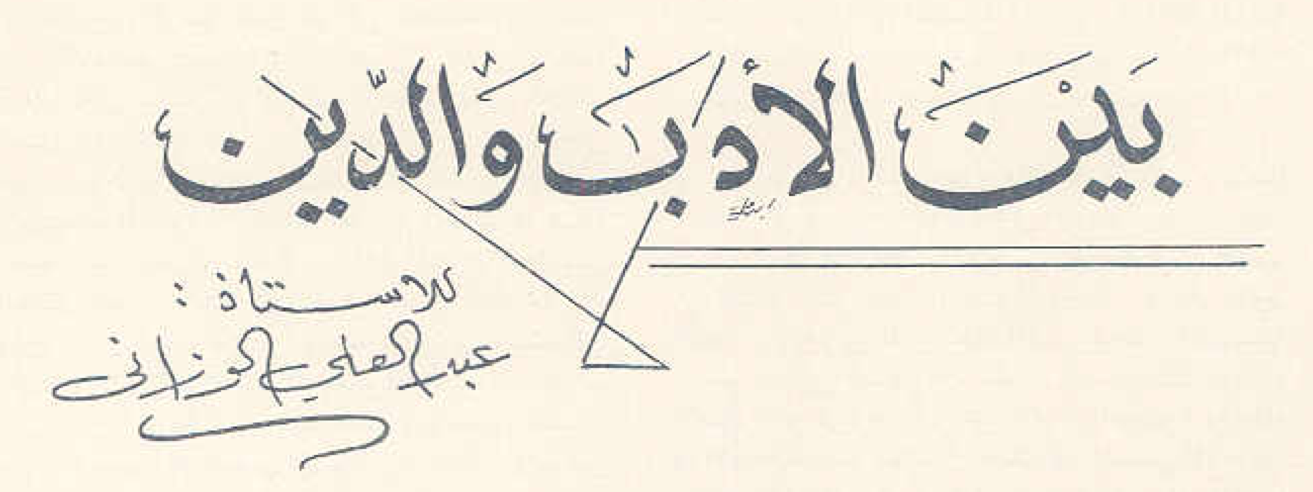
وفى نهاية فبراير الاخير ــ وكنت فى ساحل العاج ــ تلقيت رسالة مؤثرة من ولد اوديا قال فيها :

« اي جو هذا الذي نعيش فيه نحن ! اني لست قادرا على وصفه لك ، ها انذا اعمــل وســط الريبـة والقلق والاسى فاشعر وكأنني اسير فى حلم ، ان الموت يرقبنا من كل جهة ، ولكن التخلي عن الواجب مع ذلك امر عسيـــــر » ...

لقد كان ولد اوديا مثل مولود فرعون ومثل باقي اصدقائه انسـانا مرموقا ومربيا ممتازا يتوفر على خلق رفيـــــع ...

والآن ... يجب ان تعلم جيدا ان الاسلحة التي سددت الى صدور هؤلاء الشهداء العادلين ، ستظـل الى الابد مسـددة الينا نحن ، لا الى حياتنا فحسب بل الى ما هو اثمن من الحياة ...





بيـــن الادب والدين اواصر قرابة ، وروابط نسب ، اذ هما يلتقيان فى كونهما ينبعان مـن اعمـاق القلوب وقرارات النفوس ، ويهدفان معـا الى تهذيب النفس الانسانية والسمو بها الى اسمى ما قدر لها من مراتب الاشراق والكمال ، ويرميان الى استثمار عناصر الخير والجمال فى الانسان قصد تنميتها وتغليبها على عناصر الشر ، ويسعيان وراء التلطيف مـن حـدة الغرائز والشهوات المادية وتوجيهها الى اعلى ؛ حتـى تنقلب الغرائز الى عواطف مهذبة رقيقة ، وتستحيـل الشهوات المادية الى شيوات وملذات روحية ، وحتى يتسامى الآدمي الحيوان الى آدمي انسان ، يشعـر بمعاني الخير والحق والعدل والجمال ، هذه التي هي محور كل رسالة ادبية ، وكل رسالة دينية . والحياة الروحية للانسان عالم مليء بالاسرار ، متعددة المظاهر، ما بين دين وادب وفـن ، فالصلوات وءايـات الادب وروائع الفن ، ان هـي الا اساليب متنوعة للتعبير عـن حياة روحية واحدة ، ومهما تعددت البواعث فمردها جميعا الى الطاقة الروحية التي هي كل لا يتجزا ، ومن ثم كان فى الادب قبـس من الدين ، وكان فى الدين قبس من الادب ، وقبـس الدين فى الادب هـو الالهام الـذي يشبه الوحي عند الانبياء ، وقبس الادب فى الدين هو الوسيلة الادبية التي يعتمدها فى التاثير والاقناع .

ولا يبتعد الادب عن الدين الا اذا كان متحررا من قيود الاخلاق ، فعندما يصور الادب الرذيلة للترغيب فيها وتحبيبها الى الناس ، او يدعو الى فاحشة محرضا عليها ، او يلهب فى القراء غرائزهم الحيوانية ، او ينشر فلسفة الحادية تصرف الناس عن الايمان بالمقدسات الروحية ، حين يتجه الادب الى كل ذلك او ما هو مـن قبيله ، يكون قد ابتعد عن الدين ، بل يكون معه على طرفي نقيض . ولا يخفى اننا هنـا لانبحث موضـوع وجوب التزام الادب لقيود الاخلاق او ضرورة تحرره منها ، وانما نحن بصدد بيان عوامل التقريب والتبعيد بين الادب والدين . والادب عندما يدعـو الى المثـل العليا ، ويربط افراد البشر برباط متين من الشعور الانساني الموحد ، ويهز الضمير الانساني هزا عنيفا ، ويصور خطايا البشر لاظهار شناعتها وقبحها وويلاتها. ويتغنى بجمال الحياة وعظمة الكائنات ، ويحذر مـن طغيان المادة على الروح ، ويحقق المشاركة الوجدانية بين الانسان واخيه الانسان ؛ فهو يخدم ــ عن قصد او عن غير قصد ــ اغراضا دينية بالدرجة الاولى ؛ ومن منا ينازع فى ان هذه لب لباب الدين وجوهره الصحيح.

وكثير ما التقى الادب والدين فى فنون ادبية تعد من الروائع ، فادب التصوف عند ابن الفارض وابـن عربي وابي حيان التوحيدي وغيرهم ، وقصائد المدح التي قيلت فى صاحب الرسالة الاسلاميـة ، وفى ءال بيته ، وفـن التسبيح والتحميـد ، وادب المناجـاة الالاهية . كل ذلك امثلة حية ، لاتصال الادب بالدين فى وحدة منسجمة الخيوط متلاحمة النسيـج ، وهـذا القرءان الكريم نفسه التقت فيه المعجـزة الدينيـة السامية والمعجزة الادبية الخالدة ، الاولـى تظهـر فى المقاصدوالاغراض والثانية تتجلى فى الاسلوب والبيان، والادب عندما يلتقي بالدين ويلقح بلقاحه ، ويتعطـر بشذاه ، يتبادلان بينهما التاثير ، فالمعاني الدينية تكتسي حلة من ناصع اللفظ ، وزخرف العبـارة ، وطـلاوة الاسلوب ، تفتح لها اقفـال القلـوب ، وتذلل امامهـا جفاء الطباع ، وتتقدم بها نحـو النفـوس الضعيفـة لتنيرها وتهبها قوة اليقين ، وثبات العقيدة ، وما ذلك الا لان الادب هو اللغة الانسانية التي تتصل بعاطفـة

كل الناس في الوقت الذي تعبر عن عاطفة انسان معين، ولان الادب هو الخط المشترك بين كل الناس ، فله في كل نفس نسب وفي كل قلب قرابة ، فما ان يخاطب انسان بلغة الادب تلك الرقيقة الجميلة الموحية ، حتى تمس فيه وترا حساسا وعاطفة اصيلة ، فتقع الاستجابة المرجوة ، وتحدث المعجزة ، يذكرنا هذا بقصة اسلام عمر بن الخطاب ، ذلك البدوي الجاهلي الخشن الطباع ، فقد كان يحارب الدعوة الجديدة بكل ما في دمه واعصابه من قوة وعنف ، فما ان يستمع الى سورة من القرآن الكريم ــ المعجزة الادبية الخالدة ــ حتى تلين قسوته ، ويرهف حسه ، وتمتلىء نفسه نورا ، فيذعن وهو العصي ، ويهدا وهو الثائر ، ويسلس وهو العنيد ، ويسلم وهو الجاحد .

واما تاثير المعاني الدينية في لغة الادب ، فهو اعطاؤها لونا خاصا يميزها عن بقية فنون الادب ، اذ يجعل منها فنا خاصا هو ذلك الادب الديني الذي يصور الشعور بالدين في ارقى مستوياته والطف معانيه . والشعور الديني اذا تناولته لغة ادبية تجيء كفاء له ، يعتبر من اسمى الوان الشعور التي صورتها الآداب الانسانية . ويؤثر الدين في الادب من ناحية ثانية ، وهي ان كثيرا من الموضوعات الدينية يتخذها الادباء مجالا لنشاطهم . فهذه غزوة بدر قد قيل فيها شعر كثير ، ويكتب توفيق الحكيم مسرحية عن محمد الرسول ، كما يكتب الدكتور احمد بدوي مسرحية عن اسلام عمر ، وتوحي السيرة النبوية للدكتور طه حسين باروع مؤلفاته (على هامش السيرة) وهذا كتاب الف ليلة وليلة يحتوي على موضوعات دينية مختلفة ، ففيه آثار المعتقدات الاسلامية والاسرائيلية والنصرانية والمجوسية ، كما يظهر ذلك في قصة (سيف الملوك وبديعة الجمال) وقصة (قمر الزمان بن شهرمان) وقصة (علي الزيبق المصري) وقصة (الوزيرين بدر الدين وشمس الدين) الى غيرها من القصص ، وهذه الياذة (هوميروس) تدلنا على الديانات العامة والديانات المحلية الخاصة بالشعب اليوناني وكذلك الشان في (الاوديسا) فهي تعتمد على العقائد الدينية نفسها التي تعتمد عليها الالياذة (1) . ويستوحي الاديب الامريكي (مارك توين) قصة آدم وحواء الواردة في الكتب السماوية فيكتب (مذكرات آدم وحواء) كما يستوحيها العقاد في كتابه (هذه الشجرة) وهكذا نجد ان الادب كثيرا ما يتناول موضوعات دينية في القصة والمسرحية والخرافة والملحمة والشعر واجدا فيها مادة غزيرة ما زال الادباء يتواردون عليها يستلهمونها في كل زمان ومكان .

وان الدين السماوي ، والادب الانساني ، لهما معقد الامل في دوام التوازن بين المادة والروح في حياة الانسان . في هذا العصر الذي تزعزع فيه ايمان كثير من البشر بالمثل العليا والقيم الروحية ، وصار قانون المنفعة ، وناموس المادية هما اللذان يوجهان اغلبية الناس ، ولكن لاينبغي ان نتشاءم بسبب ذلك مادام الايمان بالله قويا في كثير من النفوس الطيبة ، وما دام في الانسانية قلب يتعشق الجمال في الشمس اذا غربت والنجم اذا تالق والزهر اذا تفتح ، والفجر اذا تنفس، والغصن اذا تثنى ، والطائر اذا غرد ، فيكون لذلك صداه في شعر الشاعر ونثر الكاتب .

وان المتتبع للحركات الادبية في الشرق العربي ليلاحظ ان هناك حملة على الادب في بعض الاوساط ، بحجة ان الامة العربية في وقتها الراهن ، في حاجة الى العلم لا الى الادب ، فكفاها خيالا واحلاما ولتوجه كل جهودها الى التصنيع والاختراع ، حتى تلتحق بالغرب الجبار ، وهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام ينسون أو يتناسون حقيقتين هامتين : اما الاولى فهي ان الناس لم يفرغوا كلهم في قالب واحد ليصبحوا كلهم علماء ، واما الثانية فهي انهم ينسون او يتناسون ان الادب لا يستعمل في مقابل العلم ، فبينهما روابط متينة ، لان من عناصر الادب الفكرة ، ومن وسائله القواعد العلمية، وهو بمعناه العام تدخل فيه الفلسفة وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التاريخ ، والعلوم القانونية ، بل كل علم كتب باسلوب الادب الا ويعد ادبا بمعناه العام الواسع ، كما هو مقرر في كتب الادب والنقد ، واذن فليس الادب كله خيالات واحلاما وضلالا في مختلف الدروب والاودية ، وهذه الحملة ضد الادب يرافقها ضعف في الوازع الديني في كثير من النفوس ، بل ان الدين يهاجم باسم حرية الفكر ، والتشبع بالروح العلمية ، وتحرير الشعوب مما يسمونه مخدر الدين ، ونحن هنا لانريد ان نعيد ما كتبه الباحثون في الرد على هذه المزاعم ، فحسبنا هذا القدر في بيان التهم التي اصبحت توجه الى كل من الادب والدين ، وهما معقد الرجاء في استمرار الحياة الروحية التي لولاها لكانت الحياة جافة لاتطاق . فهما ضمان استمرارها حية

---

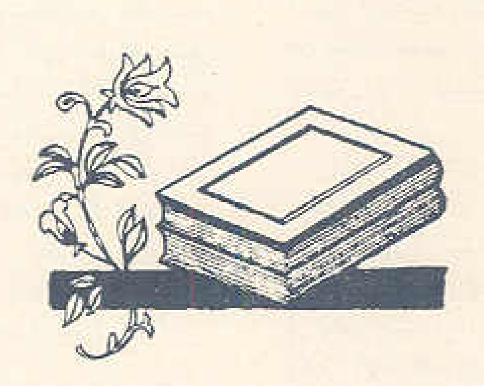
1) الادب اليوناني القديم للدكتور علي عبد الواحد وافي ص 76 و 86

قوية مشرقة يفر اليها الانسان من واقعه المرير ، ويجعلها معتصما لشخصيته كانسان ان تعدو عليها المادة فتجرفها وتسحقها تحت كلكلها الثقيل ، ولست اعني بانفرار من الواقع الهروب من مشاكل الحياة ومن مواجهتها ، وانما اقصد الاستراحة من وطأتها ورتابتها بالعودة الى النفس بعد ضياع عنها في معترك الحياة وصراع الوجود : لصلاة اؤديها ، او قصيدة اترنمها او قصة اعيش مع ابطالها وشخوصها او ما الى ذلك ، وهذا هو الحد الادنى الذي ياخذ به الانسان من الادب اذا لم يكن من المشتغلين به ، فالصانع والعامل ، والطبيب والمهندس ، والمخترع ، كلهم ياخذون من الادب بحظ ، لانهم يجدون فيه انفسهم باحلامها وامانيها واشواقها ، اما المشتغل بالادب فهو لا يعني عنده متعة على الهامش ، بل هو موضوع حياته ، ومحور نشاطه .

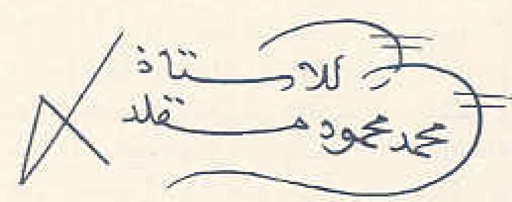
•

والدين والادب جزء من كياننا النفسي ، وضرورة من ضرورات وجودنا ، وليس ادل على ذلك من ان الانسان عرفهما قبل ان يعرف العلم ، وقبل ان يعرف النظم والقوانين ، ويتغلب على عوامل الطبيعة ، فالانسان بطبيعته يحتاج الى قوة خفية تسنده ويفرغ اليها في ازماته ، ومن هنا نشا الدين ، والانسان يتأثر بكل ما يحيط به ، والتأثر يدفعه الى التعبير عن انفعالاته ، ومن هنا نشا الادب ، فهما بذلك من لوازم حياة الانسان ، وما خالف احد عمل الطبيعة الا شقي شقاء مرا اليما ، فالانسان اذ يقاوم الدين وينبذه يعيش في فراغ نفسي كبير ، ويصير نهبة المذاهب والاتجاهات ، كريشة بين مهاب الرياح ، وهو عندما يتنكر للادب ، فلا يمد روحه بالغذاء الضروري ، ولا يتركها تعبر عن اشواقها وءامالها وسعادتها وشقائها ، يفقد تدريجيا وجوده وكيانه كانسان ، ويصبح عبارة عن ءالة تتحرك ، وذلك هو الضياع والانتحار الادبي في ابشع معانيه .

فاس : عبد العلي الوزاني



من أدب النكبة الفلسطينية



استلهمت هذا المقال من وحي النكبة الفلسطينية ، ووجهني اليه تلك المحاولة الآثمة التي تقوم بها اسرائيل ، لتحويل مجرى الاردن ، هادفا من ورائه الى تذكير العرب بالمأساة على لسان صفوة من شعرائنا المبرزين ، عسى ان يكون في تذكيرهم عظة وعبرة ، ولفت وتنبيه وأملا في ان يستيقظ الضمير العربي الحي ، فيبحث عن وسيلة للقضاء على تلك الزعنفة التي تتحرك من آن لآخر مهددة منذرة ، والذكرى تنفع المؤمنين .



رزىء الوطن العربي بشرذمة من افاقي الامم لا تجمعهم رابطة نسب ، ولا تصلهم وشيجة قربى ، ومنى بحفنة من سماسرة الاستعمار ، استقرت في قطعة عزيزة من ارض العروبة باسم (الوطن القومي) لليهود ، متشبثة بدعايات كاذبة ، وشعارات خادعة ، ومتوسلة بهذه الدعايات والشعارات الى سادتها من امم الغرب الذين لفظوها من بلادهم ، اتقاء شرها ، ومكنوا لها في هذه الارض المقدسة ، ليكون لهم في قلب العروبة بؤرة فساد ينشرون منها سمومهم ، ووكر فتنة يحيكون فيه مؤامراتهم ، وتعهد هؤلاء السادة وليدهم غير الشرعي ، فأمدوه بالمال والعتاد ، ليكفلوا له النماء ، ويضمنوا له البقاء ، وسلمه الانجليز بعض البلاد ، تحديا لمشاعر العرب ، وغدرا بهم .

وقد نشأ عن هذا التصرف الشائن محنة فلسطين ، وتقسيمها ، ثم حرب خاضتها الدول العربية ضد اليهود ، حتى كادت جيوشها تحتل « تل ابيب » العاصمة المزعومة لاسرائيل لولا ان تدخل حلفاؤها من دول الغرب لحمايتها وفرضوا الهدنة فرضا لمصلحتها ، حتى تظل خنجرا مصوبا الى قلب العروبة .

ومرت الاحداث تباعا ، ووقعت مأساة فلسطين ، وظل جرحها داميا ينزى الما ، ويفيض حسرة وكمدا ، فاحس بوخزة كل عربي ، وهزت الاحداث مشاعر شعرائنا الذين عاصروا المحنة ، وعاشوا هذه التجربة وانفعلوا بها هزا عنيفا ، فانطلقت السنتهم بالشعر تصور المأساة وتشحذ عزائم العرب ، وتقذف بالحمم على العدو الغاصب ومناصريه من دول الغرب في شعر متقد حماسا ، مفعم حقدا ، كأنه الشهب ترصد كل افاق جبان ، وحليف مخادع .

وقد امتدت جذور هذه المحنة الى عام 1917 بذلك الوعد الآثم الذي قطعه (بلفور) وزير خارجية انجلترا على نفسه لليهود ، واتخذ طابعا ايجابيا ، تسمح لليهود بالهجرة الى فلسطين ، ومضت الامور في تطور مستمر ، حتى جاء عام 1936 فاشتدت المحنة ، وهب ابناء فلسطين لمقاومة الانجليز والصهاينة مقاومة عنيفة ، استرخصوا فيها كل غال ، واستعذبوا كل الم ، غير مبالين بما يتهددهم على يد المستعمر الغاشم ، والدخيل المحتال . وفي غمرة هذه الاحداث رأينا الشاعر الحموي (عمر يحيى) يأسى لأساهم ويتحرك لمحنتهم ، فيعرض علينا صورا متلاحقة للكارثة وما خلفته وراءها من ضحايا ، ويبين كيف تألب عليهم المستعمر الخادع ، واليهود الغاصبون ، وكيف ان هذه البقعة الطاهرة من الارض كانت مرادا

للصبا ، ومقرا للعز والمجد ، ثم يتحدث عن شجاعة اهلها وهمتهم وتضحياتهم ، وانهم قد بذلوا لفلسطين دماءهم في سماحة وسخاء ، وعن رضا وارتياح ، صاغ شاعرنا كل هذه المعاني في نغم ءاس حزين فقال ..

يا طير في القدس لنا اخوة
اضحى حماهم نهبة للذئاب
والمسجد الاقصى له رنة الـ
ـثكلى تنادي للعذاب المذاب
كم طفلة في ظله غضة
أشلاؤها انحت عليها الكلاب
وكم بناء شامخ هدمت
معاول الظلم ذراه الرحاب
معاهد كانت مراد الصبا
ومنزل للمجد رحب الجناب
اسود خفان حموا حوضها
بهمة وثابة واحتساب
باعوا دماهم في سبيل العلا
فاصبحت في عينهم كالخضاب

وما كادت ماساة فلسطين تقع ، وحربها تستمر حتى اصبحت نقطة تحول كبير في مشاعر العرب اذ فطنوا جميعا الى ان بلاد العروبة وطن واحد ، وان الدفاع عنها دفاع عن النفس ، وعن الاخ ، واللغة والتاريخ والدين ، بل عن الالام والآمال ، لذلك انطلقت الاناشيد الحماسية ، تشد العزائم وتستنهض الهمم ، حتى لا تتكرر ماساة الاندلس ، فيقول باكثير :

قد بدانا الكفاح	وشحذنا الرماح
وامتشقنا السلاح	وملانا البطاح
بجيوش العرب	نحن نحن العرب

ويقول الصاوي شعلان :

الى المجد هيا شعوب العرب
الى نهضة صبحها قد انار
لنا في العروبة اعلى نسب
يتوج بالنور شمس النهار

وحين ابطا قادة العرب عن نصرة فلسطين والثار لكرامتها ، منصرفين عنها بما يعقدونه من اجتماعات في العواصم العربية ، صاح الشاعر (موسى الحداد) يذكر بهزيمة اليهود في (خيبر) ويستحث فلسطين ان تنهض ، لتستعيد عزها ومجدها ، فهي لبيبة المجد ، وصاحبة التاريخ المجيد ، والماضي العريق الذي يكفل لها النصر والبقاء ، ويستنهض بني قومه ان ينقذوها ، ويذودوا عن حماها ، فهي التي ءازرت جيش الرسول في فتوحه ، وناصرت صلاح الدين في (حطين) و (القدس) ، وشهدت — غير هذا وذاك — مواكب انتصار المسلمين على يد عمرو ، وسجلت اروع نصر في (عين جالوت) وفي خلال ذلك يذكرنا باللاجئين الذين يعيشون في الفيافي مشردين كالسوائم ، يجترون ذكريات الماضي الاليم ، ويطلبون القوت فلا يجدونه ، ثم يتمنى للعرب ان يتحدوا في نصرة فلسطين ، كما اتحدوا في ملذاتهم ومباهجهم فيقول ..

يا ابنة المجد والعروبة هبي
واذكري خيبرا واسد الملاحم
واذكري القدس يوم صلاح الـد
ـين فيها يفل الجيوش الخضارم
سرحي الطرف وانظري في البوادي
تجدي اللاجئين شبه السوائم
وبنو امهم عن الثار لا هو
ن سدى باجتماعهم في العواصم

اما الشاعر العربي (محمود غنيم) فيسترجع تاريخ العرب ، ويتامل مواكبه ، فيرى في (حيفا) — وقد سقطت في يد اليهود — (عمورية) اخرى ، فيستنهض العرب جميعا ، ويناشدهم ان يسرعوا الى نجدتها ، وان يكون كل واحد منهم (معتصما) في نجدته وشهامته، فعزيز على ابناء يعرب ان يسكنوا على ضيم او يناموا على ذل،او يروا علما دخيلا يرفرف فوق حماهم،وبعيد جدا الا يلبوا نداء (حيفا) اخت (عمورية) — وقد استنجدت بهم — بجيش عرمرم مزود بكل وسائل القوة ، يعلنها شعواء تدع الدماء سيولا تخضب الارض، وتغسل ما عسى ان يكون قد لحق بهم من خزي وعار ، استرجع الشاعر التاريخ ، ووازن بين الاحداث والوقائع ، وانفعل بها ، فعبر عن ذلك في شعر هو مزيج من الاسى والالم .. والفداء .. والاباء ..

حيفا فديتك ما لجفنك ساهدا
وللحنك الشاجي استحال عويلا
ما بال اهلك شردوا وشراك قد
أمسى بغير ليوثه مؤهولا ؟
أعزز على ابناء يعرب ان يروا
علما يرف على حماك دخيلا !
يا اخت (عمورية) لبيك قد
دقت حماتك للحروب طبولا

نادبت (معتصما) فكان غياثه
جيشا شروبا للدماء اكولا
ما كان بالالفاظ جرس جوابه
بل كان قعقعة وكان صليلا
وازيز اسراب تصب شواظها
فوق الحصون فتستحيل طلولا
غضب الاباة لعرضهم فتخضبي
يا ارض ، واجري يادماء سيولا
انا لقوم ليس يمحى عارهم
حتى يرى بدمائهم مغسولا

ويشفق شاعر النكبة (ابراهيم طوقان) على مصير فلسطين ، ويهتز لمحنتها ، ويتتبعها منذ البداية ، ويأخذ على عاتقه تحذير بني قومه : واستثارة هممهم باشعاره التي تعد (ملحمة) هذا الكفاح المستميت منذ بدأ ، ومنذ باع بعض الاغنياء ارضهم لليهود ، ومنذ اوشك الخطب ان يقع ، وتتم اخته الشاعرة (فدوى) ملحمته ، وتصور ما حاق بقومها من تشريد وبؤس وحسبك ان تطلع على قصيدة (الشهيد) لاخيها ابراهيم فهي عنوان شعره الرائع النابض بالوطنية والفداء .

لقد صور (الشهيد) يبتسم للخطوب ، ويقتحم الاهوال بجاش رابط : وجنان ثابت ، غير مهتم بشيء، لانه يحمل بين جنبيه نفسا عالية ، تحكي الاعاصير فى ثورتها ، والبحر فى هياجه ، والجبال فى ثباتها ، قد صاغها الله من عنصر الفداء والكرم ، ونفحها بعزم متقد ، استمدته من حقها فى الحرية والحياة .

عبس الخطب فابتسم   وطغى الهوم فاقتحم
رابط الجاش والنهى   ثابت القلب والقدم
لم يبال الاذى ، ولم   يثنه طارىء الالم
نفسه طوع همة   وجمت دونها الهمم
تلتقي فى مزاجها   بالاعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضـ   ـم الى الراسخ الاشم
وهي من عنصر الفدا   ء ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة   لفحها حرر الامم

ويمضي الشهيد فى جهاده ونضاله ، يسلك سبيل المجد والعلا ، ويبتغي لنفسه الخلد مستقرا ومقاما ، مستعذبا كل ما يلقاه من اجله ، ما دام قد الزم نفسه به، ووطد العزم على نيله ، غير مفكر فى العواقب ، فسواء عنده امات سجينا ، لا يرثي له احد ، ام ووري التراب عاريا من الكفن ، وسواء عنده كذلك اعرف الناس مكان جسمه الطاهر ام لا ؟ فحسبه ان اسمه قد اصبح انشودة التضحية والفداء فى فم الزمن ، وانه سيصبح منارا لبني قومه فى جهادهم وكفاحهم كلما احدقت بهم المحن وادلهمت الخطوب ، يبعث فى العيون نور الامل فلا تنام عن حقها ، ويضرم القلوب بنار الحماس ، فلا تعرف حقدا ..

سار فى منهج العلا   يطرق الخلد منزلا
لا يبالي مكبلا   ناله ام مجندلا

فهو رهن بما عزم

ربما غاله الردى   وهو بالسجن مرتهن
لم يشيع بدمعة   من حبيب ولا سكن
ربما ادرج الترا   ب سليبا من الكفن
لست تدري بطاحها   غيبته أم القنن
لا تقل اين جسمه   واسمه فى فم الزمن
انه كوكب الهدى   لاح فى غيهب المحن
ارسل النور فى العيو   ن فما تعرف الوسن
ورمى النار فى القلو   ب فما تملك الضغن

ثم يستقبل (الشهيد) الموت متهلل الوجه ، مثلج الفؤاد يتغنى به فى اقباله ، ويعلل نفسه ويسعدها بما انشده فى ءاخر لحظة من حياته ، وبما اعلنه لبني وطنه من انه قد استشهد فى سبيل الله والوطن ...

اي وجه تهللا   يرد الموت مقبلا ؟
صعد الروح مرسلا   لحنه ينشد الملا

وما كادت سياسة الحلفاء تجاه العرب تتضح ، وموقفهم من (اسرائيل) ينجلي ، حتى راينا الشاعر الليبي (احمد الفقيه) يندد بهذه السياسة ، ويرى انها خداع وتظليل ، اذ تقوم على تقسيم فلسطين فى تحيف وظلم ، وامتهان لكرامة العرب فى تجاهل وغدر ، دون التفات الى ان فلسطين لم تكن فى يوم ما وطنا لليهود ، ولا خاضعة لطاعة مستبد ، بل كانت رمزا لانتصار المسلمين الرائع فى حروبهم ضد (الصليب) ، وعنوانا لمقاومة المستبدين من الطغاة ...

سياسة الدول الكبرى تمنينا
وبالدعاية والتضليل تغرينا
قضت وما عدلت فى الحكم اذ حكمت
غدرا ، ولم تنصف العرب الميامينا
ليست فلسطين دارا لليهود ولم
تخضع لحكم الطغاة المستبدينينا

ويفطن الشاعر العربي (محمد الاسمر) الى خداع اليهود وتغريرهم ، فينعى عليهم ظلمهم وتظلمهم ، بينما هم الظالمون المعتدون ، ويدرك مؤازرة الاستعمار الغربي لهم ، فيتحسر لفقد العدالة ، وان ليس هناك قضاة ثقاة منصفون ، يجمعون بين الخصمين فى مكان واحد ، ويفصلون بينها فى ضوء العدالة والانصاف ان حماة العدالة وسدنتها المزعومين حلفاء لاسرائيل، فهم الخصوم والحكم فى ءان واحد : فمن المحال — اذن — ان ننتظر منهم نصفة او عدلا ، وما علينا الا ان ندع كل سفسطة وجدل ، ونأخذ الامور مأخذ الجد ، ونحكم فى اليهود سيوفنا ، ونعلن لهم قوتنا ، ونكفر بكل من مكنوا لهذه الفئة الباغية ، ونطرح عهدهم وراءنا ظهريا ، فقد خانوا كل عهد ، وخفروا كل ذمة ، ومهدوا لشراذم اليهود اغتصاب ارضنا واقتحام عريننا ..

ظلم اليهود الناس ثم تظلموا
منهم ، فمن للظالم المتظلم ؟
اين القضاة العادلون ومن اذا
ما أصدروا حكما اتوا بالمحكم ؟
غلب الهوى فدع القضاة وحكمهم
واجعل حسامك ماضيا وتحكم
لا ترتقب انصاف قاض منهم
وخذ الامور كما تشاء وصمم
ودع الجدال ؛ فما الجدال بنافع
جرد حسامك ثم قم فتكلم
حلفاؤنا خانوا العهود ، ومهدوا
لشراذم الباغي صعود السلم

ثم يمضي شاعرنا (الاسمر) فى تهكمه بحلفاء اسرائيل وسخريته منهم ، مبينا كيف بلغ بهم الحرص على قيامها ووجودها حدا جعلهم يأتمرون بأمرها ، ويتغاضون عن اخطائها ، وينزلونها اكرم منزل ، برغم ما اقدمت عليه من اغتيال وسيطهم (الكونت برنادوت) ولم يجزوها على صنيعها هذا الا زيادة فى الرضا ، ومبالغة فى التقرب فى الوقت الذي تجهموا فيه للعرب، معلنين الغدر ، ناقضين للعهد ، تحدث عن هذا كله فى اسلوب ساخر فقال ..

ابناء صهيون بأية حيلة
امسى الحليف بكفكم كالملجم ؟
مهما يجد منكم فليس لكم لدى
زعمائه غير المقام الاكرم
لما قتلتم بالرصاص (وسيطه)
مرت فجيعته كأن لم يعلم
لو غيركم اودى به اودت به
وبقومه بطشات من لم يرحم
ولكم نقضتم عهدنا وعهوده
ولبستم للغدر شارة معلم
فحباكم منه الرضا متبسما
وحبا العروبة نظرة المتجهم

ومن شعرائنا العرب من وقعت المأساة من نفسه فى الاعماق ، فصام عن كل مسرة ، وانكر على العرب سرورهم وحفاوتهم بالاعياد ، ورءاهم جديرين بحزن عميق ، وحداد طويل ، لما آل اليه امر فلسطين ، فما زال جرحها غائرا داميا — من هؤلاء شاعر ليبيا (رفيق المهداوي) الذي يقول ..

ابعد فلسطين الشهيدة عندنا
سرور وعيد نحن بالحزن اخلق ؟
فلسطين فى الاعماق ما زال جرحها
يهيج دما او ادمعا تترقرق

اما اخطلنا الصغير (بشارة الخوري) فيشتد جزعه لما كابدته فلسطين ، ويرثي لحالها ، ويتأسى اساه لاساها ، ويعرب عن وفائه لها ، وبقائه على عهدها، فشرف لنفسه ان تذوق الموت فى سبيلها كريمة ابية، لا يثنيها وعيد ، ولا يخيفها تهديد ..

يا فلسطين التي كدنا لما
كابدته من اسى ننسى اسانا
نحن يا اخت على العهد الذي
قد رضعناه من المهد كلانا
شرف للموت ان تطعمه
انفس جبارة تأبى الهوانا
انشروا الهول ، وصبوا ناركم
كيفما شئتم ؛ فلن تلقوا جبانا

ومن من ابناء يعرب الامجاد لا يشق عليه ان يرى فلسطين رمز السلام والكفاح حزينة كاسفة ، او يرى اردنها مهددا بتحويل مياهه على يد الصهاينة ، ثم لا يقدم روحه هدية رخيصة فى سبيل الحفاظ عليهما ، والانتقام لهما من كل غاصب ظنهما مشاعا لمن شاء، او حليف غادر قدمهما طعمة لمن اراد ؟ اليك ما قاله الشاعر (ايليا ابو ماضي) فى ذلك ..

ديـــار الســـلام وارض الهنـــــا
يشق على العـــرب ان تحـزنـــا
بنفـــي اردنهـــا السلسبيـــــل
ومـــن جـاوروا ذلـك الاردنـــا
لقـد دفعـوا امس دون الحمـى
فكـانـت حـروبهـم حـربنـا
وجـادوا بكـل الـذي عندهـم
ونحـن سنبـذل ما عنـدنـا
فليست فلسطين ارض مشاعـا
فتعطـى لمـن شاء ان يسكنـا

وانى للعرب ان يقروا علينا ، او يطيبوا نفسا ، وقد اضحت فلسطين نهبا لحثالة الامم الذين دنسوا ثراها ، واستباحوا قدسها وحماها ؟ انى لهم ذلك وهم يحملون بين جوانحهم قلوبا فتية تخفق لمأساتها وعزائم قوية تهب لنصرتها ونجدتها ؟ فليحرموا على انفسهم كل مسرة وهناءة وليبادروا من كل فج وحدب الى افتداء فلسطين ، وليرددوا دائما قول (محمـد مصطفى الماحي) احد شعرائنا المخلصين ..

حـرام ان تقـر لنا عيـون
وقـد اصبحت نهـب الناهبينـا
حـرام ان تطيـب لنا نفـوس
وقـد امسى ثـراك بهم مهينـا
وحسبك ان تـرى فى كل صوب
قلـوب المفتـديـن المخلصينـا
قلـوب لـم تنـل منهـا العـوادي
ولا هـدت لها عـزمـا متينـا

وفى الوقت الذي نسمع فيه الى بلابل المشرق والمهجر تغرد بالحان الحماس تارة ، وتوقع على قيثار الاسى والحسرة اخرى ، نصغى الى شاعر مغربي يشدو بلحن الاخوة العربية الحقة فى الجناح الغربي من ارض العرب ، موصيا بني عروبته الا يخشوا حفنة من اللصوص تسللت الى قلب الوطن العربي سالبة ناهبة، ومطمئنا فلسطين على مصيرها ، وافتدائها بالروح ، فله بها غرام يفوق كل غرام ، وحب دونه كل حب ، لانه عربي صميم وزكاة العروبة عنده ، وحقها علينا موت تحت سماء فلسطين ، فنحن جندها الذين يلذ لهم الموت فى رباها . هذا الشاعر الذي اسمعنا شدوه معطرا بنفحات الاطلس هو السيد محمد العربي الآسفي الذي يقول ..

امـة العـرب حـان وقت العـراك
فى سبيـل الوفـا وصون حمـاك
امـة العـرب لا تهابـي لصوصـا
حاولوا سلب قلـب مثـوى رجاك
نحـن نرعـاك يا فلسطين بالـرو
وح فهبـي ، فكلنـــا لفـــداك
نحـن نفديـك يا فلسطيـن بالنـ
ـفس مرينـا ، فنحن طوع هـواك
لـي غـرام ولـي هيـام ، ولكـن
حبـك الاسمـى قـادنـي للهـلاك
نحـن عـرب ، وللعروبـة حـق
يوجب المـوت تحت ارض سمـاك

ولا يمر شعراؤنا العرب بمأساة اللاجئين المشردين من ابناء فلسطين مرورا عابرا ، دون ان تثير انفعالهم وتحرك مشاعرهم وقرائحهم ، فها هوذا الشاعر العربي (بولس سلامة) يحدثنا عن موقف آل صهيون وحلفائهم من المشردين العرب ، ويراهم جميعا شركاء فى الجريمة ، بل انه لا يعفي دول الغرب من تحمل اكبر عبء من المسؤولية ، فقد ناصروا ابناء صهيون، واستبدلوا بصداقة العرب ود اليهود الاخساء، وروعوا اهل فلسطين الآمنين، وتركوا فى كل بيت مناحة ومأتما ، وخلفوا فى كل منزل (صخرا) و (خنساء) ، وغرسوا فى قلوب العرب حقدا لا يهدأ اواره ، وانبتوا فى نفوس الاطفال غلا لازمهم منذ نشأتهم ، وافتنوا فى اساليب الخداع والظلم ، فمكنوا للدخلاء الادعياء ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وشردوا ابناء فلسطين الوادعين ، فوجبت عليهم لعنة الشيوخ فى كل لحظة تمر ، وصدق فيهم قول شاعرنا الكبير ..

شركـاء الـذئـاب كيف غويتـم
فنصرتم صهيـون ، وهي الوبـاء ؟
بعتـم العرب بالاخسـين قـدرا
فلقـد سئتـم نفوسـا وساءوا
كل بيت من شركـم فيه (صخـر)
كـل انثـى من غـدركم (خنساء)
قـد بعثتم فى العـرب جذوة حقـد
تكتسيهـا الاصبـاح والامسـاء
بفـم الشيخ لعنـة حيـن يمضـي
ومـع الطفـل تـولـد البغضـاء
بدعـة الجـور ان يفـوز دخيـل
ومـن البيت يطـرد الابنـاء

وما برح شعراء العروبة يتغنون بالكارثة شرقا وغربا ، حتى ارتفعت صرخة لاجيء مشرد من ابناء فلسطين ، ممن ذاقوا قسوة التشرد ، واحسوا مرارة الضياع ، ارتفعت تنذر وتهدد ، وتعلن في سخط وتبرم ان صاحبها لن يظل لاجئا مشردا ، ولا مغلولا مقيدا ، انه يأمل في غد مشرق قريب ، يثور فيه مطالبا ببلاده غير مبال بهلال او دمار ، فهو صاحب حق ، يكفل له بناء مستقبل زاهر ، وبين جنبيه قلب يخفق لفلسطين، ويحمل لها اجمل الذكريات ، فهي مسقط راسه ، ومدرج طفولته ، وملعب صباه ، ومستقر داره وكرمته وناديه ، ولذلك يبرم بتشرده ، ولا يرضى بمصيره ، ويعزم عزما اكيدا على اعادة وطنه عزيزا كريما ، هذه الصرخة المدوية قد انبعثت من اعماق الشاعر الفلسطيني (هارون رشيد) الذي صاغ حنينه الى الوطن في لحن حزين ثائر فقال :

انا لن اعيش مشردا	انا لن اظل مقيدا
انا لي غد وغدا سأز	زحف ثائرا متمردا
انا لن اخاف من العوا	صف وهي تجتاح المدى
ومن الاعاصير التي	ترمي رمادا اسودا
ومن القنابل والمدا	فع والخناجر والمدى
انا صاحب الحق الكبيـ	ـر وصانع منه الفدا
انا تارح داري هنا	ك وكرمتي والمنتدى
وطفولتي درجت على	ارض البطولة والندى
وصباي كم نهل المنى	فوق الروابي واغتدى
وطني هناك ولن اظـ	ـل بغيره متشردا
سأعيده سأعيده	وطنا عزيزا سيدا

هذه الصرخة المدوية التي اعلنها ابن فلسطين هارون رشيد قد استجابت لها صيحة اخرى من الشاعرة العراقية (عاتكة الخزرجية) استحثت بها ابناء العرب ان ينهضوا ويتحدوا ، فلا يليق بهم – وهم الاحرار – ان يساموا الهوان والذل في وطنهم وفوق ارضهم ، ولا يجدر بهم ان يغضوا الطرف عن ابنائهم الذين يهيمون على وجوههم في الفيافي اذلاء مشردين ، اصغ اليها تقول ..

ابناء قومي قد انى	ان تبعثوا بعد الرقود
ايليق بالاحرار ان	يمسوا اذل من العبيد ؟
ويقسموا ويشردوا	بل يغصبوا ارض الجدود
ابناءهم في الارض تضر	ب بين عبد أو طريد

وتلح الشاعرة العراقية على وحدة الصف العربي ، لانها الوسيلة الوحيدة التي ترغم اسرائيل على ترك البلاد لاصحابها ، وحينئذ تعم الفرحة ، وتغمر النفوس ، فيتحقق بذلك للعرب عيد حقيقي ، يفوق سائر الاعياد في جوهره وايحاءاته ..

اليوم عيد يا بني	قومي ، ولكن اي عيد ؟
العيد ان تتوحدوا	أن ترغموا انف اليهود

وسيرغم انف اليهود حتما ، وسيخرجون من ارضنا صاغرين ، ما دام فينا دم ينبض بحب فلسطين ، وقلب يخفق لمأساتها ، وما دام فينا لسان يردد قول شاعرها العظيم عبد الكريم الكرمي ..

يا اخي ما ضاع منا وطن
خالد نحمله في كل قلب

محمد محمود مقلد

عضو البعثة التعليمية العربية بالمغرب والاستاذ الاول بالمدرسة الثانوية العربية بالرباط ص.ب 205



الممالك الإسلامية القديمة في افريقيا السوداء

- 2 -

للاستاذ قاسم الزهيري

ان اول مملكة نشأت بافريقيا السوداء من الناحية الغربية هي مملكة غانا باتفاق كلمة المؤرخين وخاصة منهم العرب . وينبغي الا نخلط بين هذه المملكة ودولة غانا الحديثة التي تبعد عنها بالاف الكيلومترات بعد فاس عن بنغازي مثلا . وسنرى فى عرض الحديث لماذا اختار الرئيس نكرومة اطلاق لفظ غانا على قطره الذي كان يعرف قبل الاستقلال بساحل الذهب .

فما هو اصل غانا ؟ ومتى نشأت ؟ هذا ما لم يستطع المؤرخون ان يثبتوه بدقة . وقد اقتصر العرب منهم على الاشارة بان هذه المملكة نشأت فى القرن الثالث الميلادي ، يوافقهم عبد الرحمن السعدي صاحب « تاريخ السودان » على هذا الرأي . ويذهبون الى ان هذه المملكة كانت تسمى بامبراطورية بافور وقد تعاقب على عرشها ثلاثون ملكا قبل ان تعرف بغانا فيما بعد ، ويقول احد المؤرخين المحدثين (1) : « ان مما لا جدال فيه ان انماء المبادلات بين السودان وشمال افريقيا عن طريق الصحراء الغربية هو الاصل فى نشوء اول دولة كبرى عرفها التاريخ وهي امبراطورية غانا » . وقد ذكر المؤرخون العرب مثل المسعودي والفزاري وابن عبد الحكيم ان المبادلات التجارية كانت فى غاية النشاط بين شمال افريقيا والسودان . وكان مركز هذه التجارة بتافيلالت فى الشمال .

واياما كان اصل غانا ، فان هذه الدولة بلغت اوج عظمتها ما بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر للميلاد . وقد زارها ابن حوقل فى القرن العاشر . واستقصى اخبارها الكبرى ثم ياقوت فى « معجم البلدان » بعد ما كان امرها الى الزوال .

ويذكر المؤرخون العرب ان دولة من جنس ابيض نشأت اول مرة فكانت الاساس الذي تفرعت منه امبراطورية غانا وازدهرت بعد ذلك . ويرجع صاحب « تاريخ الفتاش » ان هذه الدولة كانت بربرية الاصل، ثم آل الحكم بعدها الى الافارقة السود .

اما موقع هذه الامبراطورية فكان يمتد من ادرار الى ما بعد تمبكتو ويشمل اغلب الصحراء الغربية اي موريطانيا حاليا والسودان اي جمهورية مالي وبلاد التكرور اي السنغال بينما كان نفوذ ملوكها يتسع الى ابعد من ذلك فتشمل النيجير وغينيا . وكانت المناطق البربرية فى شمال الصحراء تدين لهم بالطاعة وتؤدي لهم الجزية .

واما موقع عاصمة هذه الامبراطورية اي غانا ، فلا يعرف بالضبط . والتنقيبات التي قام بها العلماء قد كشفت عن مدائن تمتد على عدة كيلومترات قرب مدينة النعمة فى منطقة الحوض من موريطانيا على مسافة ثلاثمائة كيلو متر من باماكو .

والملوك المعروفون كانوا من اسرة « سيسي تونكارا » . وجدهم الاعلى « كايا مغان » هو الذي اسس هذه الامبراطورية . وكانت قاعدة الملك هي مدينة غانا . بينما كانت الامبراطورية تحتوي على حواضر لا تقل اهمية عن غانا مثل ساما قندة وغارنطيل وغاديارو وديارس وسيلا . وبين كل مدينة واخرى مسافات بعيدة تعد بالايام على ظهور الابل

(1) Jean Suret-Canale: Afrique Noire, p. 147.

كان ملوك هذه الامبراطورية وثنيين كعامة الشعب بيد انهم كانوا فى وئام وتسامح مع الاقلية الاسلاميــة التي كانت تعيش وسطهم كما سنرى .

فكيف كانت الحياة الاجتماعية وتمشي شؤون الدولة فى امبراطورية غانا ؟ ان الوصف الذي تركـه المؤرخون العرب لقاعدة الملك ليعطينا صورة عن هـذه الاحـــوال .

لقد كان الملك يقيم فى غانا نفسها . وكانت المدينة تنقسم الى مركزين رئيسيين : مركـز وثني ومركـز اسلامي يجمع بينهما شارع طويل بنيت على جوانبـه دور بالحجر تحيط بها حدائق . اما الملك فكان يسكن الحي الوثني وسط قصر بنوافذ من زجاج وجـدران مزخرفة بالتماثيل . وتحيط بالقصر منازل السكنـى من الحجر واخشاب الصمغ . وكانت الطرقات مخططة تخطيطا هندسيا محكما . وقرب المدينة بنيت منـازل للكهنة المكلفين بالسهر على الاصنام واضرحة الملوك . ومن الدلائل على التسامح الذي كان يبديه اباطرة غانا انهم بنوا مسجدا قرب القصر ليتسنـى لضيوفهـم المسلمين ان يؤدوا الفرائض به .

اما المركز الاسلامي فكان يحتوي على متاجـر ومنازل للمسلمين . وكان بـه اثنا عشر مسجدا ولكل مسجد امامه ومؤذنه ومقرئه . وكان العلماء والفقهاء ياتون من البلاد الاسلامية ليفقهوا النـاس فى الدين . ووفرة المساجد فى حاضرة غانا تدلنا على كثرة عـدد المسلمين ابان عظمة هذه الدولة .

كانت الحاضرة مركزا تجاريا عظيما ترد عليـه قوافل الابل من افريقيا الشمالية وخاصة من المغرب محملة بالقماش والنحاس والتمر والعنبـر والملـح ، وتروح مثقلة بالذهب . اذ كانت ارض هذه الدولـة تحتوي على هذا المعدن الثمين حتى ان ملكها كان يعقل جواده بكرة ذهبية تزن نحو 15 كيلو . وكـان هـذا المعدن متداولا بين اهلها .

والى جانب هذا النشاط التجاري كان هنـاك نشاط مهني منقطع النظير ، فكان الصناع على اختلاف انواعهم يشتغلون فى صنع الاقمشة الحريرية والصوفية والقطنية ، وصناع الحلي والمجوهـرات لا يفتــاون يشتغلون الى غير ذلك . وكانت آثار النعمة بادية على سكان غانا . وفى مقدمتهم الملوك الذي كانوا يرتـدون القز والصـوف وينتعلون الاحذية الرفيعة .

كان الامبراطور يخرج كل صباح وسط ضباطه وبجانبه ابناء الملوك التابعين له فى ازياء زاهية فيجلس الى الناس لفض نزاعاتهم والاستماع الى تشكياتهم او آرائهم . وفى المساء يقوم بجولة فى مرافق المدينة ، ولكن لا يسمح لاحد بالاقتراب منه . وكان الشعب متعلقـا بملوكه . فكان الناس يتجردون من ثيابهم عند رؤية هؤلاء الملوك ويخرون فى التراب ويلقونه على رؤوسهم . وهي عادة ظلت مستعملة فى اغلب السـوادين . هـذه صورة مختصرة عن الحياة فى قاعدة الامبراطوريـة ولم تكن الحواضر الاخرى باقل منها ازدهارا ونهضة . فقد تحدث ابن حوقل عن حاضرة مملكة أوداغشت البربرية التي كانت تابعة لغانا والتي زارها فى اواخـر القرن الحادي عشر فاعجب بها وبما كان عليه سكانها من سعة العيش وتعجب من اناقة البيوت التي كانت تحيط بها الحدائق وتغمرها المياه الدافقة ، كما ذكر ازدهار التجارة بها حيث كانت تاتيها صنوف البضائع من جميع الجهات . وشاهد ابن حوقل وصلا باربعين الف دينار دينا على احد سكان تافيلالت مما يدل على وفرة المبادلات التجارية اذ ذاك بين المغرب وغانا .

ان هذه المعلومات التي تعمدنا اختصارها لضيق المقام والتي ندين بها للمؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب لتعطي صورة عن مدى مابلغته الحضارة فى عهد امبراطورية غانا . واذا كانت هذه المدينة قد عفـت آثارها ، فان المنقبين والباحثين جادون فى الكشف عن رسومها . وقد دلت الحفريات التي قام بها بعضهم فى سنة 1939 ثم فى سنتي 1949 و 50 وما عثروا عليـه من آثار وادوات على « رقي هذه المدينـة سـواء من الناحية العمرانية او الفلاحية » على حـد قول هؤلاء العلماء (1) . فقد عثر على مجوهرات محلية الى جانب المجوهرات التي كانت تجلب من البحر المتوسط ، كما عثروا على ادوات منزلية واوزان فى غاية الدقـة ممـا يشهد بما بلغته هذه الدولة من رقي مادي .

فكيف درست آثار هـذه الدولـة وزالـت من الوجود ؟ مع ان ذكرها ظل عالقا فى الاذهان عدة قرون بعد ذلك وبقي انشودة فى افواه المغنين مـن الاجيـال

(1) Lazartigues, Raymond Maury et Paul Thomassey.

التي اعقبت زوالها . حتى ان ابن خلدون سمع بامجادها وهو في مصر اواخر القرن الرابع عشر .

ذلك ما سنذكره بشيء من الاختصار .

ان نهاية مملكة غانا كان في الربع الاخير من القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين . ولا مناص من التذكير بظروف قيام هذه الدولة على سبيل الايجاز تخلصا للحوادث التي ذهبت غانا ضحيتها .

تعرفون ان يحيى بن ابراهيم الكدالي كان رئيسا على قبائل صنهاجة في الصحراء الغربية اي موريطانيا في الاصطلاح الحديث . فلما رحل الى المشرق في اوائل القرن الخامس الهجري اصطحب معه الى الصحراء ــ بناء على نصيحة الشيخ ابن عمران الفاسي ــ الفقيه عبد الله بن ياسين ليفقه الناس في امور دينهم . فلما لقيت دعوته اعراضا وعزوفا اعتزل هو ويحيى رباطا بالسينغال . واجتمع عليهما خلق كثير . فلما اشتد باس الفقيه عبد الله بن ياسين دعا مريديه الى نشر الدعوة ومقاتلة اهل الردة حتى « ملك جميع بلاد الصحراء وكذلك قبائلها » .

ثم توفي يحى بن عمر الكدالي ، فجمع عبد الله بن ياسين رؤساء قبائل صنهاجة وولى عليهم برضاهم يحى بن عمر . وامتد الجهاد من الصحراء الى المغرب لكن يحى بن عمر ما فتيء ان عاجلته المنية في بعض الغزوات بالسودان . فولى عبد الله بن ياسين اخاه ابا بكر بن عمر . وهذا هو الذي قهر غانا واذال دولتها.

فبعد ما جاهد اهل الردة والبدعة صحبة عبد الله ابن ياسين الذي استشهد في موقعة دارت بينه وبين قبائل بورغواطة ودفن بكريفلة على مسافة يسيرة من مكاننا هذا ، جددت البيعة لابي بكر بن عمر فاستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين لاتمام الغزو وعاد هو الى الصحراء لما انتهى اليه من « اختلال امرها ووقوع الخلاف بين اهلها » .

فاقترنت عودته بمواصلة الزحف على السوادين لنشر الدعوة الاسلامية ، فانقض بجيوشه على مملكة غانا . ودار الكفاح مدة اربع عشرة سنة الى ان سقطت العاصمة سنة 1076 ، وانهارت الدولة وانفضت من حولها الممالك التي كانت تابعة لها ، ونشأت على اثر انهيارها مملكة مالي الاسلامية التي سنتحدث عنها . ثم تحت ضربات هذه الممالك خرجت غانا وأصبحت اثرا بعد عين .

ويقال ان كثيرا من اهلها فروا بأنفسهم من الهلاك امام زحف المرابطين العارم وقصدوا « ساحل الذهب » فعمروها . ولهذا اختار الرئيس نكرومة اطلاق اسم غانا على دولته احياء لذكرى هذه الامبراطورية التي ضربت بحظ وافر في مضمار المدنية.

وهكذا سقطت اول امبراطورية بافريقيا السوداء تحت طعنات المرابطين . ولم يدم حكمهم لها سوى احد عشر عاما ، ثم تفرقت كلمتهم ، فانتهز اهل غانا هذه الفرصة وازاحوا نير العبودية عن عاتقهم . فرجع المرابطون الى الصحراء من حيث أتوا . ولكن عز غانا وصولتها لم يعودا كما كانا حيث انتقضت عليها الاقطار التي كانت خاضعة لنفوذها ، ونشأت ممالك جديدة اهمها مملكة سوس . وبقيت غانا من عشرة الى عشرة الى القرن الثالث عشر حين حطم مؤسس دولة مالي الملك سونديانا آخر صروحها ومحا معالمها من الوجود .

على ان الزحف المرابطي لم يكن له سوى هذه النتيجة ، بل كانت له نتائج اخرى من حيث انتشار الدعوة الاسلامية . فدخل الاسلام كثير من الامراء ، وخاصة امراء الاقطار التي كانت غانا تخضعها لسيطرتها واصبحوا دعاة متحمسين للعقيدة في وسط شعوبهم . ومن ذلك الحين والاسلام يختط طريقة في قلب افريقيا السوداء يعتنقه قوم ويرفضه آخرون . فاكتسح رقعة ممتدة الاطراف ، وقامت منذ ذلك ممالك اسلامية هنا وهناك ، وسنعرض في الحديث المقبل بحول الله اهم مملكة نشأت بعد سقوط غانا ، وهي مملكة مالي ، وكانت هذه المملكة اسلامية عريقة بامرائها وشعوبها بخلاف مملكة غانا التي كانت وثنية .

ــ يتبع ــ

الرباط : قاسم الزهيري







على نغمات الشعب ، رفعت الحاني — ومن نشوة التحرير ، لحنت اوزاني

وانشدت في افراح شعبي ، وترحه — روائع ، لم يصدع باعجازها ، ثاني

وخلدت من مجد العروبة صفحة — رسمت على عنوانها وجه قحطان

وملىء عروقي ، صارخ دم يعرب — فالهمني ينبوع يعرب ، تبياني

وتيمني حب الجزائر ، فارتوى — نشيدي في الساحات ، من دمها القاني

وفي المغرب الجبار ، ناشدت وحدة — سبقت بها ــ في فجر عمري ــ اقراني

واحببت اوطاني رضيعا ، ولم ازل — اغني مع الدنيا ، بامجاد اوطاني

وهمت بابناء العروبة ، يافعا — ارى كل ابناء العروبة اخواني

ورضت القوافي الجامحات ، فاسلمت — وناديت عملاق القريض فلباني

سهولتها ، تفري البسيط وانها — من العمق ، تستعصى على كل (وزان)

وما ذاك : الا ان شعري من دم — يفجره وعيي ، وحسي ، ووجداني

وشعرهم ، بدع من الخلق (مشكل) — ولا رحم فيه لكعب ، وحسان ...

تعلقت بالفصحى ، فاشربت حبها — وارغمت منها ، انف من يتحداني

اذا كان للشيطان فضل عليهم — فشعري وحي ، لا وساوس شيطان

وقالوا : مدحت المالكين ... اجبتهم: هل المدح فى غير الماجيد من شاني ؟

اذا ما استقام المالكون ، مدحتهم وصفت مديحي من قواعد ايماني

ولولا كفاح ... ما مدحت (محمدا) ولا جئت بالآيات ، فى (الحسن الثاني)

من العلويين الاماجد طهرت ارومتهم فى الكون ، اصلاب عدنان...

هما شرفا ملكا ، وما شرفا به فيا سعد من يقفو خطى الملك الباني

ومن لم يوف الحر شكرا ، مكابر ومن يجحد الانسان ، ليس بانسان

هما من صميم الشعب ، خاضا كفاحه وكم شاطراه ، فى عذاب وحرمان

ومن يستهن بالتاج ، من اجل شعبه يعش خالدا ، فى شعبه طول ازمان....

* * *

ورب ملوك شيدوا الملك بالدما على جثث المستضعف الكادح الفاني

وناموا على حقد الشعوب ، يصونهم من الشعب ـ فى ابراجه ـ الف شيطان

وفى الشعب بركان ، اذا انشق صدره تلقف ملكا ، عرشه فوق بركان

هو العدل يحمي الملك ، (لا البيض والقنا) وفى عبر التاريخ اصدق برهان

* * *

بني المغرب الاقصى ، هنيئا بموسم به اعتز شعب ، وامحى ضل (مربان)...

هنيئا (بني امي) بعيد خلاصنا من الغاصب المستعمر ، الغادر ، الجاني

ومرحى ليوم ، صاح فيه (محمد) على المنبر الاعلى ، باقدس اعلان

وحل (رباط الفتح) فتح رباطه واغلق باستقلاله ، عهد طغيان

وقام على الانقاض يصنع مغربا ويبعث فى ارجائه ، عصر مروان

ويجمع شملا ، حول عرش ، قوامه محبة شعب ، لا مهابة سلطان

ويخلق جيلا ، من نبيل كفاحه يشق به صدر العلا ، خير ربان

ويسمو به شطر البقا ، يسرع الخطى لمدرسة ، منهاجها هدي قرآن

ويدفع شعبا ، للبناء ، بهمة ترى عزة الاوطان ، فى دعم اركان

فيصعد خلدا ، مستريحا ضميره وفى شعبه ـ من صنعه ـ الحسن الثاني

الى (الاسمر العملاق) اهدي تحيتي وما غير اخلاصي لشعبك اغراني

وفى صانع التاريخ ، تسمو قصائدي ويرجح فى دنيا العروبة ، ميزاني

اقدس فيك العلم ، والفكر ، والحجى ورفعة انسان ، وخبرة يقظان

وعهدا صدوقا ، فى الجلاء حفظته وطهرت ارضا ، من رواسب ادران

وفى (ذنب الافعى) تذكرت قصة اضاع بها (فردوسنا) راس ثعبان

فاتبعت بالاذناب ، راسا مهشما فولى فرنسي ، وادبر اسباني
وانجدت في الويلات ، شعبا مجاهدا يضحي فداء في مذابح عدوان
ويصلى بالرشاش ، حق وجوده ويدفع للتحرير ، مليون قربان
تصوم به الآلاف عن كل لقمة يقدمها — مسمومة — كف سجان
وكيف يطيب الاكل من كف جائع يقابل معروف (القموح) بنكران ؟
وينسى — وما تنسى الجزائر — قصة يرددها عن غدرهم ، كل انسان
تقمص (غاندي) في عروق شبابنا وعفنا رغيف الذل من يد جوعان
نذرنا : نصوم الدهر ، او يطهر الحمى وتنصف في التاريخ ، ثورة (مقران)
وتسمنا الاحجار ، نقضم صخرها وتبلغ — ان جعنا — شماليل نيران
لئن صام (غاندي) (فابن بلا) بارضنا يصوم ، ولا ينسى معارك ميدان
وان صام (غاندي) فانحنى (جورج) صاغرا فديغول اعمى ، (فيه مس من الجان
وللمثل العليا ، تنكر عابثا وهل يرتجى الادراك من خارق فان ؟
سنمضغ ياديغول ، جيشك لقمة فجيش فرنسا ، من فصيلة خرفان
ونحفر ، ياديغول ، قبرا بارضنا لمن جهلت احفادهم (دار لقمان)
بني المغرب الميمون ، هذي مشاعري يطير بها شوقي ، اليكم وتحناني
خوالج الف في حماكم متيم ونبضة ملتاع ، وخفقة ، ولهان
فلا النيل ، في ارض الكنانة ، مال بي ولم تلهني عنكم ، مفاتن لبنان
ولا الفوطتان الجنتان (بجلق) ولا بردى عن (سبو) مغرب الهاني
ولا الثلج في (صنين) يعدل اطلسي ولم تنسني بيروت روعة تطوان
ولا الساحرات ، السارحات ، بارضها ولا الضبي في احراشها السمر انساني
بلادي .. عرفت الله ، في قسماتها وآمنت ان الله ليس له ثاني ..
بلاد ، يهيج الوجد ، ان مر ذكرها واهوى بها الشعب النبيل ، ويهواني
بلاد بها من (فاس) في القلب شعلة رفيها احبائي ، وصحبي ، وخلاني
مرابع (في مراكش) خط رسمها من الملا الاعلى ، ملائك رحمان
خذوا من صميم الارض ، تصميم عزكم وعن خبرة الرسام ، تخطيط بنيان !!
فمن قام يبني مجده بيمينه يعش آمنا في ظل خير واحسان
هنيئا لكم ، يا راتعين بجنة تصونكم (في عرشها) عين رضوان ...

تونس — مفدي زكرياء — ابن تومرت
شاعر الثورة الجزائرية

بحر الاغوال

للشاعر :
المدني الحمراوي

رأيت الكون محموما — يعاني ضغطة العلم
غدا كالفرن مشبوبا — يذوب كجمرة الفحم
غدا كالثور مطعونا — بلا رشد ولا حلم
يروم هناءة لكن — يصادف راعي الشؤم
فيغدو جافلا حتى — يلاقي صرعة الحتم

* * *

رأيت الناس كالحمقى — سعوا في ماحق الخطب
اقاموا للهوى عرشا — وقالوا : جل من رب
وضحوا حوله طرا — بروح العرض واللب
واجروا تحته نهرا — من اللذات والذنب
وعاموا فيه افواجا — بلا ستر ولا قلب

* * *

تقود الناس انثاهم — الى بئر بلا قعر
بدت في صورة حسنى — وكل القبح في السر
تراها دمية تسعى — بلا روح ولا فكر
خلت من سرها لما — خلت من حكمة الطهر
وغطت روحها لما — تعرى الجسم من ستر

* * *

ومال الارض مصبوب — على بحر من النار
غلى من حولها حتى — غدت سوداء كالقار
فلا تكفيه (اطنان) — ولا يروى بامطار
وفي شطيه اغوال — تصول بسود اظفار
وانياب لهم زرقا — ء في طول واذعار

وتبدو من لظى البحر   قرون للشياطين
تصوغ صواعق المحق   بآلاف الملايين
تذيب المال اشداق   فيجري في الشرايين
لهم امعاء من نار   تلوى كالثعابين
فهم في لجة البحر   جبال من براكين

* * *

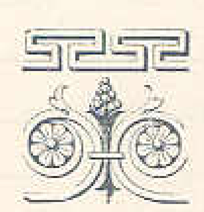
وهذا الوقت قد امسى   قصير العمر مفتونا
فكل الناس في ركض   من الاسراع يجرونا
دهتهم فتنة عميا   كما تنتاب مجنونا
ومن وقفت به رجلا   ه صار اشل محزونا
فهم في هذه الحمى   كآلات يدورونا

* * *

وهذا الجو موبوء   بعدوى الفتك والحمق
كأن الارض قد رشت   بسم طال في الزرق
وادهى منه مخزون   ليوم الفصل والصعق
فان يطلق تر الدنيا   رمادا في سنا برق
فتطوى في السما الارض   كحال الكون في الرتق

* * *

فويل للورى مما   جنى تمدين ابليسا
ومن علم حوى جهلا   وعم الناس تلبيسا
فليت الارض لم تعرف   اميركان أو روسا
وليت الارض قد ظلت   كعهد قبل (بلقيسا)
تعد السيف والرمحا   وتركب في الفلا عيسا





عبقت بروضك يانعات ازاهر　　　وتكشفت عن فاتنات سرائر

وتجملت بلفائف من سندس　　　خضر ، وتاهت فى جمال ساحر

وتعانقت مزهوة بشبابها　　　وتمايست مطلولة بجواهر

لبست غلائلها البديعة وارتمت　　　فوق البساط من السرير الناضر

فاذا الحمائم والعنادل تنتشي　　　فكأن داود حدا بمزامر

* * *

دنيا الربيع اثيرة لكنها　　　مدخولة رغم الجمال الباهر

فاذا اعتبرت به مجيلا فكرة　　　فى يبسه ، وهشيمه المتناثر

ظهرت لك الاسرار بعد خفائها　　　وجلت حقيقة خضرة ومناظر

فالكون لغز ، فاختبره مقدما　　　تظفر بصحة الاختيار الظافر

وزن الحياة بوزن عقل راجح　　　يرنو الى الاشياء نظرة ماهر

* * *

من ساء منظره الى حوبائه　　　قلت نصيحته لغاو سادر

فالروح فى حمأ الجسوم غريقة　　　فاصقل ارومتها بنبع طاهر

كي تستطيع بها بلوغ سعادة　　　لا تستطاع بغير طهر غامر

كاناء ماء جاورته لزوجة　　　للشرب يصلح بعد غسل مجاور

فالله قد خلق ابن ءادم للعلا　　　واراده لمناقب ، ومفاخر

ودعاه للحال النفيسة ؛ علـه　　　يرقى مدارج هيئت لمبادر

متمتعا بجوارح محسوسة　　　ومدارك معقولة ، ومشاعر

اخلاقنا مركوزة في طبعنا — موصوفة بتباين وتنافر
ان رمت تقويما لها لم تستطع — تعديلها الا بقدر ظاهر
يتأى بها الطبع العسير عن الذي — ينوي اللباذ به لسهل سافر
فاكشف كوامن طبعها من سرها — بلباقة ، تبلغ مقاصد ماهر
من رام اصلاحا لها من جذرها — رغما عليها ، فهو ليس بقادر
فلربما خفيت على متصدر — ومهذب ، اخلاقه : كالثائر
فالعلم تركبه الجهالة تارة — والحلم مغزو بطيش حاسر
واذا تيقظ غافل فلربما — غفل الذكي اخ الذكاء الباتر
او صال رعديد فرب شجاعة — كانت صيالا من جبان خائر
خلق البرية : وزنه من خلقها — خشن ، وسهل ، فيهما ، للناظر
لا تستطاع سياسة لتحيزة — الا بمقدار ، وخطو ظافر
كالخلق ليس بمستطاع قلبه — لنقيضه ، فدع الجهالة للغبي العاثر

* * *

ناموس ربك في البرية شارح — قصد السبيل لكل شهم سائر
يدعو لحسم الشر كل فضيلة — ويفيض خيرا من زمان غابر
ويوطد السنن التي تسمو بها — هذي النفوس الى المقام العامر
ويزين الخلق الشريف لطالب — ويفي بتنوير الطريق لسادر
ويشوق الارواح للحق الذي — يفضي لحكمته بصدق الشاكر

* * *

تتفاوت الافكار — تلك سجية — وتعوج في طرق التواء قاهر
فلكل شخص طبعه ومزاجه — ينأى به عن كل طبع حائر
لكن شريعة ربنا معروضة — بالخير والحسنى لقلب طاهر
يحلو مذاق غذائها لذوي النهى — وبها الحلول لكل شأن حاضر
من كان في درج السيادة صاعدا — فشريعة الرحمان خير مؤازر

18 ذي القعدة عام 1381

فاس — الحاج احمد بن شقرون



في عيد الهجرة

للشاعر :
احمد محمد صقر



عطروه تحية وسلاما   انه عيد من اعز الاناما
وابعثوا اللحن فى الوجود بشيرا   يملأ الكون كله انغاما
قوي الحق يوم هجرة « طه »   فاذا النور يمحق الاوهاما
واذا فاتح « المحرم » يضحي   فاتح الخير ، ينشر الاسلاما

* * *

لحظات من الخلود افادت   كتب التاريخ العطايا الجساما
اخرجت عالم الوجود الى النو   ر وهدت ضلاله والظلاما
وابادت عناصر الجهل منه   فى بيان يقدس الافهاما
هي فى الدهر مثل «احمد» فى الخلـ   ـق سموا وروعة واحتراما
كانت الارض قبل غابة وحش   يتبع الناب فى دجاها البغاما
فقوي يسوق اين تهادى   فى دجى الظلم الناس والانعاما
وضعيف يظن ان الليالي   خلقته ليحمل الآلاما
ونظام به التهكم راموا   حينما اطلقوا عليه نظاما

* * *

عالم بات سادرا فى هواه   وعلى مربع الخلاف اقاما
ركب الجهل والسفاهة فيه   فتراه عداوة وانقساما
ان تشرق وجدت ايوان «كسرى»   اشعلته يد الشقاق ضراما
او تغرب فتلك دولة «روما»   اورثتها الحروب داء عقاما
وبنو العرب فى الصحاري ذئاب   يجعلون الظلوم فيهم اماما
ينحتون الاصنام وهي جماد   ويقولون : نعبد الاصناما
اي درك تدهور العقل فيه   بعد هذا ؟ واي جهل ترامى ..!

جاءهم «احمد» البشير المفدى — مثلما ترقب الظماء الغماما
مثلما يشرق الصباح فيمحو — آية الليل اذ يبيد القتاما
مثلما ينشر السلام بساطا — يستقر الوجود فيه مقاما
يستظل الجميع فيه سواء — فى نظام الى العلا يتسامى

* * *

جاءهم يرفع العقول مكانا — ويساوي الاجناس والاقساما
ينظر الله للقلوب ولا ينـ — ـظر تلك الالوان والاجساما
كيف يرقى الوجود والناس فوضى — لا يصونون حرمة أو ذماما..؟

* * *

فاستهانوا به وزادوا عنادا — وغدوا فى ضلالهم اصناما
ما استطاعوا جداله بعقول — انما جردوا عليه الحساما
دبروا قتله وربي حفيظ — ينصر الحق يبطل الاجراما
صانه منهم وكانوا حراصا — حول دار الرسول باتوا قياما
فرماهم بآفة النوم حتى — اصبحوا ينفضون عنهم رغاما
هاجر الصادق الامين كفاحا — لا فرارا بل حازما مقداما
فاضاءت به «المدينة» والدنـ — ـيا استحالت جميعها انغاما

* * *

يانبي الهدى فداؤك نفسي — أنت نور لنا يبيد الظلاما
كلما عاد ذكر عيدك فينا — جدد العزم واستحث التياما
فاتجهنا لمصدر النور ندعو — نسأل الله ان يقر السلاما
ويقوي بني العروبة حتى — يستعيدوا مكانهم اعلاما
ويعز الاسلام دينا ودنيا — في اتحاد يوطد الاسلاما
ويعيد التاريخ فجرا جديدا — ويجلي عن زهرنا الاكماما

* * *

ولك الحمد يا الهي وياخيـ — ـر البرايا تحية وسلاما

تطوان : أحمد محمد صقر



> (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) .
>
> قرآن كريم

سانفض منك يدي ،
واعرض عن بابك الموصد ،
الى الابد ...
فقد وهنت قبضتاي ،
وصم صداي ،
على بابك الانكد ،

تبعتك فى الكهف بين الصخور ،
لعلي ارى فيه اشعاع نور ،
وجلت بعيني بين المقاور ..
فلم ار الا مقابر ،
فهل ما لكهفك ءاخر ؟

لقد سقتني بيد من حديد
اليه كسوق العبيد ...
وعالجتني بسياط رقاق ،
كالسنة النار تفرى الجلود ..
واغرقتني فى القيود ،
لكي لا اعود ،
الى حيث ضوء السماء ...
لاسال عن سر هذا الوجود
وهل بعده من خلود ؟

ومن بعد عشرين عام ...
من الخبط فى الصمت تحت الظلام ،
تبينت انا ندور ،
معا فى فراغ كبير ،
ومن فوقنا الشمس فى مهرجان
من النور .. والبدر فى العنفوان ..
وانا نسير ، واعيننا مقفلة ،
وءاذاننا مثقلة ...
لكي لا نرى الشمس تجري ،
ولا النور يسري ،
ليدفء قلب السماء ...

واشنطون : احمد البقالي

المحافظ

للاستاذ عبد القادر المقدم

مسرحية اجتماعية ساخرة في فصل واحد

– المنظـــر الاول –

المكان حديقة متصلة بمنزل – وفى صالة فسيحة فخمة الرياش والاثاث

الاشخاص : خيرية ، شيبة ، فياض ، واصوات (رنين كؤوس ولغط المارة ..)

خيرية — (مغتاظة) آه لقد تنبأت لك يا شيبة بهذه الغاية التي انتهيت اليها وانــا معــك ، فى الوقت الذي كنت مولعا فيه بقراءة الكتب التي تدعو الى حياة التقشف وتثير الاعجاب بسيــر اولئك الابطال الخرافيين الذيــن ابتدعهم خيال القصاصيــن والروائيين ..

شيبة — (فى غير مبالاة) تلك كانت بدعة العصــر التي استأثرت باقبال الناس ، الخاصــة منهم والعامة وكان لزاما علي ان احـــذو حذو هؤلاء ..

خيرية — (عابســة) لقد نلت الجزاء الوفاق الــذي يستحقه كل من بالــغ فى تقدير نفســـه واعطائها ما تستحقه من الاعزاز .

شيبة — (معتدا بنفسه) لم آت الا ما كان فضيلة فى نظر المجتمع ولولا هذا ما كنت فاعــلا شيئا الام عليــه .

خيرية — (فى حدة) انت واهم .. بــل انت مغفل لا تحسن المقارنة بين ما هو ضروري وبين ما هو كمالي . فالشيء المطلوب بالفعل غير الشيء الممدوح بالقول .

شيبة — لست كما تدعين ، ان انا الا انسان عشق الكمال فسعى اليه ، ولا عليه بعد ذلك وصل او لم يصل .

خيرية — ان هذا الطريق الذي تسلكه اطول مــن صبرك ، واقوى من عزمك ، وابقى مــن زادك !

شيبة — اذا كان هذا رايــك في فانت وما تريــن .. اما ان ترغميني على الاخذ بــه فهــذا خطل ظاهر .. لان كل واحد مســؤول عما يــرى وما يعمل ..

خيرية — (مغضبة) هذا اذا كان ضرر ذلك يقتصر على صاحبه ، والا فلا حق له فى ان يــرى اي راي او يذهب اي مذهب .. وانــا متضــررة من آرائــك وما نتحمله اليــوم من شظف العيش ان هو الا نتيجــة لذلك

شيبة — اذا كان ما نجنيه اليوم ثمار ما غرسنــاه بالامــس فما يجدي علينا التلاوم .

خيرية — (متاثرة) يؤسفني انني جاريتك على هذا النمــط مــن الحيــاة طيلــة السنــوات الماضيــة . ويؤلمني اليــوم ان استمــر فى مسايرتك ..

شيبة — (فى صرامة) اسمحي لي ان اصرح لك بأن معاملتك لي هذه تضايقني اكثر مما تضايقني حقائق الحياة نفسها .

خيرية — (قلقة) ماذا تعني بهذه الكلمات الجارحة .. انت اذن مصاب فى معنويتك كرجل ..

شيبة — (ثائرا) وانت امراة مصابة فى انوثتها .

خيرية — (قلقة) أنت رجل لا تطاق .. لا تطاق .. لا تحتمل سافارقك ..

شيبة — (متاثرا) كما تشائين .. كما تشائين ..

المنظر الثاني

(صالة فسيحة مفروشة ببسط فاخر ورياش جميل .. خيرة وفياض احد اقاربها) .

فياض — (فى هدوء) ما لك تقلقين راحته .. انه رجل وديع وهو من صفت ضمائرهم فصفت لهم الحياة وسلموا من غوائلها .

خيرية — (محتدة) ماذا افاد من هذه الوداعة .. بل اين هو هذا الصفاء المتبادل بينه وبين الحياة . شيبة رجل يعيش .. يعيش فى اوهامه ، تملكه الاعجاب باشخاص غبروا مع القرون الغابرة وبقيت اخبارهم تشغل بطون الكتب ليملأ منها صغار الهمم وضعاف الارادة فراغ ادمغتهم .

فياض — (متلطفا) كل رجل عظيم فى قومه مدين لاولئك الذين صنعوا التاريخ .

خيرية — احسبك ممن يتحدثون بما لا يعتقدون امعانا فى التغرير بمرض الارادة ، ولو كان ما تقوله هو عين ما تعتقده لسلكت انت هذا المنهاج الذي تمتدحه لغيرك ولا ترتضيه لنفسك !

فياض — متى تسربت الى عقلك هذه الافكار ؟

خيرية — فياض .. فياض .. ارجوك ان تحدثني بعقلك وتترك العبارات المنومة جانبا .. فالحقيقة عند العقلاء تفوق قيمة الخيال فى سوق الافكار .

فياض — ما كان لي ان احدثك بغير ما اعتقده صوابا

خيرية — احيانا يكون للشعور سلطان على العقل فيجدها اللسان فرصة سانحة للنيل من الواقع ولي برهان هذا .

فياض — كلنا يملك البرهان ..

خيرية — اما برهاني انا فهو واضح ، ذلك ان شيبة لم يكن اقل منك ذكاء ولا استعدادا لكسب معركة الحياة يوم لفظتكما المدرسة معا الى الحياة العامة فلم تكن لاحدكما على الآخر ميزة ، وعندئذ افترقتما .. اما انت فقد آمنت بواقع الحياة واتخذت لك ابطالا من الاحياء تجاربهم دون ان تشترط فيهم عصمة الملائكة ، ففتحت لك الحياة مجالا وسع كل آمالك .. اما شيبة فقد اختار له ابطالا لا وجود لهم الا فى الاقاصيص والروايات .. وانت تعلم جيدا ان الفرق بين هؤلاء واولئك كبير جدا .. أي انك اعتنقت مذهب الحياة الواقعية بينما اعتنق هو مذهب الفن الجميل وشتان ما بين هذا وذاك .. هذه بينتي .. فاين بينتك انت ..؟

فياض — لا شك فى انك خالطت ناسا معادين للفضيلة

خيرية — وانا لا اشك فى انك عايشت قوما معادين للصراحة .

فياض — هذا يجرنا الى موضوع آخر ، نحن فى غنى عن اثارته الآن .. لئن كنت فى نظرك انت ونظر كثير ممن يغترون بالمظاهر دون التطلع الى الحقيقة — رجلا جمع بين بعد الصيت وطول الثراء وعزة الجاه .. فقد فقدت الطمانينة وحرمت السعادة ووجد القلق فى نفسي مرتعا خصبا وموطنا صالحا وان عقارب الحسد تتطلع الي من كل جحر، وافاعي الانتقام تتلوى من حوالي وحيثما التفت . وانا وان كنت لا ابرىء نفسي مما اجترحته من آثام او اقترفته من جرائم تارة ضد اصدقائي وتارة ضد قومي .. واخرى ضد الفضيلة ، والمثل العليا ، يوم كنت فى صف الملحدين بها — فانا

موقن من ان فظائع اخرى ذيلت بها صحيفتي دون ان يكون لي فيها يد ولو كنت اجد سبيلا لتبرئة ساحتي حتى بالتخلي عما يحوطني من شهرة وثراء وجاه لما ترددت في ذلك لحظة واحدة ، ولكن طالما حاولت ذلك فوجدت جميع المنافذ قد سدت في وجهي ، وهذا ما اقنعني احيانا بان الوقت المناسب لهذا قد فات ..

ولو كان في امكاني ان اتقمص شخصية شيبة متخليا له عن شخصيتي وما يكتنفها من المظاهر ، لفعلت وانا جد مغتبط سعيد . ان شيبة هذا الذي سئمت معاشرته ، رجل غني بنفسه وشريف ببراءة ساحته وفاضل بعفافه .. اما انا فعلى العكس من ذلك ولا يستبعد ان يأتي يوم تدعو فيه حاجة الناس الى رجل من طراز شيبة .. وما الاحداث المتعددة الا طلائع ذلك اليوم المنتظر ..

خيرية — (متطلعة) وماذا اوردك مورد هذا التندم ؟

فياض — (يغالب تأثره) التقلب هو ابرز صفات الدهر .

خيرية — اني جد مرتابة في هذا !

فياض — ولماذا ؟

خيرية — لان المادة لا تزال قبلة الخاصة والعامة . والجاه انشودة المحافل . والمصلحة الذاتية هي القانون الذي تطاطا له الرؤوس . والمحسوبية دين مقدس .

فياض — ولكن هذا في طريق الزوال

خيرية — لا اصدق هذا .. ولكن سترى !

المنظر الثالث

(حجرة صغيرة بسيطة الاثاث .. خيرة وشيبة)

شيبة — (كالمستيقظ من سنة التامل) يعز على الانسان ان يتنكر الى مبدا طالما كان عزاءه الوحيد في هذه الحياة .. ومع هذا فان احترام مبدا لا يساير الزمن نوع من العبودية وجمود يجعل صاحبه متخلفا عن قافلة الحياة .

خيرية — (مترفقة) هذا اذا كان لا يتعرض الى مؤاخذة . فالمحافظون احيانا يكونون ذوي رسالة في المجتمع ، ويكون ذلك عندما تستيقظ في الناس روح الحفاظ على تراثهم القومي بما في ذلك سمو الاخلاق وعلو الهمة ...

شيبة — احسب انني لم اعد في حساب هؤلاء، فقد وقع ان اعلنت في جمع من الناس تقمتي على المبدا القائل « بان الفضيلة لا تخضع للتجديد » وطالبت بوجوب مسايرة الفضيلة لروح العصر ..

خيرية — (في تردد) ما كان من حقك ان تتسرع الى هذا الحد .. وعلى كل حال فقد يعتبر تصريحك هذا في جمع مصغر من قبيل الدعابات التي يقصد منها الترويح عن النفس ..

شيبة — ما احسب انهم يؤولونه هذا التاويل .. ولقد حررت رسالة في الموضوع واطلعت بعض الشخصيات على مضمونها ووعدت بنشرها وهذا ما يمنعني من التراجع عن موقفي .

خيرية — لا يجمل برجل مثلك ان يتنكب عن الطريق ويعتنق مبدا جديدا قبل النظر في العاقبة

شيبة — انت المسؤولة عن هذا كله .

خيرية — ذلك كان رايي وانت تعلم الحكمة المأثورة « مهما كان راي المراة فهو مؤنث طبعا »

خيرية — (مبتسما) ما احلى هذا الاعتراف من جانبك .. اظن ان رايي قد اصيب هو الآخر بلوثة التانيث .

خيرية — كل شيء ممكن .. (يضحكان معا)

المنظر الرابع

(نفس الحجرة والاثاث ـ شيبة وخيرية)

شيبة ـــ ما كنت اعلم ان الاجتماع الذي عقد اخيرا واعلنت فيه رايي في وجوب تحرر الفضيلة ـ كان من اجل ترشيحي كرئيس لهيئة المحافظين .

خيرية ـــ وماذا كانت النتيجة ؟

شيبة ـــ اعتباري من قناص المصلحة الذاتية والحقيقة ان كلامي لم يكن خاليا من هذا المعنى ، خصوصا وان هذا وقع عقب ذلك النقاش الذي كاد يفسد علاقتنا الزوجية .

خيرية ـــ وهل دعوت الى هذا صراحة ؟

شيبة ـــ (كانه لم يلق بالا لكلامها) ان عقول الناس مثل هذا الموقف تنفذ الى ما وراء كلمات الخطيب ، وانتقاداتهم قلما تخطىء الهدف .. وانا اعترف بان اندفاعي اخيرا الى الجهر بهذه الدعوة كان خاليا من الرزانة بعيدا عن الحكمة شأن كل من يتنكر للفضيلة . ولهذا كان لا مناص من اعتباري احد الشخصين : ثائر على القافلة لا على شيء ءاخر . او معتل الفكر ..!

خيرية ـــ (فى استسلام) اقترح عليك ان تعود الى محافظتك .. واعلن فى اول اجتماع يعقد اننا جميعا من دعاة الفضيلة ..

شيبة ـــ انا محافظ .. انا محافظ .. الفضيلة دين مقدس

صوت ـــ (فى لهجة الواعظ)

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

الستـــار

طنجة ـ **عبد القادر المقدم**





*** فى المغرب : اسبوع الكتاب المدرسي العربي**

فى هذا الشهر وفى عاصمة المغرب الرباط ، اقام المركز الثقافي العربي بالاشتراك مع المكتب الدائم لمؤتمر التعريب معرضا للكتاب المدرسي العربي دام اسبوعا كاملا ، واقام الاستاذ الدماطي مدير المركز حفلة استقبال لافتتاح هذا الاسبوع ، كانت حفلة رائعة بكل ما فيها ، رائعة فى جوها الاخوي ، رائعة فى صراحة محاضريها ، رائعة فى ابراز تقدم الكتاب المدرسي العربي وتنوعه ونضجه ، شاهد الحاضرون النماذج المتعددة للكتب المقررة فى مدارس الجمهورية العربية المتحدة ومعاهدها الثانوية فى مختلف المستويات ، لمختلف انواع الدراسات ، وعلى احدث الاتجاهات وافضل المبادىء التربوية .

وكان المعرض يزهو بهذا الانتاج العربي الذي لا يقل عن اي انتاج مدرسي فى اى دولة من دول العالم المتحضر من جميع النواحي ، ويدعو زائريه المؤمنين بالعروبة الواثقين فى المستقبل الى الاعتزاز والفخر ويدحض بواقعه المشرق حجج اعداء العروبة الحاملين على لغتنا والناقمين على حضارتنا ويكذب اباطيلهم بالواقع الملموس المشاهد الذي عميت عنه بصائرهم ، وتعامت على رؤيته ابصارهم .

ولم يقتصر المحاضر على نوع من انواع المعرفة بل اعطى لكل ناحية من نواحي المعرفة حقها ، ولم يدع مجالا من المجالات التي تتعدد سواء منها الادبية او العلمية او التقنية او الاجتماعية ؛ فكان بذلك اكبر دليل على المستوى الراقي الذي بلغه المؤلف العربي ، وكان حجة قاطعة على النضج الحقيقي للعقل العربي وتخطيه مرحلة الترجمة والتعريب التى لابد منها لكل حضارة تريد اللحاق ومسايرة الركب الانساني فى اول حياتها ، وفى بادىء نهضتها . نعم كان هذا المعرض حجة على بلوغنا مبلغا نستطيع فيه ان ننتج فى كل علم، وان نؤلف فى كل ميدان ، وان نكون لانفسنا اسلوبا يتمشى مع مقتضيات مجتمعنا ، ومتطلبات الاسس التربوية عندنا ، ولم نبق كما يظن البعض من المغرضين مرتبطين بالانتاج الاجنبي ارتباطا نترسم فيه على السنن المسطر .

والحق اننا فى حاجة الى حملات ومعارض وتبشير والى معارك ان اقتضى الحال فى بلد كهذا ابتلاه الاستعمار بحفنة من ابناء تربته وجعلهم ادوات تهدم هذه اللغة ، واتخذ منهم فرسانا لمقاومة لغتهم ، وتكاتفوا فى عرقلة تعريب التعليم خوفا على مستقبلهم، وسعيا وراء الخلود فى المناصب التي احلتهم فيها الظروف ، ولذلك نجدهم فى كل دائرة وفى كل وزارة يحتقرون هذه اللغة ، ويعارضون فى سيادتها ، ويلتجئون الى سخافات يبررون بها حملتهم وعداءهم ، فهذا انساني النزعة لا يهمه الا ان يتعلم ابناء وطنه ، سواء تعلموا ما يكتب من اليمين او من اليسار ، فهو لا يتعصب للغته لان فى ذلك نقصا فى الانسانية بمفهومها العالمي عنده ، وهذا غيور على وطنه غيرة دفعته دفعا لكي يحافظ على الفرنسية حتى لا ينحط مستوى التعليم ، ولا ينطفىء الاشعاع الحضاري ، ويعلل هذا الضعف المشاهد فى التعليم بازدواج اللغتين ويتمنى بدافع وطنيته لو حذفت لغة الكتاتيب والتمائم لتفسح المجال للغة الاسياد لغة العلم والنور والحضارة .

وآخر يعلن بوقاحة ان العربية ليست بلغة علم ولا صناعة ولا حياة ، انها لغة الاموات ، وحقا انها لغة الاموات ولغة ميتة فى قلبك ؛ افلا تحييها ايها الغيور المكافح كما احيا بن غريون لغة دينه ولغة شعبه

وجعلها ومن اول يوم من تكوين دولته ، جعلها لغة التعليم في جميع مراحله ثم لغة للادارة في كل مرافقها ..

وما ذا يفيد العربية لو ترجمت المجامع اللغوية جميع المصطلحات ، وزودت الكتاب العربي بكل جديد مستحدث ، ما فائدة ذلك اذا كنت اعتقد في قرارة النفس واصرح بذلك كلما سنحت الظروف ان هذه العربية عاجزة ميتة سخيفة حقيرة ؟ ما ذا يفيد عمل المجامع ونحن نعلم ابناءنا بغير العربية ونربأ بهم من ان يتعلموا في مدارس الشعب ونتمنى بحرارة لو خلق الواحد منا فرنسيا لحما ودما على ان يتمتع بمثل هذا المنصب — بالطبع — .

لا ايها الاخوة نحن في حاجة الى شيء من الصراحة ، وكثير من الصدق والاخلاص ، وفي حاجة اكثر الى الايمان بانفسنا ، والايمان بلغتنا ، والايمان بحضارتنا ، وعندئذ ستبعث لغتنا من جديد فنراها بغير هذا المنظار ، ونجد فيها ما لم نجده الآن ، نجد فيها حياة زاخرة ، وحلاوة قل نظيرها ، وقوة لا تأخذ منها صروف الايام شيئا ، بل سنجد انفسنا ، ونكتشف حقيقتنا ، فنعمل على الرقي والازدهار ، فترقى بذلك لغتنا ، وتزدهر ثقافتنا ، فاللغات مرآة لشعوبها ، وعلى قدر عزة الشعب وقوته وتقدمه ترقى لغته وتتقدم وتعتز ، وعلى العكس ، اذا انحط الشعب ، واصبح عدوا لمقوماته ، فلا بد من ان تنحط لغته ، او ربما تموت نهائيا ولو كانت لغة علم وحضارة ، فاللوم لا ينصب على لغة ما مهما كانت صعبة وانما اللوم ، وانما المسؤولية على ابناء اللغة ورجالها ، فهم المسؤولون في كل الاحوال وفي جميع الاحتمالات ولدى كل الشعوب.

في القاهـرة :

المؤتمر الجغرافي العربي الاول :

في عاصمة ارض الكنانة عقد هذا المؤتمر الاول وكانت غايته العمل على ابراز نظريات عامة وتخطيط شامل للتنمية الزراعية والصناعية واتصال كل ذلك ببيئتنا ووسطنا العربي ، اذ المعلوم ان الجغرافية لم تعد مجرد دراسات للارض وجبالها والسهول ووديانها والاقاليم وحدودها منفصلة عن الانسان بل ان الجغرافية الآن مرتبطة بالانسان وبيئته واصبحت عاملا اساسيا في تحقيق التنمية وتخطيط المشروعات التي يتوقف عليها تقدم البلاد وازدهارها .

فالمواد الاولية ومصادر الطاقة ومنابع الثروة وطرق المواصلات ومشروعات التنمية وتزايد السكان ومشكلة توفير الغذاء كل ذلك واكثر من ذلك من صميم الدراسات الجغرافية وقد اكد المؤتمر على ذلك والح على اهمية الجغرافية كعامل اساسي في تطوير الوطن العربي ودفعه الى الامام واخراجه من انقاض الماضي والتخلف المزري ليحقق ما يسعى اليه من تقدم صناعي، وثورة آلية ، واصلاح زراعي ، وعدالة اجتماعية ورفاهية شاملة لابناء الوطن العربي .

وما ينبغي لشعب كهذا الشعب الذي كان — وفي زمن غير بعيد — استاذ العالم في الدراسات الجغرافية، وكانت كتبه واكتشافاته وخرائطه ثروة عظمى للانسانية جميعا ، وما ينبغي لشعب ينشد التقدم والرقي ان يغفل عن اهمية الجغرافية التي تعتبر بحق العامل المساعد لكل الدراسات الاخرى .

وقد اقر المؤتمر ايضا تدريس مادتي التاريخ والجغرافيا في كل البلاد العربية باللغة القومية وفي جميع المراحل ، على ان تنصب هذه الدراسات التاريخية والجغرافية على الوطن الاصغر ثم وطن العروبة الاكبر بما في ذلك خصائصه المتعددة في بيئاته المختلفة وموارده ومصادر الثروة فيه .

والحق ان الجغرافيا والتاريخ تعتبر دراساتهما اساسا مهما في بناء المواطن العربي من حيث تكوينه الوطني والعقائدي ، ومن حيث الاعداد النفسي ، والربط السليم للعقل في مراحله المختلفة بتراثه الحضاري ، وتراثه الروحي ، ولا يمكن ان تسند هذه الدراسات لاستاذ اجنبي لا ينظر الينا الا بمنظاره الذي اعتاده منذ نشأته الاولى والذي لا يرى من خلاله الا الجانب المظلم من تاريخنا ، ولا يكتشف به الا السيئات وما اكثرها عند الامم الضعيفة القريبة العهد بالاستعمار السياسي ، والغارقة الى الاذنين في اوحال الاستعمار الثقافي ، فيؤلف ما يراه من السواد والسيئات ثم يرميه لشبابنا الطاهر فيتلقف ذلك كعلم مسلم وحقائق ثابتة وينشأ على الذلة والمهانة لكل ما ينتسب اليه وينمو على احترام الاجنبي والنظرة اليه على انه المثال والمثل الاعلى ، وغير صحيح ما يقال ان في العلماء

المتصف ، فالمتصفون قلة وهذه القلة لا يفسح لها المجال لتأتي الينا ، وانما يبعث لبلدنا بقوم اشربوا كرهنا ، وربوا على احتقارنا ، وحقنوا بالسموم القاتلة لكل ما هو عربي ،ولذلك فالواجب يحتم علينا ومستقبل شبابنا ومسؤولية الامة والشعب تلزمنا بان نحافظ على كرامتنا ، وننقذ ابنائنا ، وما ذلك بمستحيل على المخلصين منا .

وفي الكويت : مؤتمر الاعلام العربي الخامس :

وفي افريل عقد هذا المؤتمر بالبلد المضياف الكويت وبدعوة من الجامعة العربية واتخذ قرارات من اهمها مواجهة الدعاية الصهيونية في الاقطار الافريقية المستقلة حديثا ، كما اقر توصيات تتعلق بتنسيق الجهود في الدعوة والتبشير بقضايا العروبة في العالم جميعه وخصوصا قضية فلسطين الشهيدة ، والعمل على تنظيم الدعاية لتنمية السياحة في الاقطار العربية .

والحق انها توصيات ومقررات جد رائعة ، بل انها لجميع ما تقرره وتوصي به مؤتمراتنا الكثيرة بحمد الله وتتباه اجتماعاتنا بمستوياتها ، ولكن ـ ومن الاسف ان نضطر في كل شيء الى التاسف ـ نتاسف حينما نعلن بصراحة بان الشعب العربي قد مل التصريحات والمقررات ، وانه في حاجة الى قليل من العمل ولو بنسبة العشر مما نقوله وما نصرح به وما تقرره حتى يسترد شيئا من الثقة بقادته في كل مكان ، وحتى نرجع اليه بصيصا من الامل في مستقبله ، لقد كثرت التصريحات حتى اصبحت في كثرتها تقارب اعتداءات اسرائيل .

ايها الاخوة عجيب امرنا ، اننا جميعا نشعر بالآلام ونحس بالعذاب ونكوى بالنار ولكن رغم ذلك نهرب من واقعنا وندفن رؤوسنا تحت اكوام المصائب ثم نسبح في الخيال ننسج منه خياما تأوي اليها من لفح الضمير الوخاز ، ونصنع منه احلاما لذيذة نجترها لتلهينا من عذاب النفس ، وخزي الحياة .. لا ايها الساسة اننا اصبحنا على شفا اليأس ، وغدا الشعب العربي يحتقر كل ما تقرون ، ويستهزىء بما توصون . واخشى ان ياتي اليوم الذي تصبح فيه اجتماعاتنا مسخرة وتسلية وفذلكة يتندر بها ، وتضرب الامثال بكثرتها وبذخها ونفقاتها وميزانياتها وبساط ريحها الذي يستقله الطائرون من مكان الى مكان بكروش منتفخة ، ومعدات متخمة ، وعقول مجترة ، ومحافظ تشكو الى ربها الاثقال ، نعم تلك هي الحقيقة المرة ، فاما ان تصدق اعمالكم الاقوال وان تحقق مجهوداتكم بعض ما قررتم في مؤتمراتكم التي تحتاج الى مؤتمر ليحصيها وينسق فيما بينها ، وبذلك يجددون الامال فيكم وتبرهنون على صلاحية بعضكم للتطور والاستجابة لواقع الشعب ، والا فاريحوا ميزانيات دولكم ، وقللوا العبء على كواهل مواطنيكم ، واريحوا انفسكم قليلا حتى تتركوا لها المجال لتفكروا وتراجعوا الحساب ، فان التاجر اذا لم يجمع مع الثقة والاجتهاد فن التصرف ودقة الحساب فانه مفلس لامحالة ، وبعد ذلك فانا اضمن لكم النجاح فيما فشلتم فيه في اجتماعات منظمتنا العتيدة في عمرها المبارك الطويل .

الرباط : موساوي زروق



خواطر حول المهرجان الثقافي لجمعية نبراس الفكر

للاستاذ :
عبد السلام الهراس

في سنة 1953 شهدت تطوان تكوين جمعية من طلاب صغار ، اطلقوا عليها اسم « جمعية نبراس الفكر » وكان من المنتظر ان تسير في الخط الذي سار فيه غيرها ، اي تمر بمرحلة تطورية من الولادة الى الشباب فالشيخوخة فالموت في ايام معدودة ، ولكن ايمان اولئك الطلاب الشباب برسالة الجمعية واهدافها كان اقوى من ان يخضع لعوامل التلاشي والاضمحلال، ولذلك فقدنمت الجمعية مع نمو اولئك الشباب وتطورهم وكان لابد ان يستجاب لنموها المطرد وتطورها الايجابي السليم ، فاصبح من الضروري ان يتناول نشاطها صورة اكبر ، وان تزاول هذا النشاط على صعيد اوسع واعمق ، فاقامت منذ سنتين مهرجانا فلسفيا عظيما شارك فيه اعلام من المشرق والغرب وقليل جدا من المغاربة .

وقد ابرز هذا المهرجان دور المغرب والاندلس في دنيا الفلسفة وفي التطور الفكري العالمي ، وقد ضمت تلك البحوث القيمة في كتاب نفيس طبع على حساب الشبيبة والرياضة .

وفي هذه السنة في 28 مارس شاهدت تطوان مهرجانا من نوع آخر ، وقد احسنت الجمعية اختيار موضوع المهرجان (المغرب والتيارات العقائدية) ، واهمية هذا الموضوع ترجع الى ان المغرب يعيش فترة خطيرة من حياته العقائدية وقد فاجاته التيارات العنيفة بعد الاستقلال ووجدت ردود فعل من جانب البعض ، كما وجدت بعض القلوب خاليا فتمكنت او كادت ، واصبح المغرب يسمع بمفاهيم جديدة ، وهو يسعى لان يتخلص من تخلفه غير ان السبل اختلفت عليه ، وبرزت للوجود المغربي قيادات مختلفة قد تجتمع في بعض الاهداف العامة غير ان الاختلاف في الوسائل والتطبيق ، والنية ايضا موجود بالفعل لا يستطيع اي واحد نكرانه ، ولهذا كان من الواجب ان يقام مهرجان ثقافي لتعرف الطبقة المثقفة الواعية التحديد الدقيق للاتجاهات الداخلية وموقفها من التيارات الخارجية ، ومدى تاثرها بالداخل او الخارج، وبذلك تكون الجمعية قد ساهمت في وضع الاطار العقائدي والثقافي للمغرب الجديد، وتحدد ــ بالتالي ــ للدولة المنهاج الذي تطالب به النخبة المفكرة في هذاالبلد

وقد اختص كل محاضر بمعالجة جزء معين من الموضوع ، وقد لاحظ بعضهم ان هذه الطريقة اضاعت فائدة اختلاف وجهات النظر حول نقطة معينة او جزء معين ، وكان ينتظر كثير من الحاضرين عراكا فكريا بين بعض المحاضرين والبعض الآخر ، مع تسليمنا بصواب هذه الفكرة ، الا اننا نعتقد ان المنهاج الذي سلكته الجمعية في توزيع الموضوع وعناصره على الشكل الذي وقع كان كفيلا بتحقيق اهداف الفكرة الاولى ، فالجزء الذي يعالجه المحاضر لابد ان يحمل في طياته عناصر الفلسفة العامة التي ينتسب اليها ، اذ من المعلوم ان وجهة نظر معينة في موضوع اقتصادي مثلا لا يمكن ان تكون عديمة الصلة بالاجزاء الاخرى وبالمصادر الاصيلة ، لذلك فان معالجة جزء مخالف للجزء الذي يعالجه الآخر لا يتم الا على اساس فكرة عامة تشمله وغيره ، وهكذا يتبين ان توزيع اجزاء الموضوع العام على عدة محاضرين مختلفي المشارب والافكار على وجه العموم لم تفوت الفائدة التي كان يرجوها الراي السابق .

وكان من الضروري ان يحضر كل من التزم بالحضور آنفا حتى يكتمل الموضوع ويأخذ صورة كبرى،

تامة الجوانب ، الا ان الذي وقع هو ان حوالي النصف تخلف ولسنا ندري لماذا ؟ مع انـه حضر من كان في اشد الحاجة الى علاج ما الم به من مرض ، ومن كـان غارقا في اشغال له مهمة ، ومن كان مزمعا على سفـر لقضـاء مصالح حيويـة له .

ومهما يكن من شيء فان المهرجان قد اصـاب نجاحا في مهمتـه . .

وهذه هي الموضوعات التي عولجت فيه :

1) العقيدة بين التقليد واستقلال الفكر ـ الدكتور المهـدي بنعبـود

2) مشاكل التعليـم وسبل حلها ـ الاستاذ عبـد الكريم بن جلـون

3) التنمية الاقتصادية في المغـرب وفي الـدول المتخلفة ـ الاستاذ عبد العزيز بـلال

4) الحضارة المغربية بيـن الاصالة والاقتباس ـ الاستاذ محمد الحمداوي

5) التيارات الاتحادية العربية وموقف المغرب منها ـ الدكتور محمد المجذوب

6) المغرب بين الاسـلام والمبـادىء الحديثة ـ الاستاذ عبد السـلام الهراس

7) الحقوق الاجتماعية في المغـرب وفي الغرب ـ الاستاذ ادريس الكتانـي

8) عروبتنا على الصعيـد الفكـري ـ الاستـاذ محمد ربـاح

9) المغرب بين الاسلام والعروبـة ـ الاستـاذ حسـن السـائـح

10) مستقبل الثقافـة في المغـرب ـ الاستـاذ جعفـر الكتـانـي

11) المغرب بيـن القومية العربيـة والتضامـن الافريقـي ـ الاستاذ عبد الكريم غلاب .

وقد كانت بعض المحاضرات متكاملة وتحمل اتجاها واحدا ، هو الاتجاه الاسلامي :

العقيدة بين التقليد واستقلال الفكر ، والحضارة المغربية بين الاصالة والاقتباس ، والمغرب بين الاسلام والمبادىء الحديثة ، والحقوق الاجتماعية في المغـرب وفي الغرب ، والمغرب بين الاسلام والعروبة .

وقد بين الدكتور المهدي بنعبود دور العقيـدة العظيم في بناء الحضارات ، وكشف عن فراغ وخـراب الحضارة الحديثة التـي قال عنها انها لم تقـم علـى ديـن ولا تسير على منهاج اخلاقي وانما تؤمن بالقوة ، وبالاقتصاد كثالة حديد ، فهي اذن تؤمن ايمانا اعمـى بالمادة فكان من الطبيعي ان تسير بخطى سديـدة وسريعة نحو الفناء والانهيار ، ومـا كان ينبغي لنا ان تقلد الغرب في انهياره بل كـان يجب ان نعمل الفكـر فيما يجب ان نعمل او ندع ، والا تسمح لاي فكـرة ان تستعبدنا او تسوقنا نحو ما تريد ، فاستقلال الفكر هو الشرط الاول للسيـر بالانسان نحو ما يصبو اليه من حيـاة افضـل .

وقد كان الدكتور بنعبود يحلق في اجواء عاليـة من الفكر والفلسفة ، واحيانا يغوص بنا في اعماق التحليل الحضاري والنفسي للواقع الذي نعيشه .

وقد استطاع الدكتور ان يقدم نفسه للمستمعين كمفكر عميق ، وعقلية جبارة ولم يكن الناس يعلمـون عنه سوى انه دبلوماسي .

اما الاستاذ عبد الكريم بن جلون فقد عرض بعض المشاكل التي يتخبط التعليم فيها وما يزال ووضـع لها حلولا ، ومن اهم هذه المشاكل ، ضيق الاماكن عـن استيعاب العدد الكثير من اطفالنا الذين لا يجدون لهم مكانا في المدرسـة ، ومشكلة التعريب ، ومشكلة المذهب التعليمـي .

وقد رغب الاستاذ في ان يختصر المحاضرة ليتيح للمستمعيـن وقتا اكثر للمناقشـات ، وقـد كـانت المناقشات مع الاستاذ عبد الكريـم صريحة وطويلة ، وقد اجاب اجابات موفقة وكان من اهم ما دار في ذلك النقاش هو ان الوزارة كانت ـ كما قال الاستاذ بـن جلون ـ تسير على غير مذهب في التعليم ، وحاول هو ان يمذهبـه .

وان كنا نرى ان التعليم ما يزال يسير على وتيرة واحدة ولم نلاحظ عليه مـن تطور سوى انخفـاض مستواه ، وتضحيله ، وتسطيحه ، وظهـور بـوادر خلقية تهدد اطفالنا وشبابنا وامتنا بالخراب والانهيار .

وكانت محاضرة الاستاذ محمد الحمداوي قيمة لما اشتملت عليه من الحقائق العلميـة ولمـا التـزم فيها من مناهج موضوعية بحتة وقد كشف فيها عـن استعداد المغاربة منذ اقدم حقب التاريخ للحضـارة والتحضيـر ، وبين تجاوبهم العميق مـع الفكـرة

الاسلامية بحيث اصبحت ممزوجة بطبائعهم، ولن يقبل المغاربة اي فكرة غريبة عن فطرتهم التي اكتشفها الاسلام واستطاع ان يفجرها لتكون خيرا وبركة على العالم ، فالمغرب وحدة حضارية اسلامية ، لا يمكنه ان ينفك عن هذا الوصف رغم ما بذل ويبذل من اجل ذلك .

وكان الاستاذ الحمداوي موفقا كثير التوفيق في مناقشاته كما كان موفقا في محاضرته ، وكان بحث الاستاذ المفكر حسن السائح قيما وموضوعيا ، ومركزا وبالاخص في الجانب الاكبر منه الذي يبدو انه كتبه مستريحا، وبناء على الحقائق التاريخية والسنن الاجتماعية والنفسية ، وقد استطاع ان يفلسف عروبة واسلام المغرب وان يمزج بين المفهومين مزجا رائعا كما هما ممزوجان في نفسية المغاربة ، والواقع اني لاول مرة استمع الى بحث قيم في موضوع « العروبة » على اساس من التفكير السليم بعيد عن العموميات والخيالات الشعرية والاماني الطيبة الساذجة ، والمصطلحات المجترة والضحلة .

ولا يفوتني ان اسجل على الدكتور محمد عزيز الحبابي تعليقه على محاضرة(1) الاستاذ السائح الذي قال فيه : اني اعتقد ان الاسلام لا يؤمن بالقوميات لان القوميات غير انسانية ، وان المغرب لن يتقدم او يتحضر الا على اساس الاسلام .

وما اظن عاقلا مخلصا لبلده يخالف الدكتور في ان الاسلام هو القاعدة الاساسية التي يجب ان يبني المغرب حياته عليها ، ولكن المهم ان نصرف طاقاتنا من اجل خدمة هذه الحقيقة في انفسنا ومجتمعنا بالوسائل المتاحة لنا .

وقد قارن الاستاذ ادريس الكتاني بين الحقوق الاجتماعية في الغرب وبالاخص في كندا ، والحقوق الاجتماعية في الاسلام وابان عن اسبقية الاسلام وشموله وقدرته على استيعاب جميع الحقوق الاجتماعية ، وقد نبه الاستاذ ادريس الى ان نظام الزكاة — لو تجبى بامانة وتصرف بحكمة وامانة فيما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي ، وكان القائمون عليها من الاكفاء الامناء — لكان هذا النظام وحده كافيا للقضاء على جميع مظاهر الفقر ولكي يسد خللا خطيرا في المجتمع الذي ما يزال يعاني من الفقر والعوز والتسول والامراض ما يخجلنا امام الله والعباد .

واجمع الحاضرون من المناقشين انه لا ينبغي ان تصرف اموال المسلمين في العبث وفي الرفاهية والمؤسسات الاستهلاكية ، والوجوه الكمالية .

ولي ملاحظة هنا اريد ابداءها وهي ان الاسلام عندما فرض الزكاة كنظام او كاحدى الوسائل لمكافحة الفقر والمرض وغيرهما من الافات لم يجعله النظام الوحيد فهو لم يفرض الزكاة كعلاج ، منفردا ومنعزلا عن التعاليم الاسلامية الاخرى ، اذ لو اخذه بنظام الزكاة منفردا لاخذ صورة ضرائب يمكن لكثير من المتلاعبين ان يتهربوا منها بوسيلة او اخرى ، ولهذا يجب الا تفصل الزكاة عن الاطار العام الذي تتغذى منه القلوب ، الايمان بها ، فالاخذ بالزكاة يجب ان يكون ضمن الاخذ بالاسلام ككل ، اما الايمان ببعض دون البعض فلا يمكن ان يحقق اهداف ذلك البعض كما ينبغي .

والحق ان المسلمين ما تزال فيهم استعدادات للاستجابة الى نظام الزكاة ، ولكن يجب ان يقتنعوا انهم في نظام اسلامي عام يحقق الاهداف الاسلامية في جميع النواحي ، ويجب على الدولة هنا زيادة على الدعاية المنظمة والمعقولة بالاسلام — ان تلتزم السلوك الاسلامي والانظمة الاسلامية ، وحينئذ يمكن ان نستفيد من نظام الزكاة ومن غيره مما يساعدنا على القضاء على جميع المشاكل التي تتزايد كلما قل التعاون بين الافراد والجماعات ، وبعبارة اخرى كلما ابتعد الناس عن تعاليم دينهم الحية .

اما الاستاذ جعفر الكتاني فقد تناول في محاضرته جوانب ونقاطا مهمة اهمها : المشكلة المزمنة : مشكلة التعريب ، وقد اعطى البحث حقه ، ولاحظ ان مصلحة التعريب تشتغل بقضايا خارجية لاتمس الآن حاجيات المغرب في هذا المضمار ، وكان من الممكن ان تسند تلك المهمات التي تستهلك طاقاتها الى مؤسسات عربية اخرى لا تواجه مشكلة تعريب التعليم والادارة ، وكان من الواجب ان توضع مشكلة التعريب في اطار عملي فعال وان تخرج من اللف والدوران الذي تعيش فيه منذ مدة ليست بالقصيرة .

---

* القيت المحاضرة في شفشاون في اطار نشاط الجمعية .

واني مع المؤمنين بان التعريب ما كان ابدا ليكون مشكلة وانما الامر يتعلق بالاتجاه وبالارادة وان اي موقف من نصرة التعريب او عرقلته ليدل على نوعية الاتجاه وعلى حقيقة الارادة .

واعتقد اننا لو اتجهنا نحو التعريب بمنطق عملي لاختفت المشكلة من الوجود ولتقدمنا اشواطا ، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

وقد تعرض الاستاذ جعفر للاتجاهات الدراسية عندنا وللعقد النفسية التي تتحكم في اصحاب حاملي العالمية اي ذوي التعليم الاسلامي المحض ، والتي تتحكم في اصحاب الاتجاه العصري كما يقولون ، فهناك عقدة النقص وهنا عقدة التعالي ، وبين الخلط الواقع في محاولة تغيير او تلقيم هذين الاتجاهين ، وقد اعطى الاستاذ جعفر للبحث حقه وترجو ان لو يطلع علينا بدراسة عن مشكلة التعريب لاطلاعه عليها اطلاعا حسنا .

وقدم الاستاذ عبد العزيز بلال تصميما للتنمية الاقتصادية في المغرب وكشف بالارقام عن بعض الحقائق الرهيبة كتمتع 3٪ بنحو 70٪ من الارباح وكنا نود لو ساق ارقاما اخرى اكثر خطورة من هاته وخصوصا في الميدان الفلاحي ، وفي ناحية مستوى المعيشة وفي انتشار البطالة الرهيب .

وعلى الرغم من موضوعية البحث فقد كان واضحا ان البحث متأثر بالنظرية الاشتراكية ، وان كان الاستاذ بلال اجاب عن سؤال بانه لا يعالج الموضوع في ظل مذهب معين ، ولا اظن ـ كما قال ـ ان الاسلام يتنافى مع تطبيق برنامج التنمية الاقتصادية .

والواقع ان الاسلام يتبنى اي مشروع فيه تحقيق العدالة الاجتماعية وفيه اسعاد للامة ، فحيثما وجد العدل ، ومصلحة الامة ، فثم شرع الله ، غير ان الاسلام لا يولي الناحية الاقتصادية كل عنايته بل يجعلها جزءا من اصلاح كلي يجب ان يطبق جميعه على الامة ، اما ان نطبق جزئية او ناحية مع اهمال للنظرية الاسلامية العامة فان تلك الناحية قد لا تؤتي اكلها لانفصالها عن كلها الذي به تعيش وتحيا .

وقد كان الاستاذ بلال محترم البحث رصين التفكير ، قديرا على التعبير العربي السليم ، اما الدكتور المجذوب فقد شرح العوامل التي تجعل العرب امة واحدة من تشابه في الجبال والصحارى ومظاهر الطبيعة والتاريخ والحوادث والدين ، وقد اثنى الدكتور على موقف المغرب من التكتلات العربية ووصف ذلك الموقف بالرزانة وقد اثار الدكتور في محاضرته عدة نقاط قد نخالفه في بعضها .

والشيء الذي اريد ان اؤكده للدكتور هو ان المغاربة يشعرون بالاخوة نحو العرب بدافع واحد وهو الدين الذي يوجب عليهم ذلك .

ويشعرون بنفس الاخوة نحو اخوانهم المسلمين الافارقة والاسيويين ، واذا كانت بعض الطبقات الحاكمة في بعض البلاد الاسلامية القليلة اساءت للمسلمين بموقفها السلبي من القضية الفلسطينية ، فان الشعوب الاسلامية لا تؤخذ بجريرتهم ، وان كان بعضهم قد انزل الله بهم عقابه الصارم وستجري على الباقي سنة الله في الذين يجرمون في حق شعوبهم ؛ وفي الذين يصالحون العصابات اليهودية ضد اخوانهم المسلمين الفلسطينيين .

وقد اشار الدكتور المهدي بنعبود الى انه لمس تدينا عظيما في تركيا ، وحبا واحتراما للعرب ، كما سمعت من غير واحد من زوار البلاد الاسلامية عن الحب العظيم الذي تكنه الشعوب الاسلامية للعرب ، الا ان الدعايات الاستعمارية والتوجيهات الثقافية الخبيثة ، والمؤامرات الصهيونية والتبشيرية تحاول ان تفرق بين المسلمين في البلاد العربية واخوانهم في العالم .

اما محاضرة الاساذ عبد الكريم غلاب فلم تتح لي الظروف الاستماع اليها الا ان الاخوان الذين حضروها حدثوني عنها وكان مما اثار مناقشات حادة قول الاستاذ غلاب : ان الفتح الاسلامي كان اولا استعماريا .. وبعد ذلك كان رسالة .

اما النقطة الثانية وهي تغليبه مصلحة المغرب في التضامن الافريقي الاسيوي على القومية العربية.

وقد ناقشه كثير من الحاضرين في النقطتين وكان النقاش ـ كما قيل لي ـ حادا وممتعا ، ومهما يكن من شيء فان الاستعمار له حقيقته الموضوعية وتعريفه الدقيق ، ولا ينطبق ذلك على الاسلام الذي كان رسالة من اول وهلة وما يزال ..

اما مصلحة المغرب فهي في الاتحاد مع العرب ومع افريقيا وآسيا ، وان كان الاولى ان تلم شعث العرب اولا ، وان تدخل الى التكتلات الاخرى ونحن ضمن امة العرب التي يجب ان تبحث البحث الجدي في وحدة او اتحاد قبل فوات الاوان .. وان تخرج من المرحلة العاطفية الى المرحلة العملية .

وقد تناول كاتب هذه السطور الفكرة الاسلامية من ناحية نظام الحكم ، وموقف الاسلام من الضعفاء والاغنياء والمال ، وموقفه على وجه العموم من الانسان، وقارن بين الاسلام والمبادىء الراسمالية والشيوعية وتطبيقات الجميع في واقع الحياة ، وتحدث عن اصالة الفكرة الاسلامية في العقلية المغربية وتمكنها من نفسية المغاربة ، وعلى ذلك فان الدعوة الاسلامية الحقة المنزهة عن البهتان والاستغلال هي الوسيلة الوحيدة لقيادة المغاربة ، وبدون العقيدة الاسلامية لن يفلح هنا مذهب ...

وبعد فاني استسمح القارىء الكريم اذ ليس من الممكن استعراض جميع آراء السادة المحاضرين ، واعطاؤها حقها من التفصيل والشرح والتعليق ، وقريبا تصدر جمعية نبراس الفكر كتابها الثاني محتويا على هذه المحاضرات ..

الا انه لا يفوتني ان افضي الى القارىء الكريم باعظم ظاهرة لمستها في هذا المهرجان ، وهي ان الاتجاه الاسلامي كان بارزا وكان التجاوب قويا بين المحاضرين والمستمعين الواعين في هذه النقطة ، وقد تنبه لهذه الظاهرة القوية احد الصحفيين المغاربة فعلق بقوله : لم يبق على المسؤولين اذن سوى تنفيذ ما تطالب به هذه النخبة من المغاربة ، فلقد بدا بكل وضوح الاتجاه لدى جماعة من كتاب المغرب من مختلف الطبقات والنواحي .

وانا لنرجو ان يكثر اهل الفضل من هذا النوع من الندوات ، ويشركوا ما امكن الشعب في الادلاء برايه في الموضوع حتى يشيع وعي اسلامي يحبط للمستعمرين والمضبوعين من المعجبين بحضارتهم مؤامراتهم على هذه العقيدة . واخيرا يجب ان انوه بمجهودات جمعية نبراس الفكر ونشاط افرادها الذين ابدوا من الصبر والخلق الحسن ما كان سببا في نجاح المهرجان .

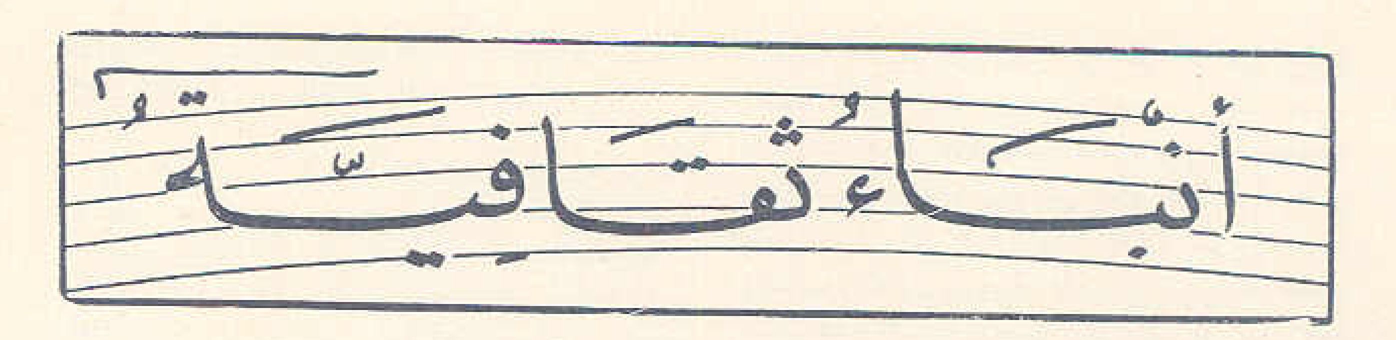
كما ان المستمعين والسائلين والمناقشين كانوا على وعي تام بمشاكل بلادهم ، وقد كانت فرصة رائعة لمناقشة افكار تمس مصالح بلادنا وليلتقي الاخوان من المغرب والمشرق على مصلحة الوطن العربي

كما ابدى الدكتور المهدي بنعبود مقدرة على تسيير جلسات المحاضرات وادارة المناقشات وكان مثال الرزانة والحكمة والحزم واللباقة وقد اجمع الكل على ان يكون رئيس معظم الجلسات .

وكنت اود ان اتحدث عن موقف صحافتنا العربية عن هذا المهرجان لكني اترك ذلك لك ايها القارىء الفاضل .

تطوان : عبد السلام الهراس





* شارك في المؤتمر الاسلامي الذي عقد اخيرا ببغداد وفد من المغرب يتركب من الاساتذة : المختار السوسي وزير التاج ، والسيد محمد الطنجي، والسيد عبد العزيز بن عبد الله ، وابراهيم الكتاني .

* عقدت في هذه الايام لجنة الدعاية والنشر للمكتب الدائم للتعريب بالرباط اجتماعا تحت رئاسة الاستاذ السيد عبد العزيز بن عبد الله الامين العام للمكتب المذكور الذي تحدث فيه عن نشاط التعريب في العالم العربي وبالخصوص في المغرب ، واوضح ان مهمة التنسيق التي يضطلع بها المكتب لا تنحصر في تنسيق وحدة المصطلحات العلمية والفنية بين الدول العربية فحسب ، بل تشمل ايضا توحيد الكتاب العربي حيث يكون في متناول كل مواطن عربي كتاب موحد بين جميع الاقطار العربية في مختلف الشعب العلمية والفنية كما تهدف الى اخراج معجم عربي عربي حي من شانه ان يفيد الاوساط العلمية والفنية في العالم العربي ويكون في متناول التلميذ ، والاستاذ ، الباحث .

* ستزور الصحفية الامريكية كترين ستيرسيرك المملكة المغربية خلال الايام المقبلة للقيام بدراسة حول الصحافة المغربية وسيرها .

* يشتغل قسم التاليف والترجمة والنشر بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية باصدار وترجمة بعض الآثار العربية الى اللغات الحية . من بينها طبع مصحف ، وكتاب « الاحكام الشرعية » لعبد الحق الاشبيل ، و « طبقات المالكية » للقاضي عياض ، وكتابا عن موريطانيا باللغة الفرنسية وترجمة كتاب « لماذا تاخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ » للامير شكيب ارسلان وكتاب « الديموقراطية في الاسلام » للاستاذ العقاد و « الوحي المحمدي » للشيخ رشيد رضا الى اللغة الفرنسية . كما ستصدر للدكتور حسن ابراهيم حسن كتابا باللغة الانجليزية حول الاسلام .

* « التعريف بالمغرب » كتاب صدر اخيرا عن منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية للمؤلف الاستاذ السيد محمد القاسي ، عميد الجامعات المغربية .

* نظم المعهد العراقي بالرباط سلسلة من المحاضرات والمسامرات الادبية يقوم بالقائها نخبة من الادباء والشعراء المغاربة .

* اصدرت منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية كتاب « ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله ونصوصه العربية » لمؤلفه الشيخ رضا الشبيبي .

* يقوم الاستاذ عبد الهادي التازي منذ شهور بتحقيق مخطوط نادر يرجع تاريخه للقرون الوسطى، وهو يتعلق بتاريخ المغرب والاندلس وافريقيا . وتوجد النسخة الوحيدة من هذا المخطوط في مكتبة البودليان باكسفورد . وقد قام الاستاذ التازي مؤخرا بزيارة لاكسفورد حيث يوجد اصل المخطوط وقام بالمراجعات النهائية لبعض المقاطع والكلمات ، كما قام بزيارة لمكتبة اسكوريال حيث توجد بعض الوثائق التي لها علاقة بهذا المخطوط الثمين .

* تقوم دار الكشاف بلبنان باعادة طبع كتاب « ظلال الاسود » لمحمد الصباغ ، طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة وقد صدرت طبعته الاولى بتطوان ، والثانية بتونس في سنة 1956 .

* اهدى سفير المانيا الفيدرالية بالمغرب الى السيد محمد الفاسي عميد الجامعات المغربية، مجموعة من الكتب التي اصدرتها « الجمعية الالمانية للابحاث » وتضم هذه المجموعة 80 مؤلفا عن ثقافة ومشاكل

الدول العربية ، وتدخل هذه البادرة الالمانية فى اطار التعاون الثقافي بين المغرب والمانيا الفيدرالية .

* « ديوان الشاعر الاندلسي ابن دراج القسطلي نشر لاول مرة على نفقة صاحب السمو « الشيخ عبد الله ءال ثاني » عن نسخة خطية مغربية. بعث سموه مندوبا الى المغرب لتصويرها ، ثم عهد الى الدكتور محمود علي مكي ، بتحقيقها وشرحها . وقد طبع الديوان فى مطبعة المكتب الاسلامي بدمشق ويقع فى 600 صفحة من القطع الكبير .

* اصدرت مؤخرا وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية صحيفة يومية باللغة الفرنسية باسم « الامة الافريقية » يديرها الاستاذ ادريس الفلاح، رئيس ديوان معالي الوزير .

* ستنشر السفارة المغربية فى بغداد معلومات معززة بالصور عن عمليات النقش التي قام بها الفنانون المغاربة فى جامعي الشهيد ، والامام الاعظم .

* اصدر معالي وزير البريد فى الحكومة المغربية تعليماته لجميع المصالح البريدية والهاتفية والبرقية بان تعامل الجمهور باللغة العربية . وهدد السيد الوزير باتخاذ عقوبات صارمة ضد كل من يخالف هذه التعليمات التي تدخل فى دائرة التعريب .

* صادرت حكومة جنوب افريقيا رواية « عالم من الغرباء » للكاتبة نادين جورديمر .

* سيقام فى اطلال وليلي فى الايام القريبة مهرجان حوض البحر الابيض المتوسط .

* يعد الاستاذ زين العابد السنوسي تتمة تاريخه عن « الادب التونسي فى القرن العشرين » .

* وصلت الى ليبيا مؤخرا بعثة لتحديد معالم مدينة بولونيا الاثرية التي كانت قد غمرتها مياه البحر على اثر حادث زلزال قبل 2000 سنة . وقد كانت هذه المدينة التي تبعد نحو 200 ميل من ميناء العضم على الساحل الليبي فى يوم من الايام ميناء ناجحا مزدهرا ، ومركزا من اعظم المراكز التجارية فى القرن الخامس قبل الميلاد . وقد امضى الجنود ستة ايام يغوصون تحت الماء بين الخرائب والاطلال ، وقد اشتملت الاشياء التي تمكنوا من اخراجها على اوعية لحفظ الخمر ، وعجلة طاحون ، وقدمي تمثال يعود تاريخ صنعه الى 100 سنة ق.م. ومرساة سفينة رومانية ، ومجموعة كبيرة من قطع الفخار ، ومن جملة الاماكن التي نقب فيها الجنود برج الميناء . والمكاتب والمخازن ورصيف الميناء القديم ، وقد حفظت جميع هذه الاشياء لفحصها ودراستها من قبل علماء الآثار والخبراء .

* « طائر الليل » عنوان الديوان الاول للشاعر السوداني حسن عباس صبحي . قدم له الدكتور عبد الحميد يونس .

* صدرت ثلاثة مؤلفات عالمية تضم اهم المراجع الدولية عن الدراسات التي ظهرت خلال عام 1959 حول العلوم الاجتماعية .

* « اللغة الشاعرة » للكاتب عباس محمود العقاد ترجمه الى الانجليزية لويس مرقص .

* « معجم الحضارة » كتاب صدر قريبا للكاتب المصري محمود تيمور يضم الف كلمة حضارة اجنبية وما يقابلها فى العربية .

* صدر فى القاهرة ديوان شعر للشاعرة جميلة رضا بعنوان « انا والليل » .

* « قصر العذارى » عنوان المجموعة الجديدة التي ستصدر للاستاذ حسين القباني ، عن الدار المصرية للطباعة والنشر .

* ظهر سجل ثقافي لعام 1959 عن ادارة السجل الثقافي بوزارة الثقافة وبه حصر شامل لجميع المؤلفات التي ظهرت فى ميدان الفنون والآداب والعلوم فى ذلك العام .. هذا بجانب المسرحيات والافلام التي عرضت فى عام 1959 .

* فى عام 1952 ، اكتشف المرحوم الاديب عبد الوهاب عزام قبر المتنبي فى مدينة تسمى النعامية ،

ولكن هذا الاكتشاف طوته الاحداث .. واخيرا تابعت جمعية الكتاب فى العراق ، ابحاث الاديب المصري ، حتى توصلت اخيرا الى صحتها .

* يترجم الدكتور حازم عثماتوفتش عضو المعهد العالي للدراسات الشرقية بسيراجيفو قصة « سر الهاربة » للاستاذ حسن رشاد .

* يظهر قريبا كتاب الدكتور رشاد رشدي الجديد وهو يضم مجموعة المقالات النقدية التي كتبها فى الفترة الاخيرة فى الصحف والمجلات الادبية وتشمل وجهة نظره فى حركة النقد القصصي والروائي والمسرحي ..

* صدر هذا الاسبوع فى القاهرة كتاب « منطق ابن خلدون فى ضوء حضارته وشخصيته » للدكتور علي الوردي قضى 14 سنة فى اعداد هذا الكتاب . اثبت المؤلف ان ابن خلدون هو ثمرة الثقافة العربية الاسلامية » يعتبر الدكتور الوردي من ابرز المفكرين فى العراق صدرت سبعة كتب فى الرد على آرائه الثقافية والحضارية .

* «عيسى» كتاب جبران خليل جبران عن المسيح عليه السلام صدرت ترجمته العربية هذا الاسبوع .. الترجمة بقلم الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة . هذه هي الترجمة الثالثة لاعمال جبران التي قدمها وزير الثقافة للمكتبة العربية ، قدم الوزير قبل ذلك « النبي » و « حديقة النبي » .

* يصدر فى مشروع الالف كتاب مجموعة قصص ومقالات للكاتب الصيني لوسون من ترجمة مرسي سعد الدين ومراجعة سهير القلماوي . الصين احتفلت بمرور 80 سنة على وفاة لوسون .

* يصدر المجلس الاعلى للفنون والآداب قريبا اول مجموعة من مشروع « الكتاب الاول » وعددها 7 كتب ، كما يبدا فى نشر الرسائل الجامعية التي يتقدم بها اصحابها .

* رسائل الشاعر الفرنسي « بول ايلوار » الذي توفى منذ عشر سنوات جمعها « روبير فاليت » فى كتاب صدر قريبا بعنوان « رسائل ايام الشباب »

* صدرت اول مجموعة قصص فى السلسلة الجديدة من الكتاب الماسي للكاتب مكاوي بعنوان « الزمن الوغد » .

* « صور من ادبنا الشعبي » . كتاب جديد للاستاذ محمد البقلي ، يتناول فيه فنون الادب الشعبي .. صدر عن دار الانجلو المصرية .

* ارسل الدكتور حسين مؤنس وكيل معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد بعض المخطوطات الموسيقية العربية التي ترجع الى ايام العصر الاسلامي فى اسبانيا الى المجلس الاعلى للاداب .

* اختار توفيق الحكيم كلا من يوسف ادريس واحمد حمروش لاعادة كتابة حوار مسرحيته « العش الهادىء » و « اللص » باللغة العامية لتقدم على المسرح التليفزيوني . يوسف سيكتب حوار « العش الهادىء » ، واحمد حمروش سيكتب حوار « اللص » .

* كامل يوسف يعمل فى اول موسوعة للمصطلحات الدرامية باللغة العربية . تضم الموسوعة كل المصطلحات فى الفنون الدرامية المختلفة وعرضا للمذاهب والتيارات المسرحية منذ نشوء المسرح حتى الآن .

* يظهر قريبا فى الاسواق كتاب انيس الصائغ الجديد « من وحي الانفصال » والكتاب يعالج بعين المؤرخ والبحاثة السياسي ، الظروف التي ادت الى الانفصال فى سورية ، والكتاب دراسة موضوعية تأريخية للاحداث القومية التي ستترتب على العرب من جراء هذه النكسة . وهذه هي الدراسة الاولى عن التطورات العربية منذ الانقلاب الانفصالي فى سورية .

* « الاسلام والديموشتراكية » عنوان الكتاب الجديد للاستاذ عبد الهادي مسعود يبحث الجزء الاول فى الاشتراكية الشعبية وراي الاسلام فى مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية ويتناول الدين فى اطار المجتمع الذي تعيش فيه .

* اصدر المجمع اللغوي الجزء الثالث من « معجم الفاظ القرءان الكريم » اعدته لجنة من : علي عبد الرزاق ، امين الخولي ، محمد علي النجار ، والمرحوم ابراهيم مصطفى وعبد الستار فراج .

❊ الروائي الكبير نجيب محفوظ .. يبلغ الخمسين من عمره في نهاية العام الحالي .. قرر مجموعة من النقاد اصدار كتاب بهذه المناسبة ، عن فنه وحياته .

❊ اول ترجمة كاملة لمسرحيات الكاتب آرثر ميللر بالعربية صدرت عن مطبوعات كتابي يصدرها حلمي مراد .. نشرت مسرحية « كلهم ابنائي » ومسرحية « من فوق الجسر » .

❊ الشاعر اللبناني رشيد سليم الخوري المعروف بالشاعر القروي يقيم الآن بالقاهرة للاشراف على طبع ديوانه الجديد .

❊ « الفرد والمجتمع فى الاسلام » آخر كتاب للاستاذ محمود الشرقاوي صدر هذا الاسبوع .

❊ « قضايا الانسان فى الادب المسرحي المعاصر » عنوان الكتاب الجديد الذي صدر للدكتور عز الدين اسماعيل المدرس بكلية اداب عين شمس . الكتاب دراسة ضافية للتيارات الفكرية فى المسرح العالمي .

❊ المهرجان الرابع لشعراء الجمهورية العربية المتحدة ، تقرر ان يقام فى شهر اغسطس المقبل ، بمدينة الاسكندرية وسيختار اكثر الشعراء المشتركين فى المهرجان على اساس مكانتهم ونتاجهم الشعري ، مع مراعاة تمثيل جميع محافظات الجمهورية .

❊ « كتاب محمد رسول الحرية » الذي كتبه عبد الرحمن الشرقاوي . اصدرته دار عالم الكتب .. سيترجم الكتاب الى اللغات الاجنبية الحية .

❊ «السفارات الثقافية فى الدبلوماسية الاسلامية» اسم الكتاب الذي صدر اخيرا للاديب الشاعر حسن فتح الباب .

❊ الدكتور عمر مكاوي مترجم (دليل المراة الذكية) لبرناردشو . يترجم الآن رواية (كولي) لملك راج اناند اعظم روائي معاصر فى الهند . يعمل الروائي الهندي الآن استاذا لكرسي (طاغور) للادب والفن فى جامعة نيودلهي ، ملك راج اناند سيكتب مقدمة للترجمة العربية من روايته . تتحدث الرواية عن الهند فى ظل الاستعمار الانجليزي .

❊ قررت وزارة التربية المصرية اصدار قاموس انجليزي عربي يضم مائة الف كلمة . تالفت لجنة من اساتذة كلية الآداب لاعداد القاموس .

❊ الدكتورة فاطمة موسى المدرسة بكلية الآداب انتهت من اعداد كتاب عن (تراث الشرق فى الادب الانجليزي) . سوف يصدر للدكتورة فاطمة خلال هذا العام ايضا كتاب عن (نجيب محفوظ) يدرس شخصيته الفنية دراسة نقدية واسعة .

❊ مجموعة من الحكايات الشعبية ، ظهرت مترجمة الى اللغة الانجليزية مع دراسة عن التقاليد والعادات ــ اسم هذه المجموعة « المانجو واشجار النخيل » لدرايل بيبتس ويقع الكتاب فى 350 صفحة من القطع المتوسط .

❊ من الكتب التي صدرت فى الشهر الماضي بالقاهرة « اله رغم انفه » لفتحي رضوان والتفسير البياني للدكتورة بنت الشاطىء . وكتاب « عبد الرحمن ابن خلدون » للدكتور علي عبد الواحد وافي » و « مع المسيح فى الاناجيل الاربعة » لفتحي عثمان و « النهر » لعبد الله الطوخي ، و « سنوات الحب » لامين يوسف غراب ، وكتاب غادة السمان .. « عيناك قدري » ثم « ماساة اورشليم » لعبد العاطي جلال .

❊ قررت وزارة الثقافة العربية نشر ديوان « المشاغل » لكامل امين وديوان « فى العاصفة » لكيلاني حسن سند و « ايام من عمري » لابراهيم محمد نجا وكان امين اصدر قبل هذا الديوان ملحمته « السموات السبع » وديوانه « نشيد الخلود » كما اصدر كيلاني حسن سند ديوانه الاول « قصائد فى القنال » عام 1957 .

❊ فرغ محمد عبد المنعم خفاجة من دراسته عن « بناء القصيدة العربية » متتبعا صور بنائها منذ نشاتها الاولى فى العصر الجاهلي الى العصر الحديث .

❊ تبدا ادارة التاليف فى وزارة الثقافة بمصر فى اصدار سلسلة جديدة فى شهر مارس القادم ، عنوانها « التراث الانساني» وتتناول فيه دراسة وتلخيصا للاتجاهات والاعمال الفكرية التي كان لها اثر فى تقدم الانسانية ، اختارت اسماء الكتاب الذين يسهمون فى

اصدار هذه السلسلة ، اللجنة برئاسة الاستاذ العقاد .

* اهدى الاستاذ العقاد مكتبته الى مدينة اسوان .

* « تباريح الشباب » عنوان كتاب جديد صدر للمرحوم اسماعيل مظهر .

* المؤتمر الثالث لكتاب آسيا وافريقيا سيعقد في جاكرتا سنة 1963 . المؤتمر الرابع سيعقد سنة 1964 في كولومبو . الثاني كان في القاهرة والاول كان في روسيا .

* « معجم الحضارة » كتاب جديد صدر اخيرا للاستاذ محمود تيمور .

* ذكرت جريدة « الاهرام » ان العالم الاثري حسن عبد الوهاب انتهى من تحديد مكان دفن فيلسوف العرب الاجتماعي ابن خلدون ، وامكن تحديد مقبرته في خارج باب النصر بالقاهرة .

* « الفكر العربي » مجلة ادبية جديدة تصدر في القاهرة ، رئيس تحريرها صلاح نور .

* قررت وزارة الثقافة والارشاد السورية طبع مسرحيتين « الجثة المطوقة » و « الاجداد يزدادون ضراوة » للاديب الجزائري كاتب ياسين ، وقامت بترجمته السيدة ملك ابيض العيشي ، وراجعه كمال الخوري .

* ستصدر دار الشرق بحلب قريبا سلسلة من المسرحيات العالمية ، تصدر المسرحية الاولى وهي «دون خوان» لموليير ترجمة جورج سالم ومراجعة وتقديم خليل الهنداوي ، ثم المسرحية الثانية باسم «كاترين» برلنديللو ، ترجمة جورج طرابلسي ومراجعة وتقديم الدكتو ابراهيم الكيلاني ، والمسرحية الثالثة « مشهد من الجسر » لارثر ميللر ، ترجمة رينه عبودي ، والمسرحية الرابعة « الملكة والمتمردون » لايفوبتي وترجمة ليلى سالم .

* ينهمك الآن معهد الابحاث والدراسات للتعريب في طبع اول معجم في العالم العربي في الرياضيات والفيزياء محتويا على 7000 مصطلح بالعربية والفرنسية والانجليزية ، وقد تضافر على اعداده اعضاء المعهد تحت اشراف الاستاذ خير الدين حقي عميد كلية الهندسة بجامعة حلب سوريا سابقا ، وجمعوا فيه كلما وصلت اليه جهود علماء المجامع والاتحادات والهيئات العلمية واللغوية والفنية وسيطبع منه 350 نسخة ، توزع على مختلف الهيئات المختصة للملاحظة والاختيار وموافاة المكتب الدائم لمؤتمر التعريب بذلك ليقوم بتنسيق هذه الحصيلة العلمية ، والعمل على توحيدها ، ولا يخفى ان هذه اول خطوة جدية يخطوها العالم العربي في ميدان تنسيق جهوده وتوحيدها ليجاري ركب الحياة السريع ، وقد صنف هذا المعجم في سنة ، وعكفت الجماعة على تدوينه بعد ان بذلت جهودا كبيرة في تحرير الكتب الدراسية والبحث والتنقيب في المراجع اللغوية والعلمية القديمة والحديثة حتى خرج للوجود معجما فريدا من نوعه .

* نعت بيروت الكاتب اسكندر حريق ، استاذ الادب العربي في الجامعة الامريكية سابقا ، وصاحب عدة مؤلفات ومقالات وابحاث ادبية واجتماعية .

* كلف المكتب التجاري في بيروت جوزيف هاشم بتأليف كتاب عن الشاعرين اللبنانيين الكبيرين بولس سلامة وامين نخلة .

* عهدت وزارة التربية بسوريا الى الدكتور عبدالله عبد الدائم بترجمة « مدارس الغد » تأليف جون ديوي

* يهيىء الشاعران شوقي ابو شعراء وانسي الحاج مجموعة شعرية جديدة تصدر في هذه الايام .

* مادلين فرح اديبة امريكية من اصل لبناني تزور القاهرة الآن لاعداد كتاب عن «العقاد الفيلسوف» اختارت مادلين 17 كتابا من مؤلفات العقاد لتدرسها وتستخلص منها الجانب الفلسفي . تقول مادلين : ان العقاد لم يتزوج لانه احب في شبابه فتاة مسيحية فوقف الدين في وجهه يوم اراد الزواج منها .

* « موت الآخرين » هو اسم المجموعة الشعرية الجديدة التي ستصدر لرياض نجيب قريبا عن المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر في بيروت .

فهرس العدد السابع ـ السنة الخامسة